

صَحَابَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
مَعَ سِيرَةِ كُلِّ صَحَابِيٍّ وَتَفْسِيرِ الْآيَاتِ

# حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٥٤٩٩ / ١٠ / ٢٠١٧)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنف وهو لا يعبر  
هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

دار النشر والتوزيع

عمّان، ساحة الجامع الحسيني، سوق البتراء - عمارة الحنجري  
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن  
E-mail: dar\_ammara@hotmail.com



# صَحَابَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا

مَعَ سِيرَةِ كُلِّ صَحَابِيٍّ وَتَفْسِيرِ آيَاتِ

تأليف

إبراهيم النعمة الموصلي

عني بطباعته وتدقيقه  
عصام فارس الحورستاني

دار عمارة



# كتاب العالم ولده المخلد

قال ابن الجوزي رحمه الله:

يُنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ذَرِيَّةٍ تَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَهُ، فَيَكُونُ الأَجْرُ لَهُ، أَوْ يَصْنَفَ كِتَاباً مِنَ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ تَصْنِيفَ الْعَالَمِ وَلَدَهُ الْمَخْلُدَ... فَيَنْقَلُ مِنْ فَعْلِهِ مَا يَقْتَدِي الْغَيْرَ بِهِ، فَذَلِكَ الَّذِي لَمْ يَمِتْ:

قَد مَاتَ قَوْمٌ وَهَمَّ فِي النَّاسِ أَحْيَاءٌ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ أَيْضاً:

(رَأَيْتُ مِنَ الرَّأْيِ الْقَوِيمِ أَنْ نَفَعَ التَّصَانِيفَ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِ التَّعْلِيمِ بِالْمَشَافَهَةِ؛ لِأَنِّي أُشَافَهُ فِي عَمْرِي عِدداً مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ، وَأُشَافَهُ بِتَصْنِيفِي خَلْقاً لَا تَحْصِي مَا خُلِقُوا بَعْدَ. وَدَلِيلُ هَذَا أَنْ انْتَفَعَ النَّاسُ بِتَصَانِيفِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَكْثَرَ مِنْ انْتِفَاعِهِمْ بِمَا يَسْتَفِيدُونَهُ مِنْ مَشَائِجِهِمْ...)<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٣٤، بعناية حسن السباحي سويدان، الطبعة الثانية لدار القلم / دمشق.

(٢) نواذر الشوارد لمحمد خير رمضان يوسف، ص ٧، الطبعة الأولى ١٤٢٠ - ١٩٩٩، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، ودار ابن حزم، بيروت.



## مقدمة

نحمدك اللهم ونستهديك، ونستعينُ بك ونتوكَّلُ عليك، ونصلي ونسلم صلاة طيبةً زاكيةً مباركة، على مَنْ ختمت به الشرائع وأرسلته رحمةً للعالمين، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، الذين اصطفيتهم من خلقك، وائتمنتهم على تبليغ هذا الدين إلى الناس كافة! اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد!

أما بعد:

فهذا كتاب (صحابه أنزل الله فيهم قرآناً)، ذكرتُ فيه الأحاديث الصحيحة والحسنة في أسباب النزول، مع ذكر عدد من الأحاديث التي رواها الصحابي - إن كانت له رواية - وذكر نماذج منها، وصلة عدد من الآيات المفسرة مع ما قبلها من الآية أو الآيات. ولم أذكر كل الآيات التي نزلت في الصحابة، بل اكتفيت بقسم منها، وإذا كان قسم من المفسرين قد ذكر أكثر من سبب في ذكر نزولها، فاخترتُ سبباً واحداً - في الغالب - وذكرتُ عدداً من الصحابييات اللاتي أنزل الله فيهن قرآناً. وهذا لا يتعارض مع عنوان الكتاب، فذكرتُ الصحابة من باب التغليب. وعند تخريجي للأحاديث لم أذكر كل الرواة لها؛ لأن الكتاب ليس بكتاب حديث تخفيفاً على القارئ، فاكتفيت بذكر قسم منها، وإذا كان الحديث قد رواه البخاري أو مسلم أو كلاهما، فاكتفيت بذكر واحد منهما في بعض الأماكن.

واللهَ أسأَلُ أنْ يجعلَ عملي هذا وغيره من الأعمال خالصاً لوجهه الكريم،  
وينفَعني به يوم الدين، وأن يغفرَ لي زلاتي وأخطائي إنه هو الغفور الرحيم، وأن  
يجمعَ شملَ المسلمين ويُفَرِّجَ كروبهم في كل مكان، مؤملاً أن لا ينساني القارئ  
الكريم من دعواته. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل!

### إبراهيم النعمة الموصلي

نزىل المملكة الأردنية الهاشمية في عمّان

٢٤ / ربيع الآخر / ١٤٣٨ هـ

الموافق ٢٣ / كانون الثاني / ٢٠١٧ م

\*\*\*



## أسباب النزول

معرفة سبب نزول آيات القرآن فرع من فروع علم التفسير، ولها أهميتها في تفسير قسم من آيات القرآن، بل إن بعضاً من آيات القرآن لا يُعرفُ تفسيرها من غير الوقوف على سبب نزولها، وفي معرفة سبب النزول تبيان لحكمة التشريع، وفيه - أيضاً - تبيان لمجمل القرآن، وإيضاح الخفي منه.

والرسول ﷺ لم يملك اختيار الوقت الذي ينزل عليه الوحي بآيات القرآن، فإن ذلك مرتبط بمشيئة الله وحده: فكان القرآن ينزل على الرسول الكريم في الليل والنهار، والسفر والحضر، من غير أن يكون له أيُّ اختيار كان في ذلك... وكان الرسول الكريم يُسأل فيجيب من فوره، أو ينتظر نزول الوحي حاملاً الجواب، مثال ذلك قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [الأنفال: ١].

وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد عبّر العلماء عن الوقائع التي نزلت بسببها الآيات بـ (أسباب النزول). وهذا المصطلح هو من باب التسامح والتجوز، وإلا فهي مناسبات وليست بأسباب حقيقية. وعند التأمل بالقرآن الحكيم، نرى أنه ينقسم من حيث ارتباط آياته بسبب أو بغير سبب على قسمين:

القسم الأول: ويشمل أكثر آيات القرآن الكريم، فقد نزلت ابتداءً من غير أن ترتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وذلك لإرشاد الناس إلى العقيدة الصحيحة، ووصف مشاهد القيامة، والجنة والنار، والحديث في قصص الأمم مع أنبيائها.

القسم الثاني: نزل بأسباب ووقائع، وكثير من هذا القسم يتعلق بالتشريع والأحكام: فتنزل الآيات بأسباب كأن يكون جواباً عن سؤال، أو تصحيحاً لأخطاء وقعت، ذلك لأن الصحابة الكرام وهم يعايشون أحداث السيرة النبوية، يقع فيهم حادث يلتبس عليهم فهمه؛ فيسألون رسول الله ﷺ عنه، فتنزل الآيات في ذلك مبيّنة الحكم الفصل. مثال ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال:

(لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] <sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه البخاري - واللفظ له - في كتاب تفسير القرآن (سورة تبت يدا أبي لهب وتب) حديث ٤٩٧١ ص ٨٩١، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: وأنذر عشيرتك الأقربين) حديث ٥٠٨ ص ١٠٩.

وقد يُسأل الرسول ﷺ عن شيء، فينزل عليه القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة التي ظاهرَ منها زوجها (أوس بن الصامت)، وذهبت خولة تشكو إلى رسول الله من ذلك، قالت عائشة: (تبارك الذي وَسِعَ سمعُه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضُه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله: أكلَ شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرتُ سني، وانقطع ولدي، ظاهرَ مني! اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...﴾ [المجادلة: ١] (١).

وكمثال على ذلك - أيضاً - ما رواه البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (كنتُ قيناً في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دينٌ، فأتيتُه أتقاضاهُ، قال: لا أُعطيكَ حتى تكفُرَ بمحمد ﷺ، فقلتُ: لا أكفُرُ حتى يُميتَكَ اللهُ، ثمَّ تبعثَ. قال: دعني حتى أموتَ وأبعثَ، فسأوتني مالاً وولداً فأقضيكَ، فنزلت: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ۗ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٧٨] (٢).

(١) قال مؤلفنا كتاب «الاستيعاب في بيان الأسباب»: أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، ووصله الإمام أحمد في مسنده، ورواه ابن ماجه في كتاب الطلاق باب الظهار، حديث ٢٠٦٣، ص ٢٩٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع (باب: ذكر القين والحداد) حديث ٢٠٩١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، طبعة الفيحاء ودار السلام.

إن هذا الذي مرَّ ذكره يتعلق بالأسباب الخاصة على مستوى الآيات، وهناك أسباب عامة نزلت فيها سور بتمامها: كسورة الأنفال التي نزلت في شأن (غزوة بدر الكبرى)، و(كسورة الفتح) التي نزلت في شأن الحديبية، و(كسورة الحشر) التي نزلت كلها بشأن بني النضير.

### معرفة سبب النزول:

يعتمد العلماء في معرفة سبب النزول على النقل الصحيح عن الصحابة... أولئك الذين عايشوا نزول القرآن، وشاهدوا أحداثه. يقول الواحدي: (ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدّوا في الطلاب)<sup>(١)</sup>.

ونشير هنا إلى أن أخبار الصحابي عن سبب النزول إذا كان صريحاً له حكم المرفوع، وأما قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنه يُقبل أيضاً ويكون مُرسلاً إذا صحَّ سنده، وكان الراوي من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، واعتضد بمرسل آخر<sup>(٢)</sup>، ولقد كان أول من صنف في أسباب النزول هو علي بن عبد الله المديني المتوفى سنة ٢٣٤، وكان كتاب علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هو أشهر كتاب صنف في هذا العلم، وأما

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدى ص ٥ بتحقيق السيد أحمد صقر. دار الكتاب الجديد / لجنة إحياء التراث الإسلامي. الطبعة الأولى، ١٣٨٩ - ١٩٦٩.

(٢) لباب القول في أسباب النزول للسيوطي، ص ١٥، الطبعة السابعة، ١٤١٠ - ١٩٩٠، دار إحياء العلوم، بيروت.

أجمع كتاب، فهو كتاب السيوطي المتوفى سنة ٩١١ (لباب النقول في أسباب النزول).

### أسباب النزول وفهم القرآن:

وأسباب النزول تُعَيَّنُ في فهم المراد من الآية، ومعرفة ما فيها من تشريع، يقول ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢هـ:

(بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن)<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ:

(معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)<sup>(٢)</sup>.

١- فقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، قد يُشكِّلُ فهمه على بعض من يقرؤه، ذلك لأنَّ السعيَ بين الصفا والمروة واجبٌ من واجبات الحج، وعبارة (لا جُنَاحَ) في الآية قد يُفهم منها عدم الوجوب، وهذا الإشكال وقع لعروة بن الزبير، وهو من هو دراية في لسان العرب، فسأل خالته السيدة عائشة أم المؤمنين، فأفهمته أن نفي الجُنَاح لا يراد به نفي الفريضة، بل هو نفي لما وقر في أذهان الناس في فجر

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ص ٤٨، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص ١٣، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ/ المكتبة السلفية/ القاهرة.

الإسلام الأول، ذلك لأنَّ السعي كان من عمل الجاهلية: فقد كان على الصفا صنم يسمى (إساف)، وعلى المروة صنم آخر يسمى (ناثلة)، وكان المشركون في الجاهلية يقومون بالسعي بين الصفا والمروة، ويتمسحون بالصنمين. ولما فتحت مكة حُطِّمَ الصنمان، وقد تخرج المسلمون من الطواف فنزلت الآية<sup>(١)</sup>.

٢- عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مُظلمة، فلم نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةَ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مَنَّا عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، فنزل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهُ اللَّهُ إِلَيْكَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]<sup>(٢)</sup>.

فلم يُضَيِّعِ اللهُ تَعَالَى أَجْرَ مَنْ صَلَّى تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْمَظْلَمَةَ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ اتِّجَاهُ الْقِبْلَةِ. فلولا معرفة سبب نزول الآية، لأباح كل واحد لنفسه أن يتجه إلى أية جهة كانت في الصلاة؛ عملاً بظاهر الآية.

٣- عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: مات رجلٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تُحَرَّمَ الْخَمْرُ فلما حُرِّمَتْ قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا

---

(١) لزيادة الاطلاع ينظر: ما رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (باب: قد نرى تقلب وجهك في السماء) ص ٧٦٣.

(٢) رواه الترمذي في أبواب الصلاة (باب: ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم)، حديث ٣٤٥، وأبواب تفسير القرآن (باب: ومن سورة البقرة) حديث ٢٩٥٧، ص ٦٦٥، وابن ماجه (باب: من يصلي لغير القبلة وهو لا يعلم)، حديث ١٠٢٠، ص ١٤٣.

اتَّقُوا وَءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... ﴿المائدة: ٩٣﴾<sup>(١)</sup>.

لقد أجابت هذه الآية عن سؤال الصحابة عن حال الذين أدركهم الموت قبل أن تُحرم الخمر؛ ظانين أن الله يحاسبهم على شربها؛ فجاءت الآية مبينة أن مَنْ شَرِبَهَا قبل تحريمها لا إثم عليه.

فلولا معرفة سبب نزول الآية، لتوهمَ قسم من الناس بحِلِّ الخمر وغيرها من المحرمات.

### تعدد سبب النزول:

في القرآن الكريم آيات ذكروا أن الآية الواحدة منها ورد في نزولها عدة أسباب وقد ظنَّ مَنْ ظنَّ أن هذا التعدد يدل على خطأ بعض الرواة؛ لذلك صاروا يسلكون سبيل الترجيح فيأخذون بالراجح وَيَدْعُونَ المرجوح.

وحيثما نعيد النظر في أسباب نزول عدد من الآيات، يتضح أن الآية الواحدة قد جاءت لمعالجة عدد من القضايا التي وقعت. وهنا يروي كل صحابي ما حضره عند نزول هذه الآية أو تلك، فيكون عندنا أسباب عديدة لنزول الآية الواحدة، وقد تكون تلك الأسباب صحيحة، من غير أن يكون تناقض بينها، وهذه أمثلة على ذلك:

أ- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خَطَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم خُطْبَةً ما سمعت مثلها قطُّ، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال فغطَّى أصحاب

(١) رواه الترمذي في (باب: ومن سورة المائدة) حديث ٣٠٥٠، ص ٦٨٧.

رسول الله ﷺ وجوههم لهم حين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]<sup>(١)</sup>.

ب - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قومٌ يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تَضِلُّ ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] حتى فرغ من الآية كلها<sup>(٢)</sup>.

ج - عن علي بن أبي طالب ؓ قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، قالوا: يا رسول الله في كل عام؟ فسكت؛ قالوا: يا رسول الله في كل عام، قال: لا، ولو قلت نعم لوجبت، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن ذكر ابن حجر بعض الأحاديث في هذا قال: (لا مانع أن يكون

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: قوله لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، حديث ٤٦٢١، ص ٧٩٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: قوله لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، حديث ٤٦٢٢، ص ٧٩٠.

(٣) رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن - سورة المائدة - حديث ٣٠٥٥، ص ٦٨٨.



الجميع سَبَبَ نزولها والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وهناك تفصيلات كثيرة في تعدد الروايات في سبب النزول لم أذكرها مع تفصيلاتها؛ خشية الإطالة، تجدونها في كتاب (الموسوعة القرآنية المتخصصة)<sup>(٢)</sup>.

### فوائد معرفة أسباب النزول:

لمعرفة أسباب النزول فوائد كثيرة منها:

١- التعرف على حكمة الله فيما شرعه في قرآنه.

٢- الاستعانة به في فهم الآية، ودفع الإشكال عنها كما مر بنا.

٣- معرفة من نزلت الآية فيه على التعيين.

\*\*\*

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر ٨/٣٥٦، الطبعة الثالثة ١٤٢١ - ٢٠٠٠، دار

السلام، الرياض، ودار الفيحاء دمشق.

(٢) وهو كتاب يشتمل على خمسة عشر مدخلاً، وفي كل مدخل عدد من الموضوعات المتعلقة بالقرآن

الكريم، صدر عن وزارة الأوقاف المصرية - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - اشترك في

كتابه صفوة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، طبع سنة ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، القاهرة.

## من أحكام الصيام

قال الله تعالى:

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْاَيْلِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك - وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه - فجاءته امرأته، فلما رآته قالت: خبيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴿البقرة: ١٨٧﴾<sup>(١)</sup>.

وهناك روايات أخرى في سبب النزول.

\*\*\*

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم (باب: قول الله جل ذكره: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى

فَسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، حديث ١٩١٥، ص ٣٠٨.

## قيس بن صرمة

اختلف باسم هذا الصحابي: فقيل: قيس بن صرمة، وقيل: صرمة بن قيس، وقيل: قيس بن مالك بن أوس، وقيل: صرمة بن أبي أنس - واسم أبي أنس: قيس ابن صرمة - وقيل: غير ذلك، وقد اشتهر بكنيته، فكان يُدعى بأبي صرمة، وبأبي قيس، وترجم له العسقلاني باسم صرمة بن أنس.

قال ابن هشام - نقلاً عن ابن إسحق - : (وكان رجلاً قد ترهَّبَ في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء، وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخله عليه فيه طامث ولا جنب، وقال: أعبُدُ ربَّ إبراهيم، حين فارق الأوثان وكرهاها)<sup>(١)</sup>.

وكان يحب قريشاً، ويقيم عندهم السنين بامراته، وله قصيدة يعظم فيها الحرمه، وينهى قريشاً فيها عن الحرب، ويذكر فضلهم وأحلامهم... ويأمرهم بالكفِّ عن رسول الله ﷺ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٢٣/٢ - ١٢٤، تحقيق: مصطفى السقا وجماعته، دار إحياء التراث العربي، بيروت. والبداية والنهاية لابن كثير ١٦٦/٣، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١٦٣/٣.

أسلم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد حسن إسلامه، وكان قوَّالاً بالحق...  
ومنذ أن أكرمه الله بالانضواء تحت لواء الإسلام، ظل ثابتاً على عقيدته،  
متمسكاً بشريعة الله، عاملاً بكل أمرٍ ونهيٍ لرسول الله ﷺ، وقد شهد غزوة بدر  
وما بعدها من المشاهد<sup>(١)</sup>، وكان شاعراً من الشعراء المعروفين، وهو القائل حين  
قدم رسول الله ﷺ المدينة:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة  
ويعرض في أهل المواسم نفسه  
فلما أتانا أظهر الله دينه  
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى  
يقصُّ لنا ما قال نوح لقومه  
وقال يوصي قومه:

يُذَكِّرُ مَنْ يلقى صديقاً مواتياً  
فلم يرَ من يُؤوي ولم يرَ داعياً  
فأصبح مسروراً بطيبة راضياً  
وكان له عوناً من الله باديماً  
وما قال موسى إذ أجاب المنادياً<sup>(٢)</sup>

يقول أبو قيس وأصبح غادياً  
فأوصيكم بالله والبرِّ والتقوى  
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم  
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم  
وإن ناب غُرماً فادح فارفقوهم

ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا  
وأعراضكم، والبرُّ بالله أول  
وإن كنتم أهلَ الرياسة فاعدلوا  
فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا  
وما حملوكم في الملمات فاحملوا

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ٢٥٤، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد  
الموجود، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٢٥، وتقع في أربعة عشر من الأبيات.

وإن أنتم أmeerتم فتعففوا وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا<sup>(١)</sup>

عاش رضي الله عنه نحواً من عشرين ومائة سنة<sup>(٢)</sup>، وهو القائل:

بدا لي أني عشتُ تسعين حجةً وعشراً وتسعاً بعدها وثمانياً  
فلم أَلفها لما مضتْ وعددتها بحسبتها في الدهر إلا ليالياً

روى تسعة أحاديث عن رسول الله ﷺ كما يقول ابن حزم<sup>(٣)</sup>.

روى عنه ابن محيريز، ولؤلؤة، ومحمد بن كعب القرظي...

ومن الأحاديث التي رواها:

«مَنْ ضَارَّ أَضَرَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ١٢٤.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٥/ ٢٤٨، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور عبد السند حسن يمامه، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، القاهرة.

(٣) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم الأندلسي، ص ١٦٩، تحقيق سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) رواه أبو داؤد في كتاب القضاء (باب: في القضاء)، حديث ٣٦٣٥، وهو حديث حسن، والترمذي في كتاب البر والصلة (باب: ما جاء في الخيانة والغش)، حديث ١٩٤٠، ص ٤٥١، وابن قانع في معجم الصحابة، حديث ١٥٨٤، ١٢/ ٤٣٥٢.

قال الله تعالى:

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَأَتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

صلة الآية بما قبلها:

تحدثت الآيات التي قبل هذه الآية في وجوب الصوم مع ذكر عدد من الأحكام الخاصة به. وجاءت بعد ذلك هذه الآية تتمم الأحكام المتعلقة بالصيام من حيث الرفث إلى النساء، وإن الأكل والشرب والمعاشرة الزوجية مما أباحه الله من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

التفسير:

هذه الآية تنمة لآيات الصيام التي قبلها. وقبل أن تنزل هذه الآية كان الرجل إذا أفطر حلَّ له الأكل والشرب ومعاشرة الزوجة، فإذا نام حرم عليه ذلك ليلته ويومه القابل حتى يمسي. وكان من الصحابة من يجد مشقة في ذلك: فهناك من نام قبل أن يفطر وقد غشي عليه في منتصف النهار من اليوم القابل، ومنهم من عاشر زوجه بعد نومه... وقد شكوا ذلك لرسول الله ﷺ؛ وعلم الله طبيعة حال

الناس، وكيف كانوا يراودون أنفسهم ليأكلوا ويشربوا ويعاشروا نساءهم، فجاءت الآية رحمة من الله حين أباح ما حُرِّم عليهم. ودليل هذا حديث الإمام البخاري الذي مرَّ ذكره في سبب نزول الآية.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن كعب بن مالك قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى، فنام، حَرَّمَ عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سهر عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها فقالت: إني قد نمت، قال: ما نمت، ثم وقع بها، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك؛ فغدا عمر إلى النبي ﷺ فأخبره؛ فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ...﴾<sup>(١)</sup>.

بدأت الآية الكريمة ببيان ما أحلَّه الله تعالى من معاشرة الرجل لزوجته في ليل رمضان. ويبدو من اللفظ القرآني (أُحِلَّ) الإيحاء بأن الرفث كان محرماً بهذه الآية ثم نسخ. وهناك من ذهب إلى أن اللفظ القرآني هذا (أُحِلَّ) لا يدلُّ على أنه كان حراماً ثم أُبيح، بل يدل على تقرير إباحته، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ...﴾ [المائدة: ٩٦].

أما (ليلة الصيام)، فهي كل ليلة من ليالي شهر رمضان التي يصبح فيها المسلم صائماً من غير تحديد لتلك الليلة.

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ١٥٧٩٥، ٨٦/٢٥، قام بتحقيقه مجموعة من المحققين، أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، مؤسسة الرسالة، بيروت.



وأما (الرَّفَثُ)، فهو مقدماتُ مباشرة الرجلِ لزوجهِ، أو هو المباشرة ذاتها، وكلاهما مراد هنا. فهو كلمة جامعة لكل ما يريده الرجلُ من زوجته... إنه كناية عن الجماع. والقرآن الحكيم يَتَّبَعُ أساليبَ عدة هي قمة في الأدب حين يريد أن يتحدث عن معاشرته الرجل لزوجهِ، فيكُنِّي فيها بكنايات مُعَبَّرَةً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فيكون معنى الآية: إن الله تعالى أحلَّ لكم إذا كنتم صياماً أن تباشروا نساءكم وتفضوا إليهن بعد غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

وأما قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ﴾، فهي استعارة بديعة في قوة التعليل للإباحة. ويبدو النص في قمة البلاغة حين يتحدث عن المعاشرته الزوجية: ﴿هُنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ﴾، فإن الرجل والمرأة يكون كل واحد منهما من القرب من الآخر كالثوب الملابس له، وقد كانت العرب تسمي المرأة لباساً، فقال أبو عبيدة: يقال للمرأة: هي لباسك، وفراشك، وإزارك، لما بينهما من الممازجة<sup>(١)</sup>. والمراد هنا: المعاشرته الزوجية، والله عز وجل حلِيمٌ يَكْنِي، فيكون الزوج لباساً لزوجته، والزوجة لباساً لزوجها؛ لامتزاج كل واحد من الزوجين بالآخر، فهي عملية تبادلية. وقد قُدِّمَ قوله تعالى: (هُنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ)، على قوله: (وَأَنْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ)؛ لينبه إلى أن حاجة الرجل إلى المرأة أكثر، ولأنه البادئ بطلب الزواج. قال محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الأسبق:

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١/ ٨١، حقق أصوله وعلق عليه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(وفي هذا التعبير القرآني ما فيه من اللطافة والأدب، وسموّ التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستتار كل واحد منهما بصاحبه)<sup>(١)</sup>.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وللراغب الأصفهاني تفسير قيّم في معنى (الاختيان) في هذه الآية فقال: (مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم؛ لأنه لم تكن منهم الخيانة، بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان: تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣])<sup>(٣)</sup>.

ويبدو في الجملة القرآنية هذه أن الله تعالى علم - وهو علام الغيوب - بما وقع به قسم من الصحابة من تحرك شهوتهم للوقوع بمعاشرة نسائهم في ليالي رمضان بعد النوم، وقد كانت المعاشرة محرمة عليهم آنذاك.

وتشير الجملة القرآنية هنا إلى بيان حال من قصر في أمر الصيام أولاً، ولبيان لطف الله ورحمته بهم ثانياً ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، فقد تبتّم وقبّل الله توبتكم. وفي لفظتي: (التوبة) و(العفو) إيناسٌ للصحابة.

﴿فَأَلَنَ بَشْرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، والمباشرة: اتصال البشرية

(١) التفسير الوسيط، تأليف محمد سيد طنطاوي ١/ ٣٩٥، طبع سنة ٢٠٠٧، دار السعادة، مصر.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، تأليف الراغب الأصفهاني، مادة (خون) ص ٣٠٥، تحقيق: صفوان

عدنان داوودي، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت.

بالبشرة، فأباح الله معاشرَةَ النساء بعد أن كانوا منهيين عنها، فالأمر هنا يُحمَلُ على الإباحة، وقد كَنَّى القرآن بها عن المعاشرَةِ الزوجية.

والابتغاء في قوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: هو الطلب. أي: أنَّ الإفْضاءَ إلى النساء قد أبحناه لكم بعد أن كان محرماً عليكم في ليالي الصيام بعد النوم، واطلبوا في قربكم من نسائكم ما كتبه الله لكم من الذرية: وهي ثمرة المباشرة، فوق أن ذلك حصانة للنفس خشية من الوقوع بالحرام، فهو الإعفاف من الرجل والمرأة بهذا اللقاء الجنسي، فالمرأة تُعْفُ الرجلَ حتى لا تمتدَّ عينه إلى حرام، والرجل يُعْفُ زوجته حتى لا تنظر إلى غيره، وفي ذلك أجر للمسلم وهو يأتي شهوته، وقد قال رسول الله ﷺ: «... وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»<sup>(١)</sup>.

ويتحدث ابن قيم الجوزية في هذا النص الشريف فيقول: (والتحقيق أن يقال: لما خَفَّفَ اللهُ عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان الجامع يغلب عليه حكم الشهوة، وقضاء الوطر، حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك، أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر، والولدُ الذي يخرج من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف)، حديث

أصلاهم يعبد الله لا يُشرك به شيئاً، وبيتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رُخصه؛ فإنَّ الله يجب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تُؤتى معصيته<sup>(١)</sup>.

ولكن ما المدة التي يباح فيها الأكل والشرب والمعاشرة الزوجية؟

ويأتي الجواب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ

مِنَ الْفَجْرِ﴾<sup>ط</sup>.

والخيط الأبيض أول ما يبدو من الفجر الصادق قبل أن ينتشر، فإذا انتشر لا يسمى خيطاً، والخيط الأسود: ما يمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل. وهذا التعبير القرآني استعارة يراد بها بياض الصباح وسواد الليل، فتكون (من) الأولى (الخيط الأبيض من) ابتدائية، و(من) الثانية: (من الخيط الأسود) بيانية. والمعنى: أنَّ هذه الإباحة لكم من الأكل والشرب والنكاح في ليالي الصوم حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل. ومعنى (يتبين) في الآية: أي يتضح للرأي وليس مجرد التوهم. وقد توهم فهم الآية الصحابي (عدي بن حاتم الطائي)، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إني أجد تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض وعقالاً أسود، أعرف الليل من النهار؛ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ وَسَادَكَ لِعَرِيضٍ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية ١/١٦٨ - ١٦٩، جمعه وخرَّج أحاديثه: يسري السيد محمد، راجعه ونسَّق مادته ورتبها: صالح أحمد الشامي، الطبعة الثانية ١٤٣١، دار ابن الجوزي.

(٢) رواه مسلم في كتاب الصيام (باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر...)، حديث ٢٥٣٣، ص ٤٤٤.

وإلى متى يستمر الصيام؟

ويأتي الجواب: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِّ﴾، فيكون ابتداء الصوم من طلوع الفجر، وانتهائه بدخول الليل بعد غروب الشمس؛ فوجب إتمام الصيام وعدم إفساده بأيِّ مُفَطَّرٍ كان، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»<sup>(١)</sup>.

ومن سنة رسول الله ﷺ تعجيل الفطر، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»<sup>(٢)</sup>.

ونهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم: وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً رحمةً بالمسلمين؛ فقالوا: إنك تواصل. قال: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمُ إِنِّي أُطْعِمُ وَأُسْقِي»<sup>(٣)</sup>.

أما الحرف (ثم) ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِّ﴾، فإنه يفيد التراخي؛ ليشمل ساعات النهار كلها من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وإذا كان القرآن الكريم قد أباح معاشرَةَ النساء من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فإن هذه الإباحة ليست على إطلاقها، وقد استثنى منها المعتكف لئلا يباشر زوجته ليلاً أو نهاراً. والمراد بالمباشرة دواعي الجماع من التقبيل والمعانقة، فضلاً عن المعاشرَةَ الزوجية.

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم (باب: متى يحل فطر الصائم)، حديث ١٩٥٤، ص ٣١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم (باب: تعجيل الإفطار)، حديث ١٩٥٧، ص ٣١٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الصوم (باب: الوصال)، حديث ١٩٦٢، ص ٣١٥.

﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾

والاعتكاف في المساجد: الإقامة فيها فترة أو مدة من الزمن. والصيام ليس بشرط بالاعتكاف، ويجوز بأية فترة كانت ولو قليلة. ويصح الاعتكاف في كل مكان، ولكنه في المسجد أفضل. وقد ذكرت (المساجد) في الآية؛ لأن الاعتكاف - في الغالب - يكون فيها لا أن ذلك شرط فيه، ولا يحل للمعتكف أن يخرج من اعتكافه قبل أن يُتَمَّه إلا عند الضرورة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾

والحدود جمع حد، وهو الحاجز بين الشيئين المتقابلين. وسميت أحكام الله حدوداً؛ لأنها تحجز بين الحق والباطل. والمعنى: أن هذه الأحكام من الأوامر والنواهي التي شرعها الله في أمر الصيام، هي حدود لا تحل مخالفتها. والنص الكريم يشمل كل ما أوجبه الله وحرّمه في أمر الصيام والاعتكاف؛ لأن النهي عن القرب منها نهي عن إتيانها من باب أولى، بل إن النهي عن الاقتراب منها أبلغ من الوقوع بها. فإذا صدر أمر لإنسان ما أن لا يكلم فلاناً من الناس، فلا يمنع هذا من الجلوس معه في غرفة واحدة مثلاً، ولا يمنع هذا أن يكون أكيّله وشريبه، المهم عدم الكلام معه، ولكن إذا قيل له: لا تقربه، فيجب على ذلك الإنسان أن يتعد عنه ولا يقرب منه، وهكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾.

وكانت خاتمة الآية تذيلاً لما مرّ من أحكام الصيام، وهو بيان جامع، بين الله عز وجل فيه الحكمة؛ ليلتزم المسلمون بها، ويصونوا أنفسهم عما يؤدي بهم إلى العقوبة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

## يسألون النبي ﷺ عن الأهلة

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

مقدمة:

في هذه الآية الكريمة الواحدة سببان اثنان مختلفان في نزولها: ففي المقطع الأول منها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، سبب يتمثل بروايات عدة تدور حول موضوع واحد هو سؤال الناس عن الأهلة.

وفي المقطع الثاني منها: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى...﴾ [البقرة: ١٨٩]، يدور في تصحيح مفهوم البر الذي كانت عليه الجاهلية. وسأقوم - إن شاء الله - بذكر سبب نزول الجزء الأول من الآية، ثم أذكر تفسيره، وأتبعه بذكر سبب نزول الجزء الثاني منها، وأتبعه بالتفسير، ومن الله تعالى - وحده - العون والتوفيق.

## ما قاله العلماء في أسباب النزول:

ورد عدد من الروايات في سبب نزول آية الأهلّة. من ذلك ما روي عن ابن عباس قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلّة؛ فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، يَعْلَمُونَ بِهَا حَلَّ دِينِهِمْ وَعِدَّةَ نَسَائِهِمْ وَوَقْتَ حَجِّهِمْ<sup>(١)</sup>.

وعن أبي العالية قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله لم خُلِقَتِ الْأَهْلَةُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم، ومحل دِينِهِمْ<sup>(٢)</sup>...<sup>(٣)</sup>.

وقال الواحدي: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، إِنَّ الْيَهُودَ تَغْشَانَا وَيُكْثِرُونَ مَسْأَلَتَنَا عَنِ الْأَهْلَةِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>.

وقال الكلبي: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَةَ - وهما رجلان من الأنصار - قالوا: يا رسول الله، ما بأل الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، حديث ١٧٠٧، ٣٢٢/١، تحقيق: أسعد محمد الطيب، طبع سنة ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢) وأخرج الطبري حديثاً بنحوه بسند حسن عن قتادة فيتقوى المرسل بالمرسل.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، حديث ١٧٠٨، ٣٢٢/١.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٨، تحقيق: أيمن صالح شعبان، ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، دار الحديث، القاهرة.



حتى يَعْظَمَ ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؛ فنزلت هذه الآية<sup>(١)</sup>.

وهناك روايات أخرى في هذه المعاني. وحين نتأمل بها، لا نرى رواية واحدة حكم عليها علماء الحديث بالصحة، وقد ورد من الروايات ما يقوِّي بعضها بعضاً.

\*\*\*

---

(١) العجَاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني ص ٢٦٨، حققه وعلق عليه أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمري، الطبعة الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار ابن حزم، بيروت.

## معاذ بن جبل رضي الله عنه<sup>(١)</sup>

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، يكنى بأبي عبد الرحمن.

أمه: هند بنت سهل من قبيلة جُهينة.

نشأ معاذ بن جبل في (بني سَلِمَة) ولم يكن منهم، بل هو من (بني أُدَي). توفي والده وتزوجت أمُّه - بعد ذلك - من (الجد بن قيس) من بني سَلِمَة، فتحول معاذ مع والدته إلى (بني سَلِمَة) فعاش معهم. وقد عدَّ كثير من كتّاب السير (الجد ابن قيس) من المنافقين، وقالوا عنه: إنه عُرِفَ بالبخل، ومع هذا، فقد كان سيد قومه في الجاهلية، ولما هاجر رسول الله إلى المدينة انتزع منه السؤدد، وسوّد في (بني سَلِمَة) (عمرو بن الجموح)<sup>(٢)</sup>.

هكذا نشأ معاذ في بيت عُرِفَ بالنفاق وبالبخل، ولكنه لم يتأثر بشيء من ذلك، فتحلّى بأنبيل الصفات، وكان كريماً تُضرب بكرمه وحُسن سيرته الأمثال... أسلم معاذ على يدَي (مصعب بن عمير) الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى

---

(١) مقتطفات من كتابي من أعلام الصحابة في الصفحات ٦٠ - ٧٧، الطبعة الأولى ١٤٣٤ -

٢٠١٢، مطبعة أنوار دجلة، بغداد.

(٢) هناك من كتّاب السير من ذهب إلى أن (الجد بن قيس) تاب - فيما بعد - وحسنت توبته، ومات

في خلافة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه.

المدينة ليفقه أهلها بالإسلام بعد بيعة العقبة الأولى، وكان عمره ثمانية عشر عاماً، وفي السنة التي أسلم فيها ذهب لموسم الحج، وكان عدد قافلتهم اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين ليلتقوا رسول الله ﷺ. وهكذا كان، فتمت بيعة العقبة الثانية.

ولما أذن رسول الله ﷺ لصحابته بالهجرة إلى المدينة، آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار، فأخى بين معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وأمر ابن مسعود أن يُقرئ معاذاً القرآن، فتلقى معاذ عنه قراءة القرآن. لازم معاذ رسول الله ﷺ في حِلِّه وترحاله، فأخذ من علمه، وتخلَّق بِخُلُقِهِ، وتأدب بأدبه، وبرز في معرفة الحلال والحرام حتى صار أعلم الصحابة بذلك، وقد حظي بمحبة رسول الله ﷺ له!.

### معاذ ذلك المجاهد:

ومنذ أن فرض الله الجهاد على المسلمين، صار معاذ ذلك المجاهد في كل غزوة من غزوات رسول الله ﷺ منذ غزوة بدر إلى غزوة تبوك، وبعد وفاة الرسول الكريم ظل على جهاده، فاشترك في فتح بلاد الشام: من اليرموك، وأجنادين، وفحل، ودمشق...

ولقد أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن، بعد أن طلبت من رسول الله وفودٌ حَمِيرٍ من اليمن ذلك، وقد كتب النبي لأهل اليمن: «إني بعثت لكم خيرَ أهلي»<sup>(١)</sup>. وقد زوَّده رسول الله ﷺ بنصائح قيمة تنفعه في الدنيا والآخرة، فزوده بما ينفعه في

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ٢٠٦/١٠.

القضاء بين الناس، والاهتمام بضعفاء الأمة ليسرع بقضاء حاجاتهم، ولا يحتجب عنهم... وقد نجح معاذ في مهمته، وترك أثراً طيباً في الناس.

### علمه:

بلغ معاذ منزلة عالية في العلم. ويكفي أن نعلم أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل...»<sup>(١)</sup>.

وأوصى رسول الله ﷺ صحابته أن يأخذوا القرآن من أربعة أحدهم: معاذ ابن جبل فقال:

«خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»<sup>(٢)</sup>.

### عدله:

كان رضي الله عنه قد عُرف بالعدل في حياته كلها، وكمثال على ذلك: ما كان من أمر عدله بين زوجته: فإنه إذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ ولم يشرب في بيت الزوجة الأخرى، فإذا كان في أمر عدله بين زوجته هكذا، فما ظنك بعدله بين الناس!؟

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب (باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت...)، حديث ٣٧٩٠، ص ٨٦٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه)، حديث ٣٨٠٨، ص ٦٣٩.

ومن حرصه على إقامة العدل بين زوجتيه: أنهما توفيتا في يوم واحد في (طاعون عمواس) الذي أصابهما في الشام، وقد كان الناس في شغل لكثرة الموتى - آنذاك - فقام بدفن الزوجتين في حفرة واحدة، وأسهمَ بينهما أيتها تُقدّم في القبر<sup>(١)</sup>.

### عبادته:

عرف معاذ بالعبادة، فتعلقت محبته بالصلاة، وكان حريصاً عليها مع رسول الله ﷺ، فإذا انتهى منها رجع إلى (بني سلمة) فصلى إماماً بهم في مسجدهم، وكان يجب أن يُطيل في صلاته، فشكاه بعضهم إلى رسول الله ﷺ، فأرشده الرسول إلى القراءة في الصلاة كيف تكون، وكان يحرص على قيام الليل والناس نيام، يصلي كأنها صلاة مودّع، ويوصي ولده بذلك فيقول:

(يا بُنَيَّ إذا صليت، فصلِّ صلاة مودّع، لا تظنَّ أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بُنَيَّ، أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدّمها، وحسنة أخرها)<sup>(٢)</sup>.

أما شوقه إلى الجنة وخوفه من النار، فقد عمل ذلك في نفسه عمله، فكان يدعو في صلاته دعاءً خاشعاً خاضعاً فيقول:

(اللهم قد نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حيُّ قيوم، اللهم طلبي

---

(١) ينظر: حلية الأولياء ١/ ٢٩٨، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ - ٢٠٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت. وصفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥، ضبطها وكتبها هوامشها: إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٢٥٧، وحلية الأولياء ١/ ٢٩٧.

للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هدىً تردّه إليّ يوم  
القيامة؛ إنك لا تخلف الميعاد<sup>(١)</sup>.

ولقد قال وهو على فراش الموت:

(اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحبّ الدنيا وطولَ البقاء فيها لجري الأنهار،  
ولا لغرس الأشجار، ولكنّ لظماً لهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء  
بالركب عند حلقِ الذكر)<sup>(٢)</sup>.

ما رواه عن رسول الله ﷺ:

روى عن رسول الله ﷺ خمسة وخمسين ومائةً من الأحاديث (١٥٥)<sup>(٣)</sup>.  
وروى عنه من الصحابة عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله بن عمر، وابن عباس،  
وأبو أمامة الباهلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك... وغيرهم.  
ومن الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ:

«مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئاً، فَاحْتَجَبَ عَنْ أُولَى الضَّعْفَةِ وَالْحَاجَةِ، احْتَجَبَ  
اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله عز وجل: «وَجَبَتْ مَجْبَتِي لِلْمَتَحَابِينَ

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٢٥٥.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٠٣.

(٣) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم، ص ٥٧.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، حديث ٢٢٠٧٦، ٣٦/ ٣٩٤.

فِيَّ، والمتجالسين فِيَّ، والمتزاورين فِيَّ، والمتبازلين فِيَّ»<sup>(١)</sup>.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شَرُّكَ، وَإِنَّ مَنْ عَادَى اللَّهَ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمَحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهَدَى يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غِيْرَاءٍ مَظْلَمَةٍ»<sup>(٢)</sup>.

## وحان وقت الرحيل:

انتشرَ في الشام طاعون يسمى (طاعون عمواس)<sup>(٣)</sup>، مات فيه من المسلمين في الشام في ذلك الطاعون: خمسة وعشرون ألفاً - وقيل ثلاثون ألفاً - وقد أُصيب وُلْدَاهُ، فعاشا ليلةً واحدة ثم دفنهما، ثم أُصيبت امرأتاه فماتتا، ثم أُصيب هو؛ فكان يبكي خوفاً من سوء الخاتمة، ثم غلب عليه الرجاء، فكان يقول:

(أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار! مرحباً بالموت مرحباً، زائر مُغِيبٍ (أي جاء بعد غياب)، حبيب جاء على فاقة. اللهم إني كنتُ أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحبُّ الدنيا وطولَ البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكنْ لظماً الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٢٠٣٠، ٣٦/٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن (باب: مَنْ تُرْجَى لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْفِتَنِ)، حديث ٣٩٨٩، ص ٥٧٤.

(٣) عمواس: بلدة صغيرة بين القدس والرملة في فلسطين، ابتداءً انتشار المرض منها، ثم انتشر في الشام.

بالركب عند حَلَقِ الذكر<sup>(١)</sup>.

توفي رضي الله عنه سنة ثمان عشرة من الهجرة، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين

سنة!.



---

(١) حلية الأولياء / ١ / ٣٠٣.



قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

صلة الآية بما قبلها:

كانت الآيات السابقة لهذه الآية قد تحدثت في فريضة الصيام. وهذه الفريضة ولفريضة الحج علاقة بالأهلة: فالصوم يكون برؤية هلال رمضان، والإفطار برؤية هلال شوال، وقد قال رسول الله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبى عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»<sup>(١)</sup>.

وهكذا جاءت الآية متحدثة عن الأهلة، فهي مواقيت للناس فيما يتعلق بعباداتهم الدينية، ومعاملاتهم الدنيوية.

التفسير:

ظهر من أسباب النزول: أن قسماً من الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال: لماذا يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يكبر ويستدير، ثم يعود إلى النقصان؟ وقد توجه الصحابة بهذا السؤال لرسول الله ﷺ، بعد أن سُئل بعضهم من اليهود هذا السؤال. ولربما كان من أسباب سؤالهم: رؤيتهم الشمس وهي تسير في نظام

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم (باب: قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا»)، حديث ١٩٠٩، ص ٣٠٧.

واحد: تشرق صباحاً من المشرق، وتغرب مساءً في المغرب، والشمس والقمر آيتان من آيات الله، فلم هذا التغيُّر بالأهلة؟

وقبل أن يكون الحديث في إجابة القرآن عن هذا السؤال، يحسن أن نتحدث في المصطلحات الواردة في الآية: (يسألونك) و(الأهلة) و(المواقيت).

أما عن كلمة (يسألونك)، فقد كان رسول الله ﷺ تتوجه إليه الأسئلة من المشركين واليهود في مكة، ومن اليهود أيضاً في المدينة، ومن المسلمين في مكة وفي المدينة، ويتولى الله عز وجل الإجابة عنها، والإجابة حين تكون من الله تعالى تكون لها أهميتها الكبرى بنفوس المؤمنين أولاً، وبنفوس السائلين من غيرهم إذا لم يكونوا مُصْرِّينَ على الكفر، وكانوا غير معاندين ولا متكبرين؛ إذ تكون تلك الإجابات حقائق مقنعة للمشركين ولأهل الكتاب معاً إذا لم يكن في قلوبهم إصرار على الكفر.

فمن الأسئلة التي وجهها اليهود إلى رسول الله ما حكاه القرآن الحكيم:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

وقد تعاون المشركون واليهود ليسألوا رسول الله ﷺ أسئلة فيها تعجيز للرسول الكريم بزعمهم: من ذلك سؤالهم عن الروح. ويأتي الجواب من رب العالمين على ما سألوا عنه، قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وتوجهت الأسئلة من الصحابة للرسول الكريم، فمن تلك الأسئلة:

سؤالهم عن الإنفاق: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ  
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾  
[البقرة: ٢١٥].

وسئل عن الشهر الحرام قتالٍ فيه؟ ويأتي الجواب: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ  
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ  
وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وسئل عن الخمر والميسر، فجاء الجواب: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ لَفَعٌ  
لِّلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا...﴾ [البقرة: ٢١٩].

وسئل عن اليتامى، وجاء الجواب: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ  
فَأِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وسئل عن المحيض، وجاء الجواب: ﴿قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي  
الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهكذا تتوالى الأسئلة، ويتولى الله عز وجل الإجابة عنها.

ولقد تعددت الأسئلة التي وُجِّهَتْ إلى رسول الله ﷺ وأجاب عنها الله عز  
وجل: فمنها أسئلة استرشاد كالسؤال عن المحيض، والسؤال عن الخمر والميسر،  
والسؤال عن اليتامى... ومنها أسئلة تعلُّم ومعرفة كالسؤال عن الجبال، ومنها

أسئلة تُعنتُ كالسؤال عن الروح وعن ذي القرنين، وهذان السؤالان من المشركين واليهود، ومنها أسئلة اعترض كالقتال في الشهر الحرام!.

ولقد كانت الأمة الإسلامية أقل الأمم الأخرى سؤالاً. وبمفهوم المخالفة، فإن الأمم الأخرى أكثر أسئلة لأنبيائها، وكانت أسئلتهم تعجيزية.

أما الأمة الإسلامية، فقد قلت أسئلتهم لرسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى نهاهم عن سؤال ما سكت عنه القرآن وقت نزوله؛ إذ قد يكون السؤال عن ذلك المسكوت عنه سبباً في تحريم ما لم يُحرّم عليهم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ فَسُئِلْتُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢].

وفي هذا المعنى ما جاء عن رسول الله ﷺ فقال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»<sup>(١)</sup>.

وقال: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرّم على المسلمين، فحرّم عليهم من أجل مسألتهم»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصحابة (باب: توقيره ﷺ)، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له...، حديث ٦١١٣، ص ١٠٣٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام (باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه)، حديث ٧٢٨٩، ص ١٢٥٤. ومسلم في كتاب الفضائل (باب: توقيره ﷺ)، حديث ٦١١٣، ص ١٠٣٦.

ولقد حدد الله تعالى المحرمات ولم يحدد المباحات، فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ أَلْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ أَلْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ففي هذه الآية حدّد الله سبحانه المحرمات وأباح ما سواها، وجاءت الآية بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَلْطَيْبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

هذا ما يتعلق به (يسألونك).

وأما الأهلة، فهي جمع هلال: وهو الكوكب المعروف الذي يبرز في ابتداء كل شهر، وتستمر تسميته هلالاً لثلاث ليالٍ من ظهوره، وبعد ذلك يسمى قمراً، وبعد ست وعشرين وسبع وعشرين تعود تسميته هلالاً أيضاً؛ لأنه يكون بقدر الهلال عند بزوغه في الأيام الثلاثة الأولى. واشتقت تسميته من (أهل)، أي: رفع صوته، وقد كان الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيتهم له في جهة المغرب في أول الشهر، وإذا أهل القوم بالحج، رَفَعُوا أصواتهم بالتلبية، وقد جمع الهلال على (أهلة)، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾؛ لأن المراد به هلال كل شهر، أو هلال كل ليلة.

أما المواقيت، فهي جمع ميقات، مثل: موازين جمع ميزان، ومواعيد جمع ميعاد، وجاءت المواقيت بمعنى: الوقت. ولم يذكر القرآن الكريم هنا الأعمال

المؤقتة التي تكون بالأشهر؛ ليصير النصُّ شاملاً لكل عمل يحتاج إلى توقيت؛ لأن المواقيت كثيرة يؤدي تعدادها إلى الإطناب؛ فاقصر على ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وعطف الحج على (مواقيت) تخصيصاً بعد تعميم، وذلك للاهتمام بتوقيت الحج، واعتناءً بشأنه.

والمواقيت المحددة بالأشهر التي ذكرها القرآن كثيرة، منها(١):

١- الحج: قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ...﴾ [البقرة: ١٩٧].

٢- الصوم: قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٣- الكفارات:

أ - كفارة الظهار: قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ [المجادلة: ٤].

ب - كفارة القتل: قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢].

٤- الحمل والرضاع: قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾

[الأحقاف: ١٥].

٥- تمام الرضاع: قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ

أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) عن كتاب السؤال والجواب في آيات الكتاب للشيخ عطية محمد سالم ص ٥٣ - ٥٤ بتصرف،

الطبعة الأولى ١٤٢٥ - ٢٠٠٤، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت.

٦- مدة الإيلاء من النساء: قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

٧- عدد النساء:

أ - عدة المتوفى عنها زوجها: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

ب - المطلقة التي ليست من ذوات الحمل ولا الحيض كالصغيرة والأيسة:

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤].

٨- الأشهر الحرم: قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

والأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾

[التوبة: ٥]، وغير ذلك من الآيات.

أما عن سؤال الناس عن الأهلة: فالسؤال إما أن يكون عن الحكمة أو عن

السبب: فإن كان عن الحكمة، فالجواب قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ

وَالْحَجِّ ﴿ [البقرة: ١٨٩]، فكان الجواب على مقتضى الظاهر من السؤال، وفيه  
تبيان الحكمة ﴿ مَوَقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾.

وأما إن كان السؤال عن السبب، فيكون الجواب غير مطابق لما سألوا عنه؛  
إذ صُرِفَ السائل إلى غير ما طَلَب، ويُسمَّى هذا علماء البلاغة (أسلوب الحكيم):  
وهو أن يُجَابَ السائل بغير ما يطلب، من أجل توجيهه إلى ما يفيد، وتنبهه إلى أنه  
الأولى بالقصد<sup>(١)</sup>؛ ذلك لأنَّ السؤال عن السبب يتعلق بأنظمة الكون التي قد  
يستطيع الإنسان في المستقبل أن يكتشفها بالبحث العلمي الرصين، فالسؤال عن  
الأهله ليس من المسائل الدينية التي يقوم رسول الله ﷺ بتبنيها للناس أولاً، ولأن  
القرآن ثانياً لم يأت ليفصّل الحقائق العلمية الكونية المادية. أما الآيات التي  
تضمنت حقائق علمية، فقد سيقت لتدلّ على وجود الله وقدرته. ونظر في  
الديساتير التشريعية في العالم، فلا نرى واحدة منها تُفصّل في أيّ علم كان من  
العلوم.

وفي خصوص الحج، فإنه ركن عظيم من أركان الإسلام، وله أوقات محددة

---

(١) أسلوب الحكيم: هو جانب من جوانب علم المعاني في البلاغة. وهو صرفُ كلام المتكلم، أو  
سؤال السائل عن المراد منه، وحمله على ما هو الأولى بالقصد. وسماه الشيخ عبد القاهر الجرجاني  
(المغالطة). مثاله: ما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي للشاعر (القُبَعْرِي): لأَحْمَلَنَّكَ عَلَى الأدهم  
(أي: لأقيدنك بالحديد)؛ فأجابه (القُبَعْرِي): مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب (قاصداً  
من الخيل). قال الحجاج: قصدتُ الحديد. فقال (القُبَعْرِي): لأنَّ يكون حديداً خيراً من أين  
يكون بليداً.

وفي القرآن أمثلة كثيرة، سهاها علماء البلاغة: (أسلوب الحكيم).



هي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ولا يكون الحج في غير هذه الأشهر. وقد ارتبطت هذه الفريضة بشهرين من الأشهر الحرم هما: ذو القعدة وذو الحجة، وكانت العرب تحترم الأشهر الحرم، فلا يكون فيها قتال، ولا يُسْمَعُ فيها صوت لمستغيث، ولا قعقعة ل سلاح، فيستطيع من أراد الحج أن يحج آمناً مطمئناً ثم يرجع إلى مكانه. بل يستطيع من كان من أبعد منطقة في الجزيرة عن مكة أن يأتي في الأشهر الحرم فيحج ثم يرجع قبل أن تنتهي الأشهر الحرم.

وقد يسأل سائل: لماذا خصَّ الله تعالى المواقيت بالأشهر القمرية، ولم يخصَّها بالأشهر الشمسية؟

والجواب: أن الأشهر القمرية تُعرف برؤية الهلال ومحاقه، فهو توقيت فطري، يستوي في معرفته العالم والجاهل، والكبير والصغير، والحاضر والباد، والخاصة والعامّة، لا يخفى على أحد منهم، وهذا بخلاف منازل الشمس وتقلُّبها في البروج، فلا يدركها الناس كلهم، ولا يدركها إلا مَنْ كانت له معرفة بدقائق علم الفلك، ومنها المعرفة بمسار النجوم ومطالعها.

وهكذا يكون معنى الآية: قل لهم - يا محمد -: إن الله تعالى خلق الأهلة لتكون علامات يُحدِّد بها الناس صومهم وزكاتهم وحجهم وديونهم ومعاملاتهم، وعدة نساءهم، وعدة حملهن، ومدة الرضاع... قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا ۗ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً  
لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

فهاتان الآيتان صريحتان في الدلالة المقصودة من الأهلّة: وهي معرفة  
المواقيت بيسر، من غير حاجة إلى مُنَجِّمٍ أو حاسب. ويدلُّ على هذا حديث رسول  
الله ﷺ: «جعل الله الأهلّة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن  
غُمَّ عليكم، فعدوا ثلاثين يوماً»<sup>(١)</sup>.

ونختم تفسير الآية بما قاله سيد قطب رحمه الله:

(اتجه (القرآن إلى واقع حياة العرب) العملي، لا إلى مجرد العلم النظري،  
وحدّثهم عن وظيفة الأهلّة في واقعهم وفي حياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة  
الفلكية للقمر وكيف تتم وهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال القمر يبدو  
هلالاً... الخ، كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في  
توازن حركة الأجرام السماوية، وهي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله  
الأهلّة؟...)

والإجابة العلمية عن هذا السؤال، ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً في  
الفلك إذا هم استطاعوا بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين أن  
يستوعبوا هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك؛ لأن العلم النظري  
من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تُعدُّ بالقياس إلى عقلية العالم

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٨٠ تحقيق: د. حكمة بن بشير بن ياسين، الطبعة الأولى، ١٤٣١، دار ابن  
الجوزي - السعودية.

كله في ذلك الزمان معضلات.

من هنا عدل القرآن عن الإجابة التي لم تنهيا لها البشرية، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن؛ إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيمائي أو طبي... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلمسوا مخالفاته لهذه العلوم<sup>(١)</sup>.

ثم يأتي قوله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: نزلت هذه الآية فينا: كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكأنه غير ذلك؛ فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾<sup>(٢)</sup>.

---

(١) عن كتاب في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب ١/ ١٨٠ - ١٨١، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون ١٤٢٥ - ٢٠٠٤، دار الشروق، القاهرة - بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب العمرة (باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩])، حديث ١٨٠٣، ص ٢٩٠.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كانت قریش تُدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام. فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان؛ إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري؛ فقالوا: يا رسول الله، إنَّ قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب؛ فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلتُ كما فعلتَ، فقال: إني أحمسي؛ قال: فإن ديني دينك؛ فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا...﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ص ٤٩.

## قطبة بن عامر رضي الله عنه

هو قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الخزرجي السلمي، يكنى أبا زيد.

أمه: زينب بنت عمرو بن سنان.

كان من الستة الأول من الأنصار الذين أسلموا بالمدينة، فقد شهد العقبة

الأولى والثانية.

شهد غزوة بدر، وقد ضرب المثل الأعلى في الشجاعة، فقبيل أن يلتحم

جيش المسلمين مع جيش المشركين (في غزوة بدر)، رمى قطبة حجراً بين الصفين

وقال: لا أفرُّ حتى يفرَّ هذا الحجر، وقد كان من الرماة المعروفين من الصحابة.

ولم تكن غزوة بدر وحدها التي شهدها قطبة، فقد شهد بعدها غزوة أحد،

والخندق وغزوات رسول الله ﷺ كلها، وقد شهد غزوة مؤتة، وكان على ميمنة

عسكر المسلمين، وفي هذه الغزوة قتل مالك بن زافلة - وقيل: رافلة - وبعد أن

قتله قال:

ش برمحٍ مضى فيه ثم انحطم

فمال كما مال غصن السلم

غداة رُقُوقَيْن سوق النعم<sup>(١)</sup>

طعنتُ ابنَ زافلة بن الأرا

ضربتُ على جيده ضربة

وسقنا نساء بني عمِّه

ولما انهزم المسلمون في هذه الغزوة وأخذ الراية خالد بن الوليد، جعل قطبة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٢٩.

ابن عامر يصيح: يا قوم، يُقتل الرجل مُقبلاً أحسن من أن يُقتل مدبراً يصيح بأصحابه، فما يثوبُ إليه أحد<sup>(١)</sup>.

أرسله رسول الله ﷺ في عشرين رجلاً إلى حِيٍّ من خثعم بناحية تبالة في صفر سنة تسع من الهجرة، فأمره أن يشنَّ غارة عليهم. ولما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً، حتى كثرت الجراحات بالفريقين، ونجح قطبة ومن معه في هذه السرية؛ فقتلوا من قتلوا، واستاقوا النعم والشاء إلى المدينة، فأخرج الخُمُسَ، وأخذ كل واحد منهم أربع أبعرة، ويعدل البعير بعشرة من الغنم.

توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>.

ومثل سبب نزول هذه الآية روي عن رفاعة بن تابوت، فلعلها وقعت لهما كما يقول العسقلاني<sup>(٣)</sup>.

### التفسير:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

لقد كان من عادة الناس في الحج والعمرة في الجاهلية إذا أحرموا بأيٍّ منها ثم عادوا إلى بيوتهم لا يدخلونها من الأبواب، بل يدخلونها من ظهورها: بأن

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٩ / ٣٣٧، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد العمروي،

الطبعة الأولى ١٤١٥ - ١٩٩٥، دار الفكر، بيروت.

(٢) أسد الغابة ٣ / ٤٨٦.

(٣) الإصابة ٣ / ٥٣٥.

ينقبوا نقباً في كل بيت فيدخلون منه إليها، وكان بعضهم يضعون سلاماً فيصعدون عليها إلى البيوت، هذا إذا كانوا من أهل المدر (أي الدور)، وأما إذا كانوا من أهل الوبر (أي الخيام)، فإنهم يدخلون من خلف الخيمة، وليس من بابها، وكانوا لا يدخلون تحت سقف يحول بينهم وبين السماء، ويعتقدون أن هذا العمل هو البر (أي الخير والإيمان)؛ فجاءت الآية الكريمة لتبطل هذه العادة التي عدوها من الدين وما هي من الدين في شيء، بل هي من الغلو الذي لا يمتُّ إلى الدين بسبب؛ لأن الله تعالى لا يريد إعنات عباده.

لقد كان الأنصار يفعلون هذا حتى نزلت الآية في إبطال ما يفعلون، وأما الخمس: وهم المتشدّدون بأمر الدين، ومنهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبنو نصر بن معاوية ومدلج وعدوان وعَضَل وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو عامر بن صعصعة، فإن هؤلاء كلهم كانوا من سكان مكة وحرمها، فكانوا أقرب إلى دين سيدنا إبراهيم عليه السلام منهم.

وقد يسأل سائل: ما وجه الاتصال بالآية بين دخول البيوت من ظهورها، وبين سؤالهم عن الأهلة؟

والجواب: أن سؤال السائل إن كان عن سبب اختلاف حال الأهلة، فقد صار يشبه من يأتي البيوت من ظهورها، كما كانت تفعل الجاهلية، فكان من اللائق بحال السائل أن لا يسأل هذا السؤال الذي يتعلق بمسائل كونية علمية؛ لأن هذا ليس من مهمة رسول الله ﷺ، إذ مهمته دعوة الناس إلى الأخذ بمنهاج الله والسير على وفقه، وقد خاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

مَثَلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

ويتحدث جار الله الزمخشري عن وجه اتصال الموضوعين في الآية فيقول:

(فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهله وعن الحكمة في نقصانها وتماها: معلوم أن ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده؛ فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً...)<sup>(١)</sup>.

ويأتي قوله تعالى: (... ولكن البر من اتقى) ليكون إرشاداً إلى أن البر يكون بتقوى الله والاستجابة لأمره ونهيه، والتقوى: هي اتقاء غضب الله الذي يؤدي إلى كثير من المشكلات والمصائب والمخاطر التي تنشأ عن مخالفة منهج الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤].

أما تقوى الله، فتؤدي إلى حياة البر والهدى، فيكون المتقي ممن تتفجر ينابيع الحكمة على قلبه، ويسعد في الدنيا وفي الآخرة.

﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩]. ونجد أمر التقوى قد تكرر في الآية مرتين، وذلك لأهميتها في كل شأن من شؤون الحياة، فلا نعجب إذا علمنا أن كثيراً من الأحكام التشريعية — وبخاصة في سورة البقرة — كان تذييلها بطلب مراعاة التقوى.

(١) تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ص ١١٦، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار المعرفة، بيروت.



## بيعون أنفسهم لله

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

ذكر العلماء عدداً من الأسباب في نزول الآية الكريمة، والراجح ما ذكره الواحدي قال: قال سعيد بن المسيّب:

(أقبل صهيب مهاجراً نحو رسول الله ﷺ، فاتّبعه نفر من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني أرماكم رجلاً، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي ما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم؛ فقالوا: دُلّنا على بيتك ومالك بمكة ونخليّ عنك، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه، ففعل، فلما قدم على النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع، ربح البيع»، وأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] <sup>(١)</sup>.

(١) أسباب النزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ٥٦ - ٥٧، تحقيق: أيمن صالح شعبان، طبع سنة ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، دار الحديث، القاهرة.

وعن عكرمة قال: (لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهماً، فقال: لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً، ثم أصير بعده إلى السيف، فتعلمون أني رجل، وقد خلّفتُ بمكة قيتين فهما لكم)<sup>(١)</sup>.

وعن أنس بن مالك نحوه، ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع»، قال: وتلا عليه الآية<sup>(٢)</sup>.

والحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

فمن هو صهيب الذي نزلت فيه هذه الآية وما سيرته؟

\*\*\*

---

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری، حدیث ٥٧٠٠ / ١٢٩٨، ٣ / ٤٥٠، تحقیق:

مصطفی عبد القادر عطا، الطبعة الثانية ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ٣ / ٤٥٠.

## صهيب الرومي رضي الله عنه

### حياته ونشأته:

هو صهيب بن سنان بن مالك النمري، وأمّه: ليل من بني مالك بن عمرو التميمي، فلم يكن رومي الأصل، بل كان عربياً سُبِي من قرية نينوى من أعمال الموصل<sup>(١)</sup>.

عاش سنواته الأولى في بحدوحة من العيش حياة هانئة، تغمره السعادة من كل جانب؛ فقد كان أبوه حاكماً على (الأبلة) لكسرى - و(الأبلة) أرض الموصل وهي غير (الأبلة) التي في البصرة - . وشاءت الأقدار أن تخرج به أمّه للنزهة مع أعداد من الناس ومعهم من يجرسهم، وهناك أغارت عليهم سرية من سرايا جيش الروم، فقتلت الحرس، ونهبت ما كان معهم من مال، وأسرت الذراري؛ فوقع صهيب في الأسر بعد أن عرف أهله ونسبه، فأخذ إلى بلاد الروم، وبيع كما يُباع العبيد، فتعلّم لغة القوم وعرف طبائعهم، وصار في لسانه لُكْنَة من لغتهم، وظل يتقلب من سيد إلى سيد آخر حتى جيء به إلى (مكة)، فاشتراه عبد الله بن جدعان، وعنده تعلّم فنون التجارة، حتى صار ماهراً بها، وقد أعجب (ابن جدعان) بذكائه ونشاطه وحسن تصرفه فأعتقه فصار حراً، وظل يعمل بالنجارة

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ١٧ - ١٨، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فوفقه الله فيها فربح ربحاً وفيراً.

### إسلامه:

وهناك في مكة سمع أنّ محمّداً بن عبدالله قد تنبأ، فجاء بعقيدة التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان التي انتشرت في الجزيرة العربية انتشار النار في الهشيم، وأراد الله له الهداية، فعزم على أن يعرف حقيقة ما يدعو إليه بنفسه. ولما علم أنه يتردد على دار الأرقم فسار إليه، وما إن وصل إلى باب الدار، وإذ بـ (عمار بن ياسر) هناك، ويبادر عمار صهيباً عن سبب مجيئه إلى هنا؛ ويُعيد صهيب السؤال نفسه عليه، فيجيبه عمار: إني سمعت بمحمد ودعوته فأردت أن أسمع منه، وهنا يبدو البشر والانشراح على وجه صهيب، فقد جاء للغرض نفسه، ويدخل الاثنان على الرسول الكريم، ويحدثهما عن هذا الدين الذي ابتعثه الله به، ويتلو عليهما ما نزل عليه من آيات القرآن، فيدخل السرور في نفسيهما، ويظلان معه حتى المساء، ولم يغادراه حتى أعلن كل منهما انصواءه تحت لواء الإسلام، ونطق كل منهما بشهادة الحق: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، لقد كان كل واحد منهما يعلم أن المشركين لا يروُق لهم أن ينتشر هذا الدين، فخرجا من عنده مُستخفيين، ومنذ ذلك اليوم شعر صهيب بالسعادة العظمى تملأ جوانحه وتغمره من كل جانب وكأنه ولد من جديد!.

وهكذا كان صهيب من الصفوة الأولى التي أشرق قلبها بنور الإيمان. وينظر الرسول ﷺ إلى ما يتمتع به هذا الفتى من إيمان عميق، فيصبح قريباً قريباً إلى قلب رسول الله ﷺ.

وتمضي الأيام، ويشعر كفار مكة بخطر دعوة الرسول الكريم التي سفَّهت أحلام المشركين، وعابت عليهم عبادة الأصنام والأوثان؛ فصارت تضطهد تلك الصفوة المؤمنة، وكان صهيب ممن أصابه العذاب الأليم منهم.

### هجرته إلى المدينة:

وظل صهيب يتلقى الأذى بعد الأذى والعذاب بعد العذاب حتى أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة. ويهاجر تاركاً ماله الذي جمعه في عدد من السنوات مقابل أن لا يصدّه المشركون عن الهجرة كما مرّ بنا. وما إن وصل إلى المدينة حتى آخى الرسول ﷺ بينه وبين (الحارث بن الصمّة) الذي قُتِل - بعد ذلك - شهيداً في حادثة بئر معونة.

وبعد أن فرض الله الجهاد على المسلمين لم تفتّه غزوة مع رسول الله ﷺ، وقد كان رامياً لا تخطئ له رمية، وتحدث عن جهاده مع رسول الله فقال:

(ولم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط إلا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة قط، إلا كنت حاضره، ولم يُسير سريةً قط إلا كنت حاضرها، ولا غزا غزاةً قط إلا كنت فيها عن يمينه أو عن شماله، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط حتى تُوفّي<sup>(١)</sup>).

ولقد كان لصهيب مكانة مرموقة عند رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٥ / ٢٩٧.

بعده: فروى عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر (في الهدنة التي بعد صلح الحديبية وكان آتئذ كافراً) فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره: فقال: «يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»؛ فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه، أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي<sup>(١)</sup>.

ولا يظن أحد أن صهيباً بعد وفاة رسول الله ﷺ جلس في بيته تاركاً الجهاد في سبيل الله، بل ظل على ما كان عليه من الجهاد والشجاعة والكرم، مطيعاً للخلفاء الراشدين، يساعدهم في أمر شؤون الدولة: فكان (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه يرسله في خلافته للقيام ببعض المهمات. وقد سأله مرة: (يا صهيب، ما فيك شيء أعيبه - عليك - إلا ثلاث خصال: أراك تتسب عربياً ولسانك أعجمي، وتكنى باسم نبي، وتبذر مالك؟).

ويجيبه صهيب: (أما تبذيري مالي، فما أنفقه إلا في حق، وأما كنييتي، فكنايتها النبي ﷺ، وأما انتمائي إلى العرب، فإن الروم سببني صغيراً فأخذت لسانهم)<sup>(٢)</sup>.

ومن ثقة أمير المؤمنين عمر بصهيب أنه حدث الناس فقال: (إن حدث بي

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب من فضائل سلمان وبلال وصهيب)، حديث ٦٤١٢، ص ١١٠٢.

(٢) الإصابة ٥ / ٢٩٧.

حدث فليصلّ بالناس صهيب ثلاثاً، ثم أجمعوا أمركم في اليوم الثالث<sup>(١)</sup>.

وطبق أمير المؤمنين عمر ذلك لما طعن غدراً من المجوسي أبي لؤلؤة فيروز وأحسّ بدنوّ أجله، فقام باستنابته على الصلاة بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام.

ولما وقعت الفتنة بين المسلمين، وصارت السيوف تحصد أرواح المسلمين حصداً بعد أن كانت تحصد رقاب أعداء الله، فاعتزل الفتنة ولم يلوّث يده بدم أي مسلم كان، شأنه في ذلك شأن الغالبية العظمى من صحابة رسول الله رضي الله عنهم.

روى عن رسول الله ﷺ نحواً من ثلاثين حديثاً، وفي صحيح مسلم منها ثلاثة<sup>(٢)</sup>.

انتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً في شوال سنة ثمان وثلاثين من الهجرة وعمره سبعون سنة، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص، ودفن بالبقيع.

هذا هو الصحابي الجليل الذي أنزل الله تعالى فيه آية تتلى آناء الليل وأطراف النهار: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

\*\*\*

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٦.

## التفسير:

كانت الآيات الثلاث السابقات لهذه الآية قد تحدثت في المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، أولئك الذين لهم منطق يأخذ بالألباب، ويسحر من يستمعون إليهم، فهم يملكون فصاحة في القول، ومجاملة للمؤمنين، ومما زاد بتأثيرهم بمن يستمعون لهم حلفهم على صدق ما في قلوبهم. وقد كشف القرآن الحكيم حقيقتهم، وبيّن شدة خصومتهم وعداوتهم وحقدهم على رسول الله ﷺ وعلى صحابته... فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۗ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وهؤلاء (ألد الخصام) هم أبغض الناس إلى الله، كما قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن فضحت الآيات الثلاث شيئاً من صفات المنافقين، جاءت الآية الكريمة بعدها في المقابل تتحدث عن المؤمنين الصادقين على كَرِّ الدهور وتتابع العصور... أولئك الذين يبيعون أنفسهم وما يملكون لله، منسرحة

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم (باب قول الله تعالى: «وهو ألد الخصم»)، حديث ٢٤٥٧، ص ٣٩٦، ومسلم في كتاب العلم (باب في الألد الخصم)، حديث ٦٧٨٠، ص ١١٦٢.



صدورهم ولا يبغون من وراء ذلك إلا رضوان الله وحده فإنه غاية الغايات، ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا مَنْ وصل إيمانه إلى أعلى درجاته، فإذا كان في الناس مَنْ باع نفسه للشيطان والهوى، فإنَّ فيهم من باع نفسه لله! وهكذا جاء التعبير القرآني: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، أي يبيع نفسه ويبيدها في طاعة الله. وذُيِّلت الآيةُ بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. والرأفة أشدُّ الرحمة. و(رؤوف) صيغة مبالغة، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، فهو تعالى يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات، ومن مظاهر رأفته ورحمته: أنه يجزي بالنعيم الكبير على العمل القليل. ورأفة الله بعباده ورحمته بهم تدعو الناس إلى أن يرأف بعضهم بعضاً، ويرحم بعضهم بعضاً، وقد دعا رسول الله ﷺ على كل من ولي من أمر المسلمين شيئاً فشقَّ عليهم أن يشقق عليه، وعلى من رفق بهم أن يرفق به فقال:

«اللهم مَنْ ولى من أُمَّتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومَنْ ولى من أمر أُمَّتي شيئاً فرفق بهم فافرق به»<sup>(١)</sup>.

لقد باع صهيب نفسه لله، فربح رضوان الله، ومن يربح ذلك الرضوان لا يخسر شيئاً أبداً.

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر)، حديث ٤٧٢٢، ص ٨١٩ - ٨٢٠.

وهذه الآية الكريمة – ولو أنّها نزلت في صهيب – تشمل كلّ مَنْ أطاع الله،  
وبذل نفسه أو ماله في سبيل الله في كل زمان وفي كل مكان، لأن العبرة بعموم  
اللفظ لا بخصوص السبب.

رضي الله عن الصحابي الجليل صهيب بن سنان، فقد باع نفسه طلباً لمرضاة

الله!

\*\*\*

## أمُّ الحَبَائِثِ

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ [البقرة: ٢١٩]. قال: فدُعي عمر فقرئت عليه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى...﴾ [النساء: ٤٣]؛ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران؛ فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فنزلت هذه الآية:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (١١) [المائدة: ٩٠ - ٩١]، فلما بلغ

فهل أنتم متتهون فقال عمر: انتهينا انتهينا<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه أبو داؤد في أول كتاب الأشربة [باب في تحريم الخمر]، حديث ٣٦٧٠، ص ٦٦١،  
والترمذي في كتاب تفسير القرآن [باب: ومن سورة المائدة]، حديث ٣٠٤٩، ص ٦٨٧،  
والنسائي في كتاب الأشربة [باب تحريم الخمر]، حديث ٥٥٤٢، ص ٧٥٤.

## عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي، العدوي، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب، كنيته: أبو حفص، كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقبه: الفاروق.

ولد بعد حادثة الفيل بثلاث عشرة سنة: أي قبل البعثة النبوية بسبع وعشرين سنة، وكان من أشرف قريش في الجاهلية، وعُرف برجاحة عقله وحُسن تصرفه، فكان سفير قريش ترسله إلى القبائل في الأمور المهمّة.

ولمّا بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد بلغ من العمر ثلاثين سنة، وقد وقف معادياً للدين الذي جاء به الرسول الكريم أول أمره، وقد شرح الله صدره للإسلام فيما بعد، فأسلم في السنة السادسة من البعثة النبوية؛ فاعتزّ به الإسلام، وصار واحداً من العشرة المبشرين بالجنة، وأحد كبار علماء الصحابة، وعُبادهم وزهّادهم وقوّادهم، ومن ذوي العدل والرحمة في المسلمين، وهو أحد أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحبُّ الرجال إلى النبي الكريم، وحين أسلم بين يدي رسول الله كبرّ المسلمون فرحاً بإسلامه، وقد أعزّ الله الإسلام به، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مازلنا أعزّة منذ أن أسلم عمر» (٢).

(١) لزيادة الاطلاع انظر كتابنا (في صحبة الخلفاء الراشدين) من ص ٥١ - ٨٦، الطبعة الثانية، دار الفرقان، عمان - الأردن.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [باب: مناقب عمر بن الخطاب]، حديث =

وقال: «ما كنا نُقدِرُ على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه...»<sup>(١)</sup>.

وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين إلى المدينة، وقد لازم رسول الله ﷺ في الحضر والسفر، وشهد معه المشاهد كلها، وكان شديداً على الكفار والمنافقين، رفيقاً بالمسلمين، وحريصاً على مصالحهم، وقد عُرف بعلمه الواسع.

حتى قال ابن مسعود حين مات عمر: لقد ذهب بتسعة أعشار العلم.. وقال البراء بن عازب: وكان رضي الله عنه شديداً في الحق، ذكياً ثاقب الرأي، متحمساً لدينه، وقيماً لنيبته، شديداً الهيبة، كثير الورع، شديد التأثير بالقرآن، وافر العدل، يحاسب نفسه قبل أن يحاسب رعيته<sup>(٢)</sup>.

### فضائله:

فضائل أمير المؤمنين عمر كثيرة جداً، منها: جهاده مع رسول الله ﷺ، وتعاونه مع أبي بكر الصديق في تدبير شؤون الدولة، وفي حسن سياسته لما تولى إمرة المؤمنين، وفي محافظته على مال الأمة، وحزمه في إقامة موازين العدالة، وتنظيماته المالية والإدارية، والمساواة بين الناس، وتفقده لأحوال الرعية، وزهده

---

= ٣٦٨٤، ص ٦١٩.

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، [باب: إسلام عمر بن الخطاب]، حديث ٣٧٠، ١ / ٣٢٨، حققه وخرّج أحاديثه: وصي الله بن محمد عباس، الطبعة الأولى ١٤٣٥، دار ابن الجوزي - السعودية - القاهرة.

(٢) الخلفاء الراشدون - أعمال وأحداث - للدكتور أمين محمد القضاة، ص ٤٦، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار الفرقان، عمان، الأردن.

بزينة الحياة الدنيا، والفتوحات التي حدثت في عهده، وغير ذلك كثير. ويكفي أن نعلم من فضائله أن رسول الله ﷺ قال فيه:

«لو كان من بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب»<sup>(١)</sup>.

وقال فيه:

«إيهاً يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطانُ سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك»<sup>(٢)</sup>.

وقد نزل القرآن موافقاً لما قاله عمر في حوادث كثيرة، منها: اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وفي الحجاب لأمهات المؤمنين، وفي قضية أسرى المشركين في غزوة بدر، ومنع الصلاة على المنافقين، وتحريم الخمر، وقوله لثناء النبي ﷺ:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ...﴾ [التحريم: ٥] وغير ذلك.

إيمان عمر:

كان رضي الله عنه على جانب عظيم من الإيمان الحق، وكان يتأثر بتلاوة أو سماع كل آية من آيات القرآن، وقد روى ابن كثير عن جعفر بن زيد العبدي، قال: وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعسُ المدينة ذات ليلة، فمرَّ بدار رجل من المسلمين، فوجده قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته، فقرأ سورة الطور، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧]

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ١٧٤٠٥، ٢٨ / ٦٢٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ [باب مناقب عمر بن الخطاب]، حديث

٣٦٨٣، ص ٦١٩.

– [٨]، قال عمر: قَسَمْتُ حَقَّ وَرَبِّ الكعبة، فنزل عن حمارة، واستند إلى حائط، فمكث قليلاً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعودُه الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه<sup>(١)</sup>!

### اختياره الولاية:

كانت لعمر طريقته الخاصة في اختيار الولاية ومحاسبتهم، حتى صارت مضرب الأمثال، فكان إذا استعمل رجلاً (أي أعطاه منصباً) أشهدَ عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار؛ أن لا يغلقَ بابه دون حاجات الناس، ولا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله، وأن لا يستغلَّ منصبه لفائدة له أو لغيره، ويوصيه بطاعة الله وخشيته، ويحذره من الظلم فكان يقول: «إني لم أبعثكم جبابرة، ولكن بعثتكم أئمة، فلا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم فتظلموهم»<sup>(٢)</sup>.

### الفتوحات في خلافة عمر:

توالت الفتوحات في خلافة أمير المؤمنين عمر: ففتح العراق، وبلاد فارس، والشام، ومصر، وأطراف من إفريقية... وفي وقعة (اليرموك) انتصر المسلمون على الروم وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفاً، وعدد الروم مئة ألف.

وانتصر المسلمون في معركة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص على الفرس

---

(١) تفسير ابن كثير - تهذيب وترتيب - للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، ٦/٣١٠٠، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، دار الفاروق، عمان، الأردن.

(٢) الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، ص ١١٥، طبع سنة ١٣٩٩ - ١٩٧٩، دار المعرفة، بيروت.



الذين وصل عددهم إلى ستين ألفاً!

وهكذا فتحت (الأهواز، الموصل، والسوس، وتستر، والرها، ونصيبين)، وفتحت مصر بقيادة عمرو بن العاص، وفتحت (الجزيرة وأرمينية)، وفتحت - بعد ذلك - (أذربيجان، وجرجان، ونهاوند، واصطخر، والدَيْنُور، وهمدان)، وغير ذلك من البلاد... وكان حُسْنُ اختيار القادة من أمير المؤمنين عمر عاملاً مهماً من عوامل فتح هذه الأقطار، فوق روح الجهاد الذي كان يتحلى به المسلمون آنذاك.

### من وصايا أمير المؤمنين لقواده:

١ - لما أَمَرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعدَ بنَ أبي وقاص على حرب العراق أوصاه بالوصية الآتية:

«يا سعد، سعد بن وهيب، لا يَعْرَنَنَّكَ من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء: الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ أن بُعث إلى أن فارقتنا فالزمه؛ فإنه الأمر. هذه عظمتي إياك: إن تركتها ورغبت عنها حَبِطَ عملك، وكنت من الخاسرين»<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري ٣ / ٤٨٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

## أمير المؤمنين عمر في عام الرمادة:

في السنة الثامنة عشرة من الهجرة، أصابَ دولةَ الخلافة في المدينة والحجاز قحط شديد، وقد اصطَلح الناس على تسمية ذلك العام باسم (عام الرمادة)، ولم يقف أمير المؤمنين عمر مكتوفَ اليدين أمام ما حدث، فكتب إلى الأمصار يطلب منهم الاستغاثة: فكتب إلى عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وسعد بن أبي وقاص يطلب منهم أن يُرسلوا له ما يستطيعون إرساله من الطعام لإغاثة الناس؛ فأرسل كل واحد منهم كميات كثيرة من الدقيق والدهن والكساء. وما إن بدأت طلائع الإغاثة تصل حتى استعان أمير المؤمنين بمن كان معه لينحروا الإبل، ويقوموا بطبخ الطعام، وتوزيع الكساء على الناس، وهكذا كان. وقد شارك أمير المؤمنين بنفسه في توزيع الطعام. قال أسلم: «كنا نقول: لو لم يرفع الله المحل عام الرّمادة، لظننا أن عمر يموت همماً بأمر المسلمين»<sup>(١)</sup>.

ولقد شارك عمر الناس فيما أصابهم، وربّما تحمّل من الجهد أكثر مما تحمّل فقراء المسلمين، وإذا أصاب الجوع واحداً منهم شاركه فيما أصابه. روى عبد الله ابن زيد بن أسلم عن أبيه، عن جده قال: «كان عمر يصوم الدهر. قال: فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد تُرد بالزيت إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً، فأطعمها الناس، وغرفوا له من طيّبها، فأُتي به؛ فإذا فدر (قطعة) من سنام ومن كبده؛ فقال: أنى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنها اليوم. قال: بخ بخ بئس الوالي أنا إن أكلت طيّبها وأطعمت الناس كراديسها (أي

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٣ / ٢٩٣، تحقيق: علي محمد عمر، الطبعة الأولى ١٤٢١ -

٢٠٠١، مكتبة الخانجي، القاهرة.

رؤوس عظامها)؛ ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأُتي بخبز وزيت، قال: فجعل يثرد ويكسر ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا يرفاً (اسم غلامه): احمل هذه الجفنة تأتي بها أهل بيت بشمع (موضع وقفِ عمر)؛ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين؛ فضعها بين أيديهم»<sup>(١)</sup>.

## عمر بن الخطاب وحرية الرأي:

أدرك عمر بثاقب بصيرته أهمية حرية الرأي، فدعا الناس إلى إبداء آرائهم فيه وفي حكمه، فكان يُصغي لما يقوله الناس فيه: فلا يضجر، ولا يضيق صدره بما يقولون، وينظر في حاله: فإن كان في تصرفاته خلل قام بسدّه، وإن كانت صحيحة سليمة: بيّن للناس ذلك، ولا عجب، فهو صاحب القول المشهور: رحم الله امرءاً أهدي إليّ عيوي. وهذان مثالان على ذلك:

١ - قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِي اعْوَجَاجًا فَلْيَذْكُرْنِي، فَقَامَ إِلَيْهِ بِلَالٌ أَوْ سَلْمَانٌ فَقَالَ: «لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ اعْوَجَاجًا لَقَوْمْنَاك بَسِيوفْنَا»<sup>(٢)</sup>.

٢ - وجاء رجل يوماً وقال لعمر على رؤوس الأشهاد: اتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرُ! فغضب بعض الحاضرين من قوله، وأرادوا أن يُسَكِّتوه عن الكلام؛ فقال لهم

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٣ / ٢٩٣.

(٢) كفاية الطالب الرباني لأبي الحسن المالكي ١ / ١٥٣، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي،

١٤١٢، دار الفكر، بيروت.

عمر: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها<sup>(١)</sup>.

استشهد أمير المؤمنين عمر على يد غلام فارسي هو أبو لؤلؤة فيروز، وعمره ثلاث وستون سنة هو عُمر النبي ﷺ، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، وقد روى من الأحاديث خمسمئة وستة وثلاثين حديثاً.

\*\*\*

---

(١) عمر بن الخطاب، تأليف الدكتور علي محمد محمد الصلابي، ص ١٣٠.

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ  
لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

مع الآية الكريمة:

بعد أن استقرَّ الإيَّان في قلوب العصبة المؤمنة من صحابة رسول الله رضي الله عنهم، اتَّسع أفق تفكيرهم في الواقع الذي يعاشونه، فنظروا في أمر الخمر والميسر فوجدوا المجتمع قد غرق إلى الأذقان في معاقرتها؛ امتداداً لما كان عليه المجتمع الجاهلي الذي أُولع بها، وكانت جزءاً من حياتهم، وكانت تُعدُّ من مفاخرهم، ولم ينزل - آنئذ - في تحريمها شيء.

وأما الميسر، فهو لون من ألوان القمار، قد أنتشر بين الناس - آنذاك - وهو من مادة (يسر) التي تدل على السهولة؛ لأن المال يأتي إلى الرابح من غير جهد ولا عناء، أو من (يسَّروا الشيء) بمعنى: اقتسموه، والياسر: هو القاسم بينهم للجزور بين الياسرين.

نظر الصحابة إلى ما في الخمر والميسر من شر ووبال، فأتى بعضهم رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة في السنة الخامسة من الهجرة يسألونه سؤال استرشاد عن حكم الخمر والميسر. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد دعا الله سبحانه أن يُنزل حكمه في الخمر فقال: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً). ولم يسأل الصحابة هذا السؤال إلا بعد أن أثمر الإسلام بمنهج حياتهم، فرجعوا إلى فطرتهم السليمة، وصاروا يستنكرون ما كانوا يستسيغونه من قبل. ولم ينزل قبل

هذه الآية التي نتحدث فيها شيء بتحريم الخمر والميسر، كما لم يرد نص صريح يقضي بحلّها.

أما الخمر؛ فقد عرّفه العلماء فقالوا: هو ما خامر العقل من أيّ شراب كان، سواء اتّخذ من العنب، أو الشعير، أو التمر، أو من أي مركّب كيمياوي كان. وقد ذهب أكثر العلماء إلى أنّ الآية التي نتحدث فيها هي أول آية نزلت على رسول الله ﷺ بشأن الخمر. وأمّا الآية الثانية، فهي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وكانت خاتمة آيات تحريم الخمر قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿١١﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

وعلى هذا يكون تحريم الخمر قد مرّ بثلاث مراحل:

والدليل على هذا حديث أبي داؤد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ...﴾ [البقرة: ٢١٩] قال: فدعي عمر فقرئت عليه: قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران؛

فُدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] ، قال عمر: انتهينا، انتهينا<sup>(١)</sup>.

ويرى بعض العلماء أنّ أول آية نزلت في الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا...﴾ [النحل: ٦٧]، وعلى هذا يكون ذكر الخمر قد جاء بأربع مراحل.

### الحكمة في التدرّج بتحريم الخمر:

قد يقول قائل: إنّ ضرر الخمر لا يخفى على المتأمل بها، فهي تؤثر بعقل مَنْ يعاقرها، وبأخلاقه، وبجسده، وبماله، وبإماتة الحياء فيه، وبكشف الأسرار، وبالمهانة في أعين الناس... فلماذا لم يحرمها الإسلام في العهد المكّي، وظلّ أمرها مباحاً إلى العهد المدني في السنة الخامسة للهجرة التي حرّمت فيها؟

### والجواب:

إنّ رسول الله ﷺ أكرمه الله بالرسالة، ومعاقره الخمرة قد أخذت مأخذها في الجزيرة العربية، وكأنها صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، فلا يقدرّون على

(١) رواه أبو داؤد في أول كتاب الأشربة (باب: في تحريم الخمر، حديث ٣٦٧٠، ص ٦٦١، والترمذي في كتاب تفسير القرآن [باب: ومن سورة المائدة]، حديث ٣٠٤٩، ص ٦٨٧، والنسائي في كتاب الأشربة [باب: تحريم الخمر]، حديث ٥٥٤٢، ص ٧٥٤.

الاستغناء عنها، فلم يصدر في تحريمها شيء في العهد المكي والسنوات الأولى من العهد المدني وقد كانت الآيات تنزل على رسول الله ﷺ، تبيّن العقيدة الصحيحة التي يجب أن يعتقدوها كل مسلم، وهي تتضمّن توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، وتعرّفهم بالإله الحق الذي يستحق العبادة - وحده - دون سواه، وتغرس في قلوبهم معنى لا إله إلا الله، وتبيّن لهم أن الله عز وجل لم يخلق الناس عبثاً، ولم يتركهم سدىً، وأنّ هناك داراً أخرى، يحاسب الله فيها الناس على ما أقدموا عليه من عقيدة وعمل، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويكون المستقرّ الدائم إما في الجنة أو في النار... حتى إذا تمكّن الإيمان في نفوس الناس، في العهد المكي، وهاجر رسول الله إلى المدينة المنورة، فصارت الأحكام الشرعية من الحلال والحرام تنزل على رسول الله ﷺ، ومنها حكم الخمر. ومع ذلك فقد جاء تحريم الخمر على مراحل؛ لأنّ الناس كانوا مولعين بشربها، وهذه المراحل كان فيها ما فيها من الرفق بالمسلمين - آنذاك -، وذلك من حكمة التشريع؛ إذ لو حرّمت في الأيام الأولى لبعثت رسول الله ﷺ لشقّ ذلك على الناس؛ لذلك نجد التنزيل القرآني قد سار بالصحابة خطوة خطوة؛ ولعلّ الآية التي نتحدث فيها كانت ممهدة لتحريم الخمر غير مصرحة بالحرمة. تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«إنما نزل أول ما نزل منه (أي من القرآن) سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء، لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا



أبدأ...»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان التدرج من خصائص التشريع الإسلامي، فإنه لا علاقة له بأمر العقيدة، فلا تدرج في العقيدة، ولا مهادنة، ولا مداراة، وليس فيها شيء من المساومة أو التساهل أو الحل الوسط.

### صلة الآية بما قبلها:

لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة لهذه الآية مكانة الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أعقب ذلك بما يتعلق بإصلاح المجتمع الذي يجب أن يُبنى على أسس قويمة، من البناء المتماusk القوي... فجاء حكم الخمر والميسر، ليتخلص المجتمع مما يُوهنه ويفت في عَصْدِهِ.

### التفسير:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ابتدأ جواب السؤال عن الخمر والميسر، بذكر ما فيهما من إثم كبير ومنافع للناس. ويُطلق (الإثم) في القرآن الكريم على عدة معان: فيطلق على الشرك، وعلى المعصية، وعلى الذنب، وعلى الخطأ، وعلى الظلم، وعلى الكِبْر، وعلى سوء الظن، وعلى كبائر المعاصي، وعلى الكذب، وعلى كتمان الشهادة... وفي كل معنى من هذه المعاني آية كريمة تدل عليه.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، كتاب فضائل القرآن (باب: تأليف القرآن)، حديث ٤٩٩٣، ٩ / ٤٩.

هكذا جمع القرآن الحكيم هذه المعاني لكلمة (الإثم)، لكنه ذكر ما فيه من نفع أيضاً، وهذا الأسلوب القرآني يجعل القارئ والسامع للآية الكريمة - وبخاصة من غير المسلمين - يطمئن إلى ما يعرضه القرآن في الجواب عن الخمر والميسر، ويصل بنفسه إلى النتيجة الصحيحة.

وهناك مسألة ثانية تتعلق بذكر المنافع، فإنها لو أهملت ولم تُذكر بالآية لقال مَنْ قال: إن في الخمر والميسر منافع، فالتجارة في الخمر تدرُّ على صاحبها مالاً وفيراً واسعاً، فكان المتاجرون بها يجلبونها من الشام بثمان بخس، ثم يبيعونها في الحجاز بثمان غال، وهكذا الأمر فيمن يكون رابحاً من الميسر، فيحصل على مال بلا تعب ولا نصب.

على أن القرآن الحكيم - فوق ذلك - أطلق لفظ الإثم ووصفه بالكبير «فيهما إثم كبير» ولم يفعل ذلك بالمنافع، بل قيدها، فكأن القرآن ينبه على أن الذي يحصل على مالٍ من هذين المصدرين إنما يحصل على مال ضئيل ضئيل مهما كان، وإن تلك المنافع هي منافع خاصة وليست بعامة.

ولا يظنُّ أحد أن الإثم الذي ذكره القرآن هنا مساو لما كان في الخمر والميسر من منافع، فقد جاء اللفظ القرآني «ومنافع للناس» بعد أن بين القرآن قُبْحها الشديد؛ لتجنّبها النفوس فلا تقبل عليها، فإنّ الإنسان العاقل يتجنّب ما يحمله لفظ (الإثم) من المعاني المنفّرة، ويستطيع أن يستغني عن تلك المنافع، مقابل اجتنابه للإثم الكبير.

على أن القرآن الحكيم - فوق ذلك كله - لم يتحدث عن منافع الخمر شيئاً

- ولو بكلمة واحدة - واكتفى بقوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وأما أمّهات المفسد فقد أكثر القرآن الكريم من ذكرها، والسبب في ذلك: أن المنافع يكاد حكمها يكون كحكم العدم، ومن يكون حكمه كحكم العدم، فلا فائدة في الحديث فيه.

### ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾

يتحدث الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، في هذا النص الكريم فيقول:

(مع ما في الخمر والميسر من منافع لمن يتاجرون بهما، إلا أن الله حرّمهما؛ نظراً لما فيهما من إثم كبير. فمعلوم أنه لا يوجد شيء هو شرٌّ خالص، فكل شر فيه بعض الخير، والمعول عليه في التحريم هو نسبة الشر إلى الخير، ونسبة الضر إلى النفع، وكل ما حرّمه الله نسبة الشر فيه أكثر من ما فيه من خير قليل)<sup>(١)</sup>.

أما الميسر، فهو لون من ألوان القمار، وصورته: أنهم كانوا يأتون بالجزور فينحر، وكانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام، كُتب على سبعة منها أرقام متفاوتة، وأما الثلاثة الأخرى فتكون مهملة ليس عليها رقم وتسمى (السفيح) و(المنيح) و(الوغد)، وأما السبعة الأخرى الرباحة، فهي (الفذ)، له سهم واحد، و(التوأم) وله سهمان، و(الرقيب) له ثلاثة، و(الحلس) له أربعة، و(النافس) له خمسة، و(المسبل) وله ستة، و(المعل) له سبعة، فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهماً. ويقوم الياسر وهو القائم بقسمة الجزور بقسمته إلى ثمانية وعشرين جزءاً،

(١) المدخل العام إلى تفسير آيات الأحكام، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، ١ / ٣٠٦، الطبعة

الأولى، ١٤٣٧ - ٢٠١٦، دار النفائس، عمان - الأردن.

وكل واحد من القداح له اسم، وعليه رقم، وتوضع عشرة القداح في إناء واحد مغطى، ويجيلونها ليختلط بعضها ببعض، ويأتي رجل معروف بأمانته، فيتناول باسم كل واحد منهم سهماً: فما طلع من القداح لواحد منهم أخذ ما يستحق من رقمه من الثمانية والعشرين جزءاً من الجزور، ومن طلع له سهم مهمل لم يُكتب عليه رقم لا يأخذ شيئاً منه، ويكون عليه - في الوقت نفسه - أن يدفع ثمن الجزور!.

ولا ريب أنّ هذا العمل فيه ما فيه من الظلم؛ لأنه أكل للمال بالباطل، وقد كان كل من الخمر والميسر يُوقَعُ العداوة والبغضاء بين الناس.

والميسر الذي هو القمار لا يقتصر على ما ذكرناه، فهو يشمل كل نوع من أنواعه في كل زمان وكل مكان؛ لأن كل واحد من المقامرين حين يجلس أمام صاحبه، يحرص على أخذ كل ما عنده، ومن هنا تقع العداوة والبغضاء في الميسر والخمر الذي تحدثنا عنه من قبل.

والملاحظ أنّ من يربح في لعب الميسر لا ينتفع بهذا المال في حياته؛ إذ كثيراً ما يقوم بتبذيره مهما كان كثيراً؛ لأن من جاءه المال بيسر، سهل عليه أن يصرفه في غير مكانه بيسر أيضاً، وأما الخاسر، فيعيش في حياته متألماً، تكاد الحسرة تقطعُ نياط قلبه على ما فقده، وما أكبر خسارة هؤلاء الذين غالباً ما تكون بيوتهم منهارة وأسرهم مفككة!

أما ما كان في الميسر من منافع - آنذاك - فهو أخذ الفقراء لحم الجزور المتقامر عليه، ولا يقاس هذا بما في الميسر من شرٍّ مستطير وضرر كبير.

ويتحدث (الشيخ محمد عبده) عن الأضرار الكثيرة للميسر، فيذكر منها:

(إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال الياسرين (المقامرين) للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران... وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة...) (١).

## وللعلم كلمة:

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فحين تحدثنا عن (أمّ الخبائث) في الخمر، فإنّ فطاحل الأطباء في العالم كله نصّوا على الأضرار الصحية المرعبة المؤذية لأجهزة الجسم: كتأثيرها على الجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز العصبي المركزي، وتأثير الخمر على الكلى وعلى الكبد، وعلى ضعف المناعة في مقاومة الجسم للأمراض، وتأثيرها في الإصابة بالأمراض العقلية... وأنقل ما كتبه الطبيب الفاضل وجيه زين العابدين رحمه الله في أضرارها بجسم الإنسان فيقول:

(لا يمرّ الكحول في نسيج من أنسجة الجسم إلاّ ويؤذيه، تستقبل المعدة هذا الخبيث فيحرقها: فتدافع عن نفسها بالاحمرار وزيادة الحموضة فكثرة الغازات. وتدخل الخمرة الكبد فتصاب بالتليّف: وهو تشمّع الكبد... والخمر تؤذي (غدة البنكرياس)، فإذا التهبت فالمعالجة صعبة وطويلة، ويكون الكحول في الرئة، ويكون في القلب، فيسمم عضلة القلب... ويسري هذا السمّ في الدم فيسبب شللاً جزئياً أو نصفياً... ويمرّ الكحول في الدماغ، فيسبب بصورة تدريجية نقصاً في قشرة

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٢ / ٢٦٦، خرّج أحاديثه وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الثانية ١٤٢٦ - ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

الدماغ... ولا يظنُّ أحد أن هذه الأعراض تأتي المُدمنَ أو المُفراط فقط، فهي تصيب مَنْ يزعم أنه لا يشرب الخمر إلا قليلاً أو في ما يسميه المناسبات... وقد يصاب مدمن الخمر بالهلوسة والغيرة الوهمية، أو يتجوّل ولا يدري أين مكانه، وربما آل به الأمر - وهو في هذه الحالة - إلى الانتحار... ويقول أحد الأطباء الأمريكان: إنَّ ربعَ مرضى الباطنية في المستشفيات هم بسبب الخمرة...<sup>(١)</sup>.

أما الدكتور (برنت)، فيقول: (إن واحداً من كل خمسة يدخلون المستشفيات في اسكتلندا، قد أدخل بسبب شرب الخمر وإدمانها)<sup>(٢)</sup>.  
أولا يكفي ذلك في تقبيح الخمرة والتشجيع على شاربها، وكذلك أمر الميسر الذي شَتَّتَ الأُسْرَ، وألقى العداوة والبغضاء بين الناس!؟

\*\*\*

---

(١) صحة الشيخ للأستاذ الطبيب وجيه زيد العابدين ص ٣٠ - ٣٢، مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٦.

(٢) الخمر بين الطب والفقہ للطبيب محمد علي البار ص ٨٦، الطبعة الخامسة، الدار السعودية.

## فلا تعضلوهن

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنها نزلت فيه، قال: زوجتُ أختاً لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها؛ فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمك فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه؛ فأنزل الله هذه الآية: (فلا تعضلوهن)، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: كانت لي أخت تخطب إليّ، فأمنعها، فخطبها ابن عم لي فزوجتها إياه؛ فاصطحبا ما شاء الله أن يسطحبا، ثم طلقها طلاقاً له عليها رجعة، فتركها حتى انقضت عدتها وخطبها الخطاب، جاء فخطبها، فقلت:

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: من قال: لا نكاح إلا بولي)، حديث ٥١٣٠،

يا لُكَّع! خطبت أختي فمَنَعْتُها الناس، وآثرتك بها فطلقتها، فلما انقضت عدتها جئت تخطبها! ولا والله الذي لا إله إلا هو لا أزوَّجَكها، ففيه نزلت هذه الآية: (وإذا طلقتم النساء...) فقلتُ: سمعاً وطاعةً، وكفَّرتُ يميني وأنكحْتُها<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الاستيعاب في بيان الأسباب تأليف سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر ١ / ١٨٧ - ١٨٨ الطبعة الثالثة ١٤٣٤، دار ابن الجوزي، قال المؤلفان: رواه الطيالسي رقم ٩٣٠ ومن طريقه النسائي في التفسير رقم ٦١ وهي صحيحة.



## معقل بن يسار رضي الله عنه

هو معقل بن يسار بن عبد الله بن معبر المزني، يكنى بأبي علي، وقيل كنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو يسار.

كتب الله له الخير والسعادة، فانصوى تحت لواء الإسلام قبل (غزوة الخندق) وكان ممن شهد (بيعة الرضوان)، وقد قال في تلك البيعة: «بايعناه — يعني رسول الله — على أن لا نفر»<sup>(١)</sup>.

وظل معقل يجاهد في حياة رسول الله ﷺ وبعد مماته، وكان ممن اشترك في فتح (نهاوند) التي تُعدّ (فتح الفتوح) التي قضت على طغيان الأكاسرة، ولم تقم لامبراطورية الفرس قائمة بعد ذلك، وكانت المعركة بقيادة النعمان بن مقرن المزني، وبينما كان النعمان يشقُّ صفوف الفرس ويحصد رؤوسهم حصداً أصاب خاصرته سهم قاتل؛ فسقط على الأرض والراية في يده، ويقال: بل زلقت فرسه من الدماء فسقط على الأرض؛ فجاءه (معقل بن يسار) وفي يده ماء ليغسل وجه القائد الجريح، ولا يزال بالقائد رَمَق، فيسأله النعمان: مَنْ أنت؟

فيقول: معقل بن يسار.

وعاد يسأله: ما فعل الله بالناس؟

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ١٧١، تحقيق الشيخ: خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨ -

٢٠٠٧، دار المعرفة، بيروت.

فيجيبه معقل: فتح الله على المسلمين!

وتبسم النعمان مع آخر أنفاسه وآخر كلماته قائلاً: الحمد لله كثيراً! اكتبوا بذلك إلى عمر!<sup>(١)</sup>.

وكان معقل ممن نزل البصرة، وبنى داراً له فيها، ومن أعماله في البصرة حفره نهر معقل - وسمي النهر باسمه - بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عاش حياة هائلة في البصرة، حتى قالوا: ما كان ههنا - يعني في البصرة - أحد من أصحاب النبي ﷺ أهنأ من معقل بن يسار. انتقل إلى جوار ربه في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان، في ولاية عبد الله بن زياد<sup>(٢)</sup>.

روى عن رسول الله ﷺ أربعة وثلاثين حديثاً<sup>(٣)</sup>.

ومن الأحاديث التي رواها: أن عبید الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه، فقال معقل: إني مُحدِّثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لو علمت أن لي حياة ما حدِّثتك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد

---

(١) ينظر كتابنا: صحابة دفنوا في أرض العراق ص ١٩٨ - ١٩٩، الطبعة الأولى ١٤٣٧ - ٢٠١٦،

دار عمارة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، وطبعة أنوار دجلة، في بغداد.

(٢) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٥ / ١٤٩.

(٣) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم، ص ٩٨.

يسترعيه الله رعيةً يموتُ يومَ يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»<sup>(١)</sup>.

روى عن رسول الله ﷺ، وعن النعمان بن مقرن المزني، وروى عنه: عمران ابن حصين، وعمرو بن ميمون الأودي، وأبو عثمان النهدي، والحسن البصري، وآخرون<sup>(٢)</sup>.

وحديثه في الصحيحين وفي السنن الأربعة.

\*\*\*

---

(١) رواه مسلم - واللفظ له - في كتاب الإيمان [باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار]، رقم ٣٦٣، ص ٧٣، والبخاري في كتاب الأحكام [باب: من استرعى رعية فلم ينصح]، رقم ٧١٥٠، و٧١٥١، ص ١٢٣٠.

(٢) الإصابة لابن حجر العسقلاني ١٠ / ٢٨٢.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

صلة الآية بما قبلها:

كانت الآيات السابقة لهذه الآية قد تحدثت في أمر عدة طلاق المرأة، وقد جعل الله الطلاق مرتين ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وإن الرجل إذا طلق زوجته للمرة الثالثة لا تحلُّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، ولا يجوز للرجل أن يمسك زوجته ضراً. ثم جاءت هذه الآية، تطلب من الأولياء أن لا يمنعوا من طلقت من بناتهم أو أخواتهم أن يجسوهن عن الزواج من أزواجهن أو من غيرهم، إذا حصل التراضي بينهما.

التفسير:

تكشف الآية الكريمة عن جانب مهم من جوانب رحمة الله بعباده المؤمنين، وفيها ما فيها من التيسير الذي هو سمة من سمات الإسلام في أمر الطلاق، فإن الله عز وجل يعلم أحوال الناس وما انطوت عليه من عادات حسنة أو سيئة، ويعلم حقيقة واقعهم الذي يعيشونه. وننظر في الحياة الجاهلية، فرى الأنفة كانت سمة من سمات العرب لا تنفك عنهم، وظلت عقابيلها تعمل عملها حتى في المسلمين في العهد المدني، فكان الرجل إذا زوج كريمته، ثم حدث خلاف بين

الزوج وزوجه وطلّقها، وأراد أن يعقد عليها بعد انقضاء عدّتها، وقد خلّت من الموانع من عودتها إلى زوجها الأول، وحصل التراضي بينهما، صَعَبَ على وليّها أن يُعيدها إليه؛ ظاناً أنّ طلاقها إن هو إلاّ استخفاف بوليها. وحدث أنّ معقل بن يسار زوج أخته من رجل لا بأس به، لكن ذلك الزواج لم يكتب له الدوام، فطلق الرجل زوجته، وبعد أن انقضت عدّتها ندم على ما كان منه، كما ندمت هي أيضاً، وعاد إلى خطبتها ليقترن بها، لكنّ معقلاً أبى ذلك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة.

ونتأمل بالآية، فنرى العليم الخبير سبحانه يوجه عباده المؤمنين من أولياء النساء أن لا يقفوا (حجر عثرة) أمام هذا الزواج كما كانت الجاهلية تفعل، بل عليهم أن يُمضّوه، إذا كانت العدة قد انقضت، وكان الطلاق قد وقع مرة أو مرتين، فيعقد عليها العقد الشرعي ويتم الزواج، وجاء النص القرآني الكريم يفصح عن هذا: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

فالمسألة إذن مسألة الحرمة على الأولياء إذا منعوا المرأة من العودة إلى زوجها الأول، أو الاقتران بزواج جديد كُفء إذا حصل التراضي الشرعي بينهما. وننظر في القرآن الحكيم فنرى الله جلّ جلاله جعل الطلاق مرتين، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُهُ بِإِحْسَنٍ﴾، لأن الانسجام بين الزوجين قد لا يتحقق، فيقوم الرجل بتطبيق زوجته، وتمضي مدة من الزمن، فيراجع كل واحد من الزوجين نفسه، ويعود إلى خطبتها مرة ثانية، فقد يتم

التعايش الطيب بينهما. وكم من رجل وامرأة حصل الطلاق الأول بينهما، فلما عادا إلى الزواج مرة ثانية كانا أسعد زوجين!

على أن الرجعة لا تكون إلا بموافقة المرأة، فإن لم توافق فلا رجعة، وهي لا توافق إلا إذا علمت أن مصلحتها في هذا الزواج. فليس من العدل أن يطلق الرجل زوجته ثم لا يكون لها رأي في الرجعة بعد انقضاء عدتها.

ومع ذلك، فلو أرادت أن تعود لزوجها، فليس من حَقِّها أن تلي عقد النكاح بنفسها، ولو كان ذلك لها لما كان هناك معنى للعضل: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] ولوجود أحاديث تشرط رضى الولي، ولأن المرأة جانبها ضعيف، فقد تؤكل حقوقها من الرجل.

ومع هذا، فإن الشرط في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ليشير إلى أن من حق الولي - في بعض الأحيان - أن يمنع مضي الزواج، إذا علم أن الحياة الزوجية لا يمكن أن يكتب لها الاستقرار والدوام لأسباب علمها من الزوجين، وليس اتباعاً لهوى النفس.

وختمت الآية بذلك التذييل - وهو كالتعليل في الوقت نفسه - بالتوجيه الإلهي القاضي بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر الإيمان الحق، يستجيب لما يأمر به الله: فلا يلحق الضرر بالنساء، ولا يمنعهن من الزواج، والمؤمنون هم الذين ينتفعون بالمواعظ الإلهية..

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وفي هذا النص الكريم حث للمؤمنين بالله على الاستجابة لما يصدر عن الله تعالى،

وهذه الاستجابة أعظم بركة وأكثر تطهيراً؛ إذ مَنَعُ النساء المطلقات من الزواج بالرجل الكفء يؤدي إلى نتائج سيئة، فإن المرأة التي تعامل معاملة كريمة تلتزم بالأخلاق العالية، ويكون العفاف أفضل زينة تتحلّى بها. وعلى العكس من ذلك، فمن لم تُعامل هذه المعاملة الطيبة فقد تنحرف في تصرفاتها، وترتكب ما نهى الله عنه، والله تعالى - وحده - هو الذي يعلم ما فيه مصلحة الناس؛ فشرع لهم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة في كل زمان وفي كل مكان.

وأما الإنسان فلا يعلم إلا الظاهر من الأمور، وهذا الظاهر قاصر قاصر

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن في عودة المرأة إلى زوجها أذكى وأطهر.

\*\*\*

## قوم لا حظ لهم في الآخرة

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ  
يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرَأٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ ... ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فَجَاءَ الْأَشْعَثُ فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُمْ أَبُو عَبْدِ  
الرَّحْمَنِ؟ فِي أَنْزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ، كَانَتْ لِي بَثْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمِّ لِي فَقَالَ لِي - يَعْنِي رَسُولَ  
اللَّهِ -: «شُهِدَكَ؟ قُلْتَ: مَالِي شُهُودٌ، قَالَ: فِيمَيْتُهُ؟ قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا يَحْلِفُ،  
فَذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ هَذَا الْحَدِيثُ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَصْدِيقًا لَهُ»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) رواه البخاري في كتاب المساقاة [باب: الخصومة في البئر والقضاء فيها] حديث ٢٣٥٦ و ٢٣٥٧ ص ٣٧٩. وهناك روايات كثيرة أخرى للبخاري في صحيحه.



## الأشعث بن قيس رضي الله عنه<sup>(١)</sup>

الأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية بن جبلة الكندي<sup>(٢)</sup>. والأشعث لقبه وليس اسمه. أما اسمه فهو معديكرب بن قيس<sup>(٣)</sup>، وذلك لتلبُّد شعر رأسه وشعثه، كما لقب أيضاً بالأشج، ويكنى: أبا محمد.

ولد في قبيلة (كندة) حوالي سنة ٢٣ ق. هـ، وكان أبوه أميرها في حضر موت، وقد قتلته قبيلة مراد، وتولى رئاسة قومه في الجاهلية. ولما أشرق نور الإسلام، وفد على النبي ﷺ سنة عشر من الهجرة في وفد من (كندة)، وكانوا ستين راكباً - وقيل سبعين - فأسلموا جميعاً. وظلت له الوجاهة في قومه بعد انضوائه تحت لواء الإسلام.

وبعد أن انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه امتنعت أعداد من القبائل عن دفع الزكاة، ومنها قبيلة (كندة)؛ ولم يبايع الأشعث أبا بكر. لقد كان موقف أبي بكر حازماً، وكان جيش المسلمين في قمة الشجاعة، فاستطاعوا أن يأخذوا الأشعث أسيراً من اليمن، وجاءوا به إلى خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وبعد أن حاوره أبو بكر عاد الأشعث فنطق بالشهادتين. عاد الأشعث إلى الإسلام، وكان من آخر ما تحدّث به الأشعث قوله لأبي بكر: «استبقني لحربك

(١) ينظر كتابي (صحابه دفنوا في أرض العراق) ص ١٧٣ - ١٧٥.

(٢) أسد الغابة ١ / ١١٥.

(٣) أسد الغابة ١ / ١١٥.

وزوجني أختك؛ ففعل أبو بكر رضي الله عنه<sup>(١)</sup>. وكانت أخته أم فروة بنت أبي قحافة، وهي أم محمد بن الأشعث، هذا ما قاله ابن عبد البر في الاستيعاب، وما قاله ابن الأثير في أسد الغابة، وما قاله ابن حجر في الإصابة.

وأما ابن سعد، فذكر أن زياد بن لييد عامل رسول الله ﷺ على حضرموت نعى رسول الله ﷺ بعد وفاته إلى الناس، وأخذهم بالبيعة لأبي بكر، وبإعطاء الصدقة، فامتنع قوم من إعطاء الصدقة، وكان من هؤلاء: الأشعث بن قيس، وقد حاول امرؤ القيس بن عابس أن يثنيه عما عزم عليه من الردة فلم يفلح. ولم تكن (كندة) وحدها هي التي ارتدت عن الإسلام، فهناك الكثير الكثير من القبائل التي ارتدت. لكن زياد بن لييد كان حازماً، فقاد من بقي معتقداً عقيدة الإسلام فقاتل بهم المرتدين، وحاصر زياد الأشعث ومن كان معه، حتى ألحق الأذى بكندة وأصاب الأشعث ومن معه الجهد؛ فطلب الأمان لنفسه ولأهله ولماله، وطلب أن يرسله إلى خليفة المسلمين أبي بكر الصديق ففعل زياد ذلك<sup>(٢)</sup>.

هكذا تاب الأشعث، وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه.

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شهد الأشعث حرب (القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند)، وكان قبل هذا قد شهد حرب (اليرموك) بالشام، ففقئت عينه، وسكن الكوفة، وابتنى بها داراً.

وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، استعمله أمير المؤمنين على

(١) الاستيعاب ١ / ٢٢٠.

(٢) ينظر الحديث مفصلاً في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٦ / ٢٣٠ - ٢٣٧.

(أذريجان).

ولما حدثت الفتنة في (حرب صفين) كان الأشعث يقاتل مع أمير المؤمنين علي، وكان زعيم (كندة) فيها، وكان ممن أشار على أمير المؤمنين بقبول التحكيم، وقد شهد الحكمين بـ (دومة الجندل).

ومما يُذكر عن الأشعث: أنه حضر جنازة، وكان فيها الصحابي الجليل (جرير بن عبد الله البجلي)، فقدم الأشعثُ جريراً قائلاً: «إنه لم يرتدَّ وقد كنت ارتددت»<sup>(١)</sup>.

يُعد الأشعث من أصحاب الأحاديث التسعة<sup>(٢)</sup>.

روى له البخاري ومسلم. فمن أحاديث النبي ﷺ التي رواها البخاري عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ، هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»<sup>(٣)</sup>.

وقد تزوج الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ابنته، ولما توفي الأشعث صلى عليه الحسن بن علي، وكان ذلك سنة أربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين.

رحم الله الأشعث.

---

(١) الإصابة ١ / ١٨٢.

(٢) أسماء الصحابة الرواة ص ١٦٨.

(٣) رواه البخاري في كتاب المساقاة [باب الخصومة في البئر والقضاء فيها] رقم ٢٣٥٦ و٢٣٥٧.

## التفسير:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

تتحدث الآية الكريمة في صنف من الناس أساءوا في نهجهم الديني  
والدنيوي، فتوعدهم الله بعذاب أليم، فلا يكون لهم حظٌّ من نعيم الآخرة، ولا  
يستحقون رضا الله ورحمته وإحسانه.

وتسأل: من هؤلاء؟

ويأتي الجواب: إنهم ﴿ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.  
ومعنى (يشترون): يستبدلون والباء تدخل على المتروك. فهؤلاء تركوا عهد الله  
وكذبوا بأيمانهم، واستبدلوا بها ثمنًا قليلًا، وإذا ائتمنهم الناس على أموالهم فلا  
يؤدونها، ويعتاضون بالأيمان الكاذبة بما يحصلون عليه من متاع الحياة الدنيا...  
هؤلاء لا نصيب لهم يوم يقفون بين يدي الله يوم القيامة، يغمرهم الندم، وتأكل  
الحسرة قلوبهم، وتغشاهم الذلّة من كل جانب! وكيف لا يكونون كذلك وقد  
غضب الله عليهم، ومن غضب الله عليه فلا ينظر إليه.

والمأمل بسياق الآية الكريمة، يجد أن نكث العهود وخيانة الأمانة أعظم إثماً  
من مرتكب الكبائر كالزنا وشرب الخمر... لأنّ النكث والخيانة تجمع المفسد من  
أطرافها، فلا يكون في المجتمع نظام، ولا تسير الحياة سيرة طبيعية، ويتحدث

القَفَال في تفسير هذه الآية فيقول:

(وهذه الكلمات يراد بها بيان شِدَّةِ سَخَطِ الله عليهم؛ لأنَّ من منع غيره كلامه في الدنيا، فإنما ذلك لسخطه عليه، وقد يأمره بحجبه عنه هو ويقول: لا أكلمك ولا أرى وجهك، وإذا جرى ذكره لم يذكر بالجميل)<sup>(١)</sup>.

ونظر بالعهد فنراه ينقسم على قسمين:

الأول: عهود الإنسان لأخيه في العقود والأمانات.

الثاني: التزام المسلم بطاعة ربه عز وجل، والعمل بكل حكم من أحكامه.

أما العهد الأول: فالمراد به أن يكون المسلم أميناً في تصرفاته مع الناس: أميناً على أموالهم وعلى أعراضهم، وعلى أداء الأمانات إلى أهلها، وعلى الصدق في القول والعمل.

وأما العهد الثاني: فالمراد به: أن يتصف بالوفاء بعهد الله من الالتزام بعقيدة الإسلام وشريعته وأخلاقه، فيؤمن بأركان الإيمان: من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويلتزم بأركان الإسلام من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وبكل ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ.

ونظر إلى هؤلاء الذين لا يفون بعهد الله، ويخونون الأمانة، ويكذبون على الناس... فمهما أخذوا من متاع الدنيا، مقابل نكثهم بعهد الله وأيمانهم الكاذبة، فإذا هوزهم زهيداً، وضيئيلاً ضئيلاً أمام ما أعدَّ الله للغادرين والكاذبين.

---

(١) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ١ / ٦١٤، الطبعة الأولى، المكتب المصري الحديث، القاهرة.

ويضرب الدكتور محمد راتب النابلسي أمثلة لمن يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً

فيقول:

(... ويكفي أن تذمّ مؤمناً إرضاءً لمنافق، فقد اشترت بعهد الله وأيمانك ثمناً قليلاً، ويكفي أن لا تنصف مسلماً تتملق به جهة ما، فقد اشترت بعهد الله وأيمانك ثمناً قليلاً...)

وحينما تؤثر المال على كلمة الحق، وحينما تكون كلمة الحق صعبة عليك فتسكت، وحينما يكون النطق بالباطل تمهيداً لمصالحك فتنتطق بالباطل... وأي إنسان يحلف يميناً غموساً ليقطع به حق امرئ مسلم، فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً...<sup>(١)</sup>.

هؤلاء الذين هذه صفاتهم { لا خلاق لهم في الآخرة }، فليس لهم حظ ولا نصيب في ذلك النعيم المقيم الذي أعدّه الله لعباده الصالحين، فلا يلتفت الله إليهم، ولا يكلمهم بما يسرهم، وإذا كلمهم فيكلمهم بما يُجزئهم، ولا ينظر إليهم بعين رحمته، ولا يطهرهم من ذنوبهم بالمغفرة لهم، وتظل أعمالهم السيئة تلاحقهم. وهذا كله عذاب الموقف يوم القيامة قبل أن يساقوا إلى النار.

وحين يخبر القرآن الحكيم أن الله لا يكلم هؤلاء ولا ينظر إليهم، ولا يطهرهم من ذنوبهم، فإنّ هذا كله مقدمة لقوله تعالى: (ولهم عذاب أليم) ويكفي أن رسول الله ﷺ قال في هؤلاء:

---

(١) تفسير النابلسي ٢ / ١١٧ - ١١٨، الطبعة الأولى ١٤٣٧ - ٢٠١٦، مؤسسة دار الفرسان، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان.

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أُعطي بها أكثر مما أُعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقطع بها مال رجلٍ مسلم، ورجلٌ منعَ فضلَ مائه...»<sup>(١)</sup>.

ولقد جعل رسول الله ﷺ صاحب الكذب وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة ممن اتّصف بصفات النفاق فقال:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمنّ خان»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»<sup>(٣)</sup>.

ولا يظنّ أحدٌ أنّ ﴿الَّذِينَ يَشْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] حين يمثّلون أمام القضاء ويحكم لهم القاضي بأيمانهم الكاذبة أو بشهادة الزور أنّ ما يحصلون عليه من حرام يصير حلالاً لهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحنُ بحجته من بعض، فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»<sup>(٤)</sup>.

وكانت خاتمة الآية بياناً لمصير هؤلاء في العذاب الأليم بسبب شرائعهم بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً (ولهم عذاب أليم).

---

(١) رواه البخاري في كتاب المساقاة [باب من رأى أن صاحب الحوض أو القرية أحقّ بهائه]، حديث ٢٣٦٩، ص ٣٨١.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان [باب علامات النفاق]، حديث ٣٣، ص ٩.

(٣) رواه الطبراني في معجمه الأوسط، حديث ٢٦٠٦، ٢ / ٨٥ بتحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار الفكر، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان.

(٤) رواه البخاري في كتاب الشهادات [باب من أقام البيعة بعد اليمين]، حديث ٢٦٨٠، ص ٤٣٦.

## الشهداء أحياء

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾  
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا  
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا  
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس أيضاً قال:

قال رسول الله ﷺ: «لما أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ، جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ  
فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ  
فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ، قَالُوا: يَا لَيْتَ  
إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا؛ لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ،

(١) رواه الحاكم في كتابه المستدرک رقم ٣٤٥٧، ٢ / ٤١٩، وقال: هذا حديث صحيح على شرط

الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قال محقق كتاب الاستيعاب في بيان الأسباب: وهو كما

قالا. الاستيعاب في بيان الأسباب ١ / ٣٢٨.



فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه الإمام أحمد واللفظ له، حديث ٢٣٨٨، ٤ / ٢١٨، وصححه أحمد محمد شاكر: وأبو داؤد في كتاب الجهاد [باب في فضل الشهادة]، حديث ٢٥٢٠، ص ٤٤٣.

## حمزة بن عبد المطلب ﷺ

اسمه وكنيته:

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، يكنى بولديه (يعلى، وعمارة).

أمه: هالة بنت وهيب ابنة عمّ أمّانة بنت وهب أمّ النبي ﷺ.

أما لقبه: فهو أسدُ الله وأسدُ رسوله وسيد الشهداء، وهو عمّ رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتها (ثوية) مولاة أبي لهب قبل أن ترضعه (حليمة السعدية).

ولد قبل رسول الله ﷺ بعامين - وقيل بأربع - في بيت عزّ وشرف.

نشأته:

نشأ حمزة في مكة، وقد بزّ أترابه في الشجاعة، وأحسن إصابة الهدف بالرمي. ولما اشتدّ عوده صار يخرج إلى الوديان الفسيحة الرحبية والقمم؛ باحثاً عن صيد يصيده وقنصٍ يقتنصه، فإذا حلّ المساء عاد إلى مكة، حاملاً ما حصل عليه من صيده وقنصه، وقبل أن يذهب إلى منزله يتّجه إلى الكعبة الشريفة فيدخلها، وكانت تصرّفاته تنبئ عن سوءده، فصار واحداً من سادة قريش، وفي الوقت نفسه شجاعاً من أبرز الشجعان.

وقد جمع إلى شرف النسب شرف الإسلام والجهاد في سبيل الله، وكان في

الطليعة الذين خطبوا خديجة لرسول الله ﷺ.

## إسلامه:

لم يسلم حمزةٌ لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته، وكانت أذية أبي جهل للرسول الكريم سبباً في إسلامه. فبينما كان رسول الله ﷺ جالساً، رآه أبو جهل فأقبل عليه فشتمه وأذاه، ولم يردَّ عليه رسول الله ﷺ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان ترى وتسمع ما فعل أبو جهل برسول الله ﷺ وتتألم، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقبل حمزة متوشحاً قوسه، قد أقبل من الصيد والقنص، فأقبلت مولاة ابن جدعان نحو حمزة تقول له: (يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجدّه ههنا جالساً فأذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ)<sup>(١)</sup>.

ولما سمع حمزة ما سمع، أخذ الغضب منه مأخذه، فدخل المسجد، فوجد أبا جهل جالساً مع قومه - ومنهم بنو مخزوم - فضربه بالقوس فشجّه شجّة منكّرة، وقال: (أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ عليّ إن استطعت)؛ فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: (دعوا أبا عُمارة؛ فإنني والله قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً)<sup>(٢)</sup>. وقد كانت قريش تعرف رجولة حمزة، فوقع خبر إسلامه عليهم وقوع الصاعقة، أما رسول الله ﷺ فكانت فرحته بإسلام عمه حمزة غامرة، وكذلك فرحة المسلمين بإسلامه، وكان ذلك في السنة الثانية من البعثة النبوية بعد دخول النبي ﷺ دار الأرقم - وقيل في السنة السادسة من البعثة - ومنذ أن شاع خبر إسلامه في قريش كفوا بعض الشيء عن بعض الأذية التي كانوا يؤذون

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٩

(٢) المرجع السابق ١ / ٣٢٩.

بها رسول الله ﷺ.

ولما انتقلت الدعوة الإسلامية من طورها السري إلى طورها العلني، خرج المسلمون في صَفَيْن: فكان على رأس الصفِّ الأول حمزة، وعلى رأس الصف الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يتحدثون الشُّركَ وأهله، ويعلنون ظهور دعوة الإسلام.

### هجرته:

ولمَّا أذن الله لرسوله محمد ﷺ بالهجرة إلى المدينة، كان حمزة ممن هاجر إليها، ونزل على (أسعد بن زُرارة)، وهناك آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وقد كان حمزة يعلم أنَّ زيدا كان عبداً من العبيد، وهو مَنْ هو في المجد والمكانة العالية في قريش، ومع ذلك فلم يغضب، فقد انغرس الإيمان في قلبه، وعلم أن هذا الدين سوَّى بين السادة والعبيد، وأنه جعل المهاجرين والأنصار إخواناً، ووصف كلا الفريقين بالإيمان فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

### جهاده:

عُرِفَ حمزةُ بشجاعته الفائقة، فأرسله رسول الله ﷺ قائداً لأول سرية - كما ذهب إلى ذلك بعض كتاب السير - لمطاردة قافلة قريش وقتال مَنْ فيها، كان عدد السرية ثلاثين مجاهداً - وكلهم من المهاجرين - ليعترضوا عير قريش القادمة من الشام، وكان في القافلة أبو جهل بن هشام في ثلاثمئة رجل من قريش. كان حمزة

رضي الله عنه تتمثل فيه قمة الشجاعة، فلم تَحْرُ عَزِيمَتُهُ، ولم يضعف، ولم يُصبه الوهنُ، وقرّر أن يخوض غمار المعركة معهم مع ذلك التفاوت في العدد والعدة، لولا أن تدخل (مجدي بن عمر الجهني)، وكان حليفاً للفريقين فحجز بينهما فلم يقع قتال<sup>(١)</sup>.

### في غزوة بدر:

أبدى حمزة من البطولة الفائقة في غزوة بدر ما أذهل المشركين وجعلهم يتقلبون على جمر الغضب، وقبل أن تنشب المعركة، بنى المسلمون حوضاً ليشربوا منه الماء وعزّ على المشركين أن يستأثر المسلمون بهذا، فأراد (الأسود بن عبد الأسد) - وكان شرساً سيئ الخلق - أن يشرب منه، فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنَّ دونه، فتصدّى له حمزة، فلما التقيا ضربه ضربةً قطعت ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره، ثم حبا إلى الحوض فاتّبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

وفي هذه الغزوة أيضاً خرج ثلاثة من أبطال المشركين هم (شيبه بن ربيعة)، وأخوه (عتبة بن ربيعة) وولده (الوليد بن عتبة)، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا لهم: لا حاجة لنا بكم، يا محمد، أخرج لنا أكفأنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي». فبارز حمزة شيبه فقتله، وبارز عليّ الوليد فقتله، وتبادل عبيدة وعتبة ضربتين كل واحد منهما جرح صاحبه، ففكر حمزة وعلي على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا صاحبهما عبيدة بن الحارث إلى المعسكر.

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ٢ / ٢٠٧.

ولما انتهت المعركة بذلك الانتصار الباهر للمسلمين، فُقُتِلَ من أعداء الله من قُتِلَ وأُسِرَ من أُسِرَ، سأل بعض أسارى الكفار: مَنْ الرجل المُعَلِّمُ بريشة نعامه، قالوا: حمزة رضي الله عنه، قال: ذاك فعل بنا الأفاعيل<sup>(١)</sup>.

### في غزوة أحد:

وفي غزوة أحد قاتل حمزة قتالاً شديداً لا مثال له، فقتل (أرطاة بن شرحبيل) وكان حاملاً لراية المشركين، ثم قتل (سباع بن عبد العزى)، واستطاع حمزة في ذلك اليوم أن يقتل من المشركين واحداً وثلاثين نفساً<sup>(٢)</sup>.

### استشهاده:

تحدّث وحشيّ قاتل حمزة كيف قام بقتله فقال: (قال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمّي فأنت حرّ. قال: فلمّا أن خرج الناس عام (عَيْنين) - وعَيْنين جبل بحيال أحد بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع - بن عبد العزى - فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا بن أم أنهار مقطعة البظور، أتحدّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب - أي قتله - قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحرْبتي فأضعها في ثنّته - أي أسفل البطن إلى العانة - حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس

(١) أسد الغابة ٢ / ٥١.

(٢) ينظر: أسد الغابة ٢ / ٥١.

رجعت معهم...) (١).

هكذا استشهد حمزة، وكان ذلك في النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وعمره سبع وخمسون - وقيل تسع وخمسون - سنة (٢).

وقام المشركون بعد قتله بالتمثيل به، فجدعوا أنفه، وبقروا بطنه، وقطعوا مذاكيره.

### حزن رسول الله ﷺ عليه:

حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً على قتله، وزاد من حزنه حين علم بتمثيل المشركين به، فوقف عليه، فجعل ينظر إليه ويقول: «رحمك الله أي عم، لقد كنت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، فوالله لئن أظفرتني الله بالقوم، لأمثلنَّ بسبعين منهم، قال: فما برح حتى نزلت: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ...﴾ [النحل: ١٢٦]، فقال رسول الله ﷺ: بل نصبر، وكفر عن يمينه» (٣).

### كفنه:

قال ابن سعد: (وَكُفِّنَ حَمْزَةً فِي بَرْدَةٍ، فَجَعَلُوا إِذَا خَمَّرُوا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ قَدَمَاهُ، وَإِذَا خَمَّرُوا بِهَا رِجْلَيْهِ تَنَكَّشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: غَطُّوا وَجْهَهُ،

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي [باب: قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه]، حديث ٤٠٧٢، ص ٦٨٩.

(٢) أسد الغابة ٢ / ٥٢.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١ / ٤٢٦، وأسد الغابة ٢ / ٥١.

وجعل على رجله الحرمل<sup>(١)</sup>.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: (جاءت صفة يوم أحد ومعها ثوبان لحمزة، فلما رآها رسول الله ﷺ كره أن ترى حمزة على حاله، فبعث إليها الزبير يجسها وأخذ الثوبين، وكان إلى جنب حمزة قتيل من الأنصار: فكرهوا أن يتخيروا لحمزة، فقال: «أسهموا بينها»؛ فكفن حمزة في ثوب، والأنصاري في ثوب)<sup>(٢)</sup>.

### دفنه:

دُفن أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء في سفح جبل أُحد قرب المدينة المنورة، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في قبر، ودفن حمزة وعبد الله بن جحش (ابن أخته) في قبر واحد<sup>(٣)</sup>.

### لكن حمزة لا بواكي له:

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوجد نوائح الشهداء يبكين قتلاهن، ويسأل رسول الله ﷺ: «ما هذا؟» فيقال له: هنّ نساء الأنصار يبكين قتلاهن، فقال: «ولكن حمزة لا بواكي له»<sup>(٤)</sup>.

ويسمع سعد بن معاذ بما قاله الرسول الكريم، فيمشي إلى بني عبد الأشهل ويأتي بنسائهم، فوقفوا على باب رسول الله ﷺ وقال لهن: والله لا تبكين قتلى

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٣ / ٩، وكتاب المغازي للواقدي ١ / ٢٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ١٨٣.

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام ٣ / ١٠٨، وأسد الغابة: ٢ / ٥٣.

(٤) سيرة ابن هشام ٣ / ١١٠.



الأنصار حتى تبكين عمَّ النبي ﷺ، فإنه قد ذكر أنه لا بواكي له.

ولما سمع رسول الله ﷺ أصواتهنَّ قال: «ما هذا؟» فأخبر بها ففعلت الأنصار؛ فاستغفر لهن وقال: «ارجعنَ يرحمكُنَّ الله، فقد آسيتُنَّ بأنفسكن»<sup>(١)</sup>.

ونهى يومئذ عن النوح، ودعا للأنصار، فقال: «رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم ما عتمتْ لقديمة، مروهن فلينصرفن»<sup>(٢)</sup>.

### فضائله:

فضائل حمزة رضي الله عنه كثيرة، منها ما يأتي:

١- إن رسول الله ﷺ شهد له بأنه سيد الشهداء فقال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»<sup>(٣)</sup>.

٢- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان حمزة بن عبد المطلب، يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: أنا أسدُ الله<sup>(٤)</sup>.

٣- في حمزة وإخوانه من شهداء (غزوة أحد)، أنزل الله آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ١١٠.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ١ / ٤٢٦، ومغازي رسول الله ﷺ للواقدي ١ / ٢٧٠، بتحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، حديث ٤٨٨٤، ٣ / ٢١٥.

(٤) رواه الحاكم في مستدرکه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، حديث ٤٨٨٠، ٣ / ٢١٤.

## رثاء حمزة:

رثى حمزة عددٌ من الصحابة منهم: عبد الله بن رواحة: فقال:

بكت عيني وحُق لها بُكاها      وما يُغني البكاء ولا العويلُ  
على أسدِ الإله غداة قالوا:      أحمزة ذاكُم الرجل القتلُ  
أُصيب المسلمون به جميعاً      هناك وقد أُصيب به الرسولُ  
أبا يعلى لك الأركان هُدَّت      وأنت الماجدُ البرُّ الوصولُ  
عليك سلامُ ربك في جنانٍ      يُخالطها نعيم لا يزول<sup>(١)</sup>

## من كرامات الشهداء:

حَرَّمَ اللهُ تعالى على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء والشهداء وورثة الأنبياء.  
أما الشهداء، فهم الذين قاتلوا الكفار وكان قتلهم مشروعاً بنية خالصة لله؛  
لتكون كلمة الله هي العليا، وقد قُتلوا مُقبلين غير مُدبرين. فهو لاء يكرمهم الله  
فيجعلهم برفقة الأنبياء، ويحيون حياة خاصة عند ربهم (أحياء عند ربهم يرزقون)،  
فلا تأكل الميكروبات أجسادهم. فإذا كان الله عز وجل قد أكرم الشهداء من عامة  
الناس بهذا، فكيف بشهداء الصحابة الذين نصرُوا رسول الله ﷺ، بما يملكون  
وجاهدوا في سبيل الله حتى سقطوا شهداء؟ ومن هؤلاء الشهداء أصحاب الكرامة  
سيدنا حمزة رضي الله عنه فقد سقط شهيداً في معركة أحد. وبعد أكثر من أربعين  
سنة، دعا أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى تحويل شهداء أحد حين قرّر أن

(١) الاستيعاب ١، ٤٢٧، أسد الغابة ٢ / ٥٢.

يُجْرِي المَاءَ التي استنبطها من مقبرة شهداء أُحد، ولما جيء إلى قبر حمزة رضي الله عنه ليحفروه، فأصابته المسحاة قدم حمزة فانثعب دماً<sup>(١)</sup>.

مات حمزة وبقيت سيرته في نصره الإسلام التي تتعطر بها الدنيا.

\*\*\*

---

(١) ينظر الإصابة للعسقلاني ٢ / ٦٢٢، وأسد الغابة ٢ / ٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٣ / ٢٣٢،

بتحقيق: سيد إبراهيم، طبع سنة ١٤٢٨ - ٢٠٠٧، دار الحديث، القاهرة.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

صلة الآيات بما قبلها:

تحدثت الآيات السابقة هذه الآيات فيما كان يقوله المشركون؛ تشيظاً للمجاهدين عن الجهاد في سبيل الله، بتبيان عواقب الجهاد التي تؤول بصاحبها إلى الموت: كما حدث في غزوة أحد. ولما كانت النفوس البشرية قد طُبعت على حب الحياة وكراهية القتل، فقد أَرَدَفَ اللهُ ذلك بتبيان أن القتل يقع بقضاء الله وقدره، ومثله كمثل الموت: فمن قَدَّرَ اللهُ عليه القتل فإنه يقتل - ولو أخذ بكل سبب من أسباب السلامة - ومن كَتَبَ اللهُ له السلامة في الجهاد سَلِمَ - ولو أحاط به الأعداء من كل جانب -.

وجاءت هذه الآيات بعد ذلك، مبيِّنة ما يجب إلى النفوس الجهاد في سبيل الله؛ ذلك لأنَّ المقتولين في الجهاد ليسوا بأموات، بل أحياء عند ربهم يرزقون.

## التفسير<sup>(١)</sup>:

توجه الخطاب في الآيات لرسول الله ﷺ، والمراد به الناس كلهم في كل زمان وفي كل مكان ولو أن الآيات نزلت في شهداء أحد، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والآيات لون من ألوان تعزية الله لنبية محمد ﷺ عمّن قتل في غزوة أحد).

وفي هذا الخطاب أيضاً ردُّ على المنافقين من الكفار الذين لا يعتقدون بوجود يوم آخر يبعث الله فيه الناس ليجازيهم على ما قدّموا من عقيدة وعمل، كما أن فيه تأنيباً للمنافقين الذين قالوا - كما حكى القرآن - ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾\*؛ ذلك لأن للشهادة منزلة عظيمة عند الله، يفرح بها من ينالها ولا يحزن، فهي أجلُّ عمل يتنافس فيه المتنافسون. وتتضمّن الآيات عدداً من النعيم الذي يتنعم به الشهداء:

### ١ - إنهم أحياء (بل أحياء):

أثبت القرآن الحكيم الموت الظاهر للشهداء فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...﴾\* لكنه نفى عنهم الموت الحقيقي بقوله: ﴿بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾\* فهو لاء ولو كانت أجسادهم ميّنة فإن أرواحهم حيّة؛ لأنهم يتنعمون بكل ما يتنعم به الأحياء في الحياة الدنيا: فالفرح يغمرهم من كل جانب، والرزق يأتيهم من عند ربهم، وهم يفرحون بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بما سيصير إليه إخوانهم المجاهدون من نعيم مقيم... وهذه - كلها - مما يختص بها الأحياء.

(١) السنن الكونية واستعلاء الإيمان - للمؤلف، ص ٥٦ - ٦٠ بتصرف قليل.

إن حياة الشهداء حقيقة ثابتة نصَّ عليها القرآن الحكيم، وذكرها رسول الله ﷺ: فهم أحياء في عالم يختلف عن عالمنا الذي نعيش فيه، لذلك لا يجوز وصف الشهيد بالميت؛ لأنَّ الإنسان إذا مات انقطعت صلته بالحياة، وليس كذلك الشهيد؛ لأنه حيٌّ يستمتع برضوان الله وتكريمه، أما كُنْه حياة الشهداء، فهو من القضايا الغيبية التي نؤمن بها ولا نعرف حقيقتها.

## ٢- الشهداء عند ربهم: (بل أحياء عند ربهم):

إنهم في جوار الله وفي ضيافته، فهم (عند ربهم). والعندية هنا عنديَّة شرفٍ وليست عندية مكان. والمعنى: عند كرامة ربهم. ولفظ (عند) في الآية تقتضي غاية القرب، وقد قال رسول الله ﷺ:

«ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرُّها أنها ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها إلاَّ الشهيد [فإنه] يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا؛ لما يرى من فضل الشهادة»<sup>(١)</sup>.

## ٣- الشهداء يرزقون وينعمون في الجنة (بل أحياء عند ربهم يرزقون).

إذا كانت أجساد الشهداء قد دفنت في التراب، فإن أرواحهم تظلُّ حية تُنعم وترزق أفضل الرزق كما قال تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

وكما قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة [باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى]، حديث ٤٨٦٧، ص

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...»<sup>(١)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ:

«الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيًّا»<sup>(٢)</sup>.

والرزق الذي يرزقه الله للشهداء هو رزق خاص بهم، يتلاءم وحياة الأرواح، وأن اللفظ القرآني (بل أحياء) جاء مقدمة لقوله تعالى: (يرزقون)؛ ذلك لأن الذي يُرَزَق هو الحي لا الميت.

٤ - الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله (فرحين بما آتاهم الله من فضله):

إنهم مسرورون بتلك النعم؛ إذ هم في كرامة الله ورضوانه، وهذا الفرح لا يكدره مكدر، ولا ينغص عليه منغص؛ لأنه من فضل الله الذي لا ينفد... إنه السرور الذي ليس بعده سرور، وكيف لا يكون سرور الشهيد كذلك، وقد اختاره الله وفضله على غيره من الناس!

٥ - الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم: (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم).

والاستبشار: حصول البشارة فقد جمع الله في الآية هنا بين سرور الشهداء

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق [باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة]، حديث ٣٢٤٤،

ص ٥٤١، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها [باب صفة الجنة]، حديث ٧١٣٤.

(٢) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٣٩٠، ٤ / ٢٢٠.

بأنفسهم، وسرورهم بمن بقي من إخوانهم الذين لم تكتب لهم الشهادة وما زالوا على قيد الحياة، وهم يجاهدون أعداء الله، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة: تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلمهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب؛ فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم؛ فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١] (١).

٦ - لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

هؤلاء الشهداء يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الأحياء بأن لهم الأمن والأمان، وتلك نعمة عظيمة للشهداء؛ إذ يُنعمون برضوان الله، ولا يعرفون خوفاً ولا حزناً، وكيف يعرف الخوف والحزن من يعيش في جوار الله وفي كرامته ورضوانه مع النبيين والصديقين والصالحين؟!

والمأمل بالآيات الكريبات، يرى فيها الحث للمؤمنين على السير في طريق الجهاد؛ لعلّ فضيلة الشهادة تصيبهم؛ لذلك أكد استبشارهم بقوله:

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٣٨٨، ٤ / ٢١٨، وأبو داؤد في كتاب الجهاد [باب في فضل الشهادة]، حديث ٢٥٢٠، ص ٤٤٣.



﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل

عمران: ١٧١] <sup>(١)</sup>.

إن سرور الشهداء عظيم عظيم بما أنعم الله عليهم من أنواع الفضل، وما أعطاهم من الكرامة: فهم يُسَرُّون؛ لأن كل المجاهدين الذين لم تكتب لهم الشهادة سيوفهم الله أجورهم.

وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت في شهداء (غزوة أحد)، فإن هذه المنزلة يناها كل شهيد يقتل في سبيل الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

\*\*\*

---

(١) راعى القرآن الحكيم النظير في هذه الآية، وهو الجمع بين أمر وما يناسبه، ففي هذه الآية نجد المناسبة بين قوله تعالى: (فرحين) و(يستبشرون)، وبين (عدم الخوف) و(عدم الحزن)، وبين (النعمة) و(الفضل)، وهذه الفنون الرائعة التي أطلق عليها بعض العلماء اسم (التناسب والتوفيق).

# لكل نصيب

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا  
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اَكْتَسَبْنَ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا  
نصف الميراث؛ فأنزل الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ  
عَلَى بَعْضٍ...﴾ [النساء: ٣٢]»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن [باب: ومن سورة النساء]، حديث ٣٠٢٢، ص ٦٧٩،  
وأبو يعلى في مسنده "مسند أم سلمة" رقم ٦٩٢٣، ٦ / ١٠٠، والطبراني في "المعجم الكبير"  
حديث رقم ٦٠٩، ٢٣ / ٢٨٠، وغيرهم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، كما صححه أحمد  
محمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري برقم ٩٢٤١.

## أم سلمة رضي الله عنها

اسمها: هند بنت أبي أمية - واسم أبي أمية حذيفة وقيل: سهيل - بن المغيرة المخزومية القرشية، فهي أم المؤمنين، وسيّدة من سيّدات أهل بيت النبي الأطهار. كان أبوها من أجواد العرب، حتى لُقّب بـ (زاد الراكب)؛ لأنه إذا سافر وكان معه رفاق لا يقبل ممن يصحبه أن يحمل شيئاً من الزاد، فيحمل هو من الزاد ما يكفيه ويكفي رفاقه.

أما أمّها؛ فهي عاتكة بنت عامر بن ربيعة.

وأما زوجها؛ فهو ابن عمها (أبو سلمة بن عبد الأسد)<sup>(١)</sup>. عاشت أم سلمة مع زوجها في بحبوحة من العيش الرغيد، تغمرهما السعادة من كل جانب ولكن

---

(١) اسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي، ابن عمّة رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، أُرْضِعَتْهُ (ثوية) مولاة أبي لهب، وهو أصغر سنّاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة. أسلم بعد عشرة أنفس قبل أن يُسلم الأرقم بن أبي الأرقم. كان أوّل المهاجرين إلى المدينة، وأما مصعب بن عمير، فقد وصل المدينة ليقرئ الناس القرآن، ويعلمهم مبادئ شريعة الله. استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة لما خرج إلى (غزوة ذي العشيرة). وفي هلال شهر المحرم سنة أربع من الهجرة، جعله رسول الله ﷺ قائداً لسرية (قطن) من بني أسد، وتعداد السرية خمسون ومئة، ونجح في مهمّته، لكن جرحه الذي أصابه في غزوة أحد انتقض عليه؛ فمات لثان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة.

ولزيادة الاطلاع ينظر: قادة النبي ﷺ تأليف: اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٢٠٥ - ٢٢٠، الطبعة الثانية ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار القلم والدار الشامية.

سُرَّ عان ما تركت نعيمها المادّي، لتحصل على نعيم أكبر وسعادة أرغد، إنها السعادة الروحية التي لا تقاس بها سعادة أخرى: سعادة الإيـان بالله واليوم الآخر.

### إسلامها:

كانت رضي الله عنها من أوائل من انضوى تحت لواء الإسلام، ولعلها أسلمت بعد إسلام زوجها بفترة وجيزة.

### هجرتها الأولى إلى الحبشة:

لما اشتدّ أذى المشركين على من آمن بالله ورسوله، فصاروا يسومونهم سوء العذاب من أجل أن يتركوا دين التوحيد ويعودوا إلى عبادة الأصنام والأوثان<sup>(١)</sup>، فكان أبو سلمة أول مَنْ شَدَّ الرحال للهجرة إلى الحبشة، مصطحباً معه زوجته أم سلمة، وكان عدد المهاجرين أحدَ عشر رجلاً وأربع نسوة، وقد خرجوا مشاة إلى البحر، وهناك استأجروا سفينة بنصف دينار، وصورت أم سلمة الأحوال التي أحاطت بالهجرة فقالت:

(لما ضاقت علينا مكة، وأوذني أصحاب رسول الله ﷺ وفُتِنُوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وإن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنَّ بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»، فخرجنا إليها أرسالاً

---

(١) لزيادة الاطلاع على ما لاقاه المسلمون من تعذيب واضطهاد، ينظر كتابنا (من روائع القصص في تضحيات الصحابة).

حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمناً على ديننا ولم نخش منه ظملاً<sup>(١)</sup>.

### هجرتها الثانية إلى الحبشة:

وتمضي الأيام، وتعودُ أم سلمة بصحبة زوجها إلى مكة، بعد أن بلغهم أن أهل مكة أسلموا، ولما وصلوها وجدوا الأمر على خلاف ما بلغهم، فقد ظل المشركون على شركهم، بل ازداد أذاهم على من آمن بالله واليوم الآخر؛ فاضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية، فعادت أم سلمة بصحبة زوجها، ومعهم ثمانون رجلاً أو يزيد.

وتروي أم سلمة رضي الله عنها كيف نزلوا أرض الحبشة وعبدوا الله هناك من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وكيف عزّ على المشركين أن يدعّوهم وشأنهم؛ فأرسلوا إلى النجاشي رجلين هما: عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، ومعهما الهدايا الثمينة للنجاشي ولبطارقتة؛ مؤمّلين أن يُعيدهم النجاشي إلى مكة؛ ليفتنوهم عن دينهم، وكانا حريصين أن يتمّ ذلك من غير أن يكلم النجاشي المسلمين ويسمع منهم فقالا له:

(أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك

---

(١) سيرة ابن إسحاق تأليف: محمد بن إسحاق بن يسار ص ١٩٤، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله تقديم محمد الفاسي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، وينظر أيضاً: سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف ناصر الدين الألباني ٧ / ٥٧٧، الطبعة الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، مكتبة المعارف، الرياض.

فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم...<sup>(١)</sup>.

لكن النجاشي كان رجلاً عاقلاً وعادلاً، فليس من العدل أن يُسلّمهم لهم من غير أن يسمع كلامهم. لذلك طلب إحضارهم فحضروا، وسألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

وتحدث عن المسلمين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال:

(أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلّة الرحم...، فدعا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا... فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك!)<sup>(٢)</sup>.

لقد اطمأن النجاشي إلى أن المسلمين قوم مظلومون، فأمر بردّ الهدايا إليهما! وهكذا خيّب الله مؤامرة المشركين، فعادا إلى مكة مقبوحين خزايا، وعاش المسلمون في الحبشة، في أمن وأمان لا ينغص عليهم منغص.

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٣ - ٣٧٤.

## هجرتها إلى المدينة:

ويمضي الزمان ويعود أبو سلمة مرة أخرى إلى مكة، ويشتدُّ العذابُ على من آمن بالله ورسوله، فيقرر أن يهاجر إلى المدينة المنورة التي كانت تسمى يثرب، بعد أن علم أن قسماً من أهلها آمنوا بالله تعالى الإيذان الحق، فكان هو أول المهاجرين إليها.

وقد يقول قائل: ألم يكن (مصعب بن عمير) و(ابن أم مكتوم) قد سبقاه بالهجرة إلى المدينة؟

والجواب: أن مهمّة مصعب وابن أم مكتوم هي تعليم الناس تلاوة القرآن وشرح المبادئ العامة للإسلام، وذلك قبل أن يأذن رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وقد قالت أم سلمة رضي الله عنها: إنَّ أبا سلمة أول بيتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وتحدثت عن هجرتها إلى المدينة فذكرت أنَّ أبا سلمة لما أراد الهجرة إلى المدينة قام إليه بنو المغيرة (أهل أم سلمة) ومنعوه من أخذ زوجته معه، وقالوا له - فيما قالوا -: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه (أم سلمة) علام نتركك تسيرُ بها في البلاد؟ وأخذها أهلها عنوة، وغضب قوم أبي سلمة وأرادوا أخذ (سلمة) فتجاذبوا الولدَ بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق أبو سلمة إلى المدينة، ففرَّقوا بينها وبين ابنها وبين زوجها، فكانت تبكي وتبكي على ما حلَّ بها، حتى رَقَّ لها رجل من بني عمِّها؛ فأذنوا لها أن تلحق بزوجها، وردَّ بنو عبد

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز [باب: ما يقال عند المصيبة]، حديث ٢١٢٦، ص ٣٦٩.

الأسد ولدَها سلمة إليها<sup>(١)</sup>، ولكن كيف هاجرت إلى المدينة؟ قالت رضي الله عنها تحكي قصة هجرتها:

(فارتحلْتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعتَه في حجري، ثم خرجتُ أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار؛ فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معي أحدٌ إلا الله وبُنيّ هذا؟ فقال: والله ما لك من مترك؛ فأخذَ بخظام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرمَ منه... حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية (بني عمرو بن عوف) بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فأدخِلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكّة...<sup>(٢)</sup>).

ويعلق الدكتور محمد أبو شهبه على هذا النبل وهذه الغيرة والشهامة فيقول: (وإن لنا هنا لوقفه عند قصة عثمان هذا، فقد كان يومئذ كافرًا؛ لأنه لم يسلم إلا أوائل عام الفتح، وهي تشهد - لما ذكرته - من نفاسة معدن العرب وفضائلهم في الجاهلية، ولا سيما خلق المروءة والنجدة وحماية الضعيف، فقد أبت عليه مروءته وخُلُقُه العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش...!!)

(١) ينظر نص حديث أم سلمة في البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٧٩ - ١٨٠، وسيرة ابن هشام ٢ / ٨٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٨٠، وسيرة ابن هشام ٢ / ٨٢ - ٨٣.



إن هذه القصة - ولها مُثل ونظائر - لتشهد لما قلته حينما تحدثتُ عن العرب من أن رصيدهم في الفضائل كان أكثر من مثالبهم وذرائلهم، فمن ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة<sup>(١)</sup>.

### وفاة زوجها أبي سلمة في المدينة:

قاتل أبو سلمة قتال الأبطال في (غزوة بدر)، ولما وقعت (غزوة أحد) كان أحد أبطالها ولقن المشركين فيها دروساً قاسية، لكنه أصيب بعضده إصابة شديدة، وظلَّ يضمّد جراحه شهراً. وبعد ذلك جعله رسول الله ﷺ قائداً لسرية إلى (قطن) من أرض بني أسد، تعدادها خمسون ومئة بعد أن علم رسول الله ﷺ أن بني أسد تريد الإغارة على المدينة؛ فأراد رسول الله أن يشتت جمعهم كي لا يفكروا بمهاجمة المدينة. ونجح أبو سلمة في مهمته، وعاد سالماً غانماً، لكنَّ جرحه قد انتقض عليه، فمات في السنة الرابعة من الهجرة، ولم يخلّف ديناراً ولا درهماً، لكنه ترك ذلك الذكر الحسن الذي تتغنّى به أجيال المسلمين في جهاده في سبيل الله؛ لنشر دعوة الإسلام.

### زواجها من رسول الله ﷺ:

كانت علاقة أمّ سلمة بزوجها أبي سلمة بن عبد الأسد علاقة حب وودّ، فلما مات حزنت عليه حزناً شديداً، فكانت وفيّة له في حياته وبعد مماته، كانت تنظر إليه بعين العظمة، فما تظنّ أن أحداً يعدله في سبائه الطيبة وسيرته العطرة، وقد علمت أن رسول الله ﷺ دعا إلى الصبر عند المصيبة فقال:

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة النبوية تأليف الدكتور محمد بن محمد أبو شهبه ١ / ٤٦١، الطبعة العاشرة ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار القلم، دمشق.

«ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبتيه وأخلف له خيراً منها»<sup>(١)</sup>.

لقد كانت تؤمن بكل ما قاله ويقوله رسول الله ﷺ، فصبرت واسترجعت، ودعت الله تعالى بما قاله رسول الله ﷺ، لكنها كانت تقول في نفسها: من أين لي خير من أبي سلمة؟ ولندع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يروي حديث زوجها من رسول الله ﷺ فيروي قولها:

(... فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي؛ فغسلت يدي من القَرظ وأذنت له، فوضعتُ له وسادة آدم حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا تكون بك الرغبة فيّ، ولكنني امرأة فيّ غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة، فسوف يذهبها الله عز وجل منك، وأما ما ذكرت من السنّ، فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال، فإنما عيالك عيالي»، قالت: فقد سلّمت لرسول الله ﷺ؛ فتزوَّجها رسول الله ﷺ؛ فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

فحين نتأمل بزواج رسول الله ﷺ من أم سلمة، لم نره غير جبر لخاطرها، وحفظاً لها ولأولادها... كما أنه جانب مهمّ من جوانب الوفاء لزوجها الذي تحمّل الأذى الكثير من المشركين، وجاهد في سبيل الله حتى لقي الله عز وجل.

(١) واه مسلم في كتاب الجنائز [باب ما يُقال عند المصيبة]، حديث ٢١٢٧، ص ٣٧٠.

(٢) رواه الإمام أحمد، حديث ١٦٣٤٤، ٢٦ / ٢٦٢ - ٢٦٣.

## العامة الراوية:

كانت أم سلمة راويةً للأحاديث التي سمعتها من رسول الله ﷺ مباشرة، فكانت تسأله عن أمور مهمة تتعلق بفقهِ العبادات وغيره، حتى صارت فيما بعد فقيهة يسألها الصحابة والتابعون عما يتعلق بفقهِ المرأة المسلمة، ومن حرصها على العلم أنها كانت تروي بالوساطة أيضاً: فروت عن زوجها أبي سلمة وعن السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

أما الذين رَووا عنها، فكانوا كثرةً كثرةً منهم ولداها، عمر وزينب، وأخوها عامر، وابن أخيها مصعب بن عبد الله وغيرهم، وروى عنها من كبار التابعين: سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وأبو عثمان النهدي وغيرهم.

أما مروياتها، فقد بلغت ثمانية وسبعين حديثاً وثلاثمئة<sup>(١)</sup> (٣٧٨)، اتفق البخاري ومسلم لها على ثلاثة عشر حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثلاثة عشر<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي روتها: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض؛ فأحسب أنه صادق؛ فأقضي له، فمن قضيتُ له بحق مسلم، فإنها هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها»<sup>(٣)</sup>.

(١) أسماء الصحابة الرواة ص ٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢ / ٢١٠.

(٣) رواه مسلم في كتاب الأفضية [باب بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن]، حديث ٤٤٧٥، ص

قالت أم سلمة: دخل عليّ رسول الله ﷺ وهو ساهم الوجه، قالت: فحسبتُ ذلك من وجع؛ فقلت: يا رسول الله، أراك ساهمَ الوجه، أفمن وجع؟ قال: «لا، ولكنّ الدنانير السبعة التي أُتينا بها أمس، أمسينا ولم ننفقها، نسيئُها في خصم الفراش»<sup>(١)</sup>.

وروت عن رسول الله ﷺ قالت: سمعته يقول: «أيُّ امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة»<sup>(٢)</sup>.

### صاحبة الرأي الراجح والعقل السديد:

وقد عُرِفَت رضي الله عنها بالرأي الراجح والعقل السديد، «ومن ذلك ما أشارت به إلى رسول الله ﷺ في (غزوة الحديبية) بعد أن فرغ من العقد بينه وبين المشركين، وقد رأى أكثر الصحابة أنّ في هذا العقد إجحافاً للمسلمين، فلما قال لهم رسول الله ﷺ: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أمّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أمّ سلمة: يا نبيّ الله، أتحبُّ ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك؛ فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحرَ بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يخلقُ بعضاً...»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٦٦٧٢، ٤٤ / ٢٧٢.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح [باب: حق الزوج على المرأة]، حديث ١٨٥٤، ص ٢٦٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الشروط [باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط]، حديث ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، ص ٤٤٧.

## فضائلها:

فضائل أم سلمة رضي الله عنها كثيرة، منها: أن جبريل عليه السلام أتى نبي الله ﷺ وعنده أم سلمة قال: فجعل يتحدث ثم قام؛ فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» - أو كما قال - قالت: هذا دحية الكلبي. قال: فقالت أم سلمة: ايم الله! ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر خبرنا<sup>(١)</sup>. وهذه منقبة لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

ومن فضائلها أن الوحي نزل في بيتها فقالت: في بيتي نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فأرسل رسول الله إلى فاطمة وعلي وحسن وحسين فقال: «اللهم أهلي»؛ فقلت يا رسول الله: أنا من أهل البيت؟ قال: «إن شاء الله»<sup>(٢)</sup>.

ومن فضائلها: جودها وكرمها، فما كانت ترد سائلاً ولا سائلة: فقد حدث أن كانت عندها جارية تسمى أم الحسين، فأتى مساكين فجعلوا يلحون، وفيهم

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة [باب من فضائل أم سلمة - أم المؤمنين - رضي الله عنها]، حديث ٦٣١٥، ص ١٠٧٩.

(٢) رواه الطبراني في معجمه الكبير، حديث ٦٢٧، ٢٣ / ٢٨٦، وأسد الغابة ٤ / ٤٥٥. وهذه الآية مع ما قبلها وما بعدها، فيها من الأوامر والنواهي لأزواج رسول الله أمهات المؤمنين من الآية ٢٨ من سورة الأحزاب إلى الآية ٣٤ من السورة نفسها، وسياق الآيات واضح في هذا، قال تعالى: ﴿يُنْسَأُ النَّبِيُّ لَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣٣) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٣].

نساء، فقالت تلك الجارية: اخرجوا أو - اخرجن - فقالت أم سلمة: ما بهذا أمرنا يا جارية! رُدِّي كل واحد - أو واحدة - ولو بتمرّة تضعيها في يدها<sup>(١)</sup>.

### وفاتها:

وبعد تلك الحياة الحافلة بالدعوة إلى الله عز وجل، جاءها الأمر الذي لا مردّ له... جاءها الموت؛ فانتقلت إلى جوار ربها سنة إحدى وستين وقال الواقدي: سنة تسع وستين؛ فكانت آخر من مات من أمّهات المؤمنين، وعاشت نحواً من تسعين سنة كما قال الذهبي<sup>(٢)</sup>، وصلى عليها أبو هريرة، وقيل: بل صلى عليها سعيد بن زيد<sup>(٣)</sup>، ودُفنت بالبقيع.

رضي الله عن أم المؤمنين أم سلمة<sup>(٤)</sup>!.

\*\*\*

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ٤٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٠١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٠٢.

(٤) الاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ٤٧٣.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنَّمَوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا  
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

مقدمة:

تتحدث الآية الكريمة في تربية النفوس وتهذيبها؛ لئلا تُبتلى بالآفات التي  
تُنغص على الناس حياتهم. والتمني الذي يؤدي إلى الحسد على ما أعطى الله  
الناس بعضاً من خير دنيوي من أعظم الآفات النفسية خطراً على الحاسد وعلى  
المجتمع معاً، وكثيراً ما يكون الباعث على الخلافات بين الناس ذلك الحسد  
المذموم. فلماذا الحسد، والله عز وجل هو الذي قدر الأرزاق بين الناس، وأعطى  
لهم الملكات والمواهب، وجعل الناس أغنياء وفقراء؛ ليتعاونوا فيما بينهم فتستقيم  
الحياة. وقد أنكر الله تعالى على المشركين حين بعث محمداً ﷺ ولم يبعث كبيراً من  
كبراء أهل الجاهلية، فقال تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا  
بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا  
يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وحين نتأمل بآيات القرآن، نرى أن الله عز وجل أراد أن يُقيم بناء  
الأسرة على تنظيم يحفظ توازنها، وبناءها على أسس ثابتة راسخة قائمة على  
أصول صحيحة من العدل... فجاء النهي من رب العالمين لعباده أن تتمنى

النساء ما خصَّ الله به الرجال من فضل، وأنَّ يتمنَّى الرجال ما خصَّ الله به النساء!  
النساء!

ولقد ضلَّت المجتمعات الغربية ضلالاً بعيداً حين ازورَّت عن صراطه المستقيم ونهجه القويم، فلم تنظر نظرة واقعيَّة بتأمُّل إلى خصائص كل من الرجل والمرأة؛ فأرادت تلك المجتمعات أن تُزيل الفروق بين الجنسين، فتساوى المرأة والرجل في كل شيء، من غير أن تنظر إلى الخصائص النفسية والجسمية... لكلِّ واحدٍ منهما، فقد خلق الله تعالى المرأة لتكون زوجة وأماً، ورُكِّبت فيها العاطفة المرهفة التي لا يملكها الرجل. وأما الرجل، فقد خصه الله بقوة الجسد، والقوة النفسية، والقوة العقلية التي تتناسب مع كسب الرزق، وقد قام المجتمع على الرقة التي خلقت عليها المرأة، والقوة الجسدية والنفسية والعقلية التي خلقت عليها الرجل.

### صلة الآية بما قبلها:

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية في نهي الله تعالى عن أكل المال بالباطل، وعن قتل النفس بغير حق؛ وذلك من أجل أن يعيش الناس في أمن وأمان، فيكون المجتمع طاهراً من المعاصي، نظيفاً من الظلم... وجاء نهي الله - بعد ذلك - عما يؤدي إلى الطمع في أموال الناس، والتمني لها والحسد عليها، فجاء النهي عن السبب المحرِّض على أكل المال بالباطل والقتل: وهو تمني ما فضَّل الله به بعض الناس على بعض؛ ليتخلَّص المسلم من الحسد الذي يؤدي إلى أكل المال ظلماً، ويؤدي إلى القتل أيضاً.



## التفسير:

التمني: ما يجب الإنسان على جهة الاستمتاع به: وهو أن يطلب أمراً مستحيلاً، أو أمراً لم تجر به العادة، بخلاف الترجي، فإنه طلب شيء يمكن حصوله.

والتمني قسمان: الأول: قسم نهى الله ورسوله عنه، ويأتي بمعنى الطمع بما في أيدي الناس، والحسد على ما أعطاه الله لقسم منهم: من مال وجاه وغير ذلك، مما يتنافس فيه الناس.

وأول درجات التمني: حبُّ الشيء فيتمناه، ثم يحرص على تحصيله والافتتان به، وفي هذا ما فيه من ضرر كبير وخطر جسيم على الإنسان، فيجعل نفسه في شقاوة، ويفسد عليه سلوكه ونهجه وخلقَه ودينه، ويترك في النفس الحسرات والزفرات، ويبعث على القلق، وقد يؤدي إلى الحقد على ناس فضَّلهم الله على غيرهم بما شاء من فضل، وليس لهم ذنب سوى ذلك! وقد يؤدي ذلك إلى الطامة الكبرى: إلى سوء الظنِّ بالله تعالى! والافتتانُ بالتمني - قبل ذلك وبعده - يجعل صاحبه يسلك سبيل الخيل لتحصيل ما يتمناه، وقد كان أول ذنب ارتكبه إبليس لعنه الله لما حسد آدم عليه السلام، وكان الحسد سببَ أول جريمة وقعت في الدنيا: حسد أحدُ بني آدم أخاه فقتله!

ولقد حذر الحسن البصري رحمه الله من هذا التمني الذي لو حصل، فقد يكون سبباً في هلاك المتمني نفسه، فقال: (تمني مال فلان ومال فلان، وما

يدريك لعل هلاكه يكون في ذلك)<sup>(١)</sup>.

ونتأمل بالآية الكريمة فتراها تعالج ما يعتمل في نفوس كثير من الناس، فهم يتمنون أن يكون لهم من المال واجاه مثل ما عند فلان وفلان. ولو تأمل هؤلاء بحقيقة الرزق الذي قسمه الله بين العباد لرضوا بما قسم الله لهم؛ لأن مصلحتهم لا تكون إلا في ذلك، ولو كان الأمر على خلاف هذا لأصابهم ما أصابهم من الضرر. وكل من يتأمل بحقيقة الواقع الذي يعايشه الناس، يتبين له أن هذا التفاوت في الرزق بين الناس هو من أعظم النعم على عباده لتستقيم الحياة، فهي لا تستقيم إلا بهذا التفاوت فيما بين الناس، وصدق الله العظيم القائل:

﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

هذا هو القسم الأول من التمني الذي نهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

وأما القسم الثاني من التمني، فهو الذي مدحه القرآن الحكيم، ودعا إليه رسول الله ﷺ، كإنفاق المال الحلال في الخير، والقتل في سبيل الله، فقد تمنى رسول الله ﷺ أن يقتل في سبيل الله، ثم يحييه الله فيقتل، ثم يحييه الله فيقتل فقال

(١) تفسير الطبري - تقريب وتهذيب - هذبته وقرّبه وخدمه الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي / ٢ / ٥٨٠، الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٧، دار القلم دمشق، والدار الشامية - بيروت.

عليه الصلاة والسلام:

«والذي نفسي بيده، ودِدْتُ أني أُقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيأ، ثم أُقتل، ثم أحيأ، ثم أُقتل، ثم أحيأ، ثم أُقتل، ثم أحيأ...»<sup>(١)</sup>.

هكذا تمنى رسول الله ﷺ، أن يُقتل ثم يحيا. مع أن الله عز وجل قضى بأن الإنسان إذا مات فلا يعود للحياة مرة أخرى. وقال ﷺ:

«لو كان عندي أحد ذهباً لأحببت أن لا يأتي عليّ ثلاثٌ وعندي منه دينار ليس شيء أرصده في دينٍ عليّ أجد من يقبله»<sup>(٢)</sup>.

ومن التمني المشروع: ما يسمى بحسد الغبطة حيث يتمنى الإنسان أن يكون له مثل ما لغيره من مال أو جاه وغير ذلك، مع بقاء النعمة على ذلك الرجل، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»<sup>(٣)</sup>.

ومن التمني المشروع أن يكون الرجل فقيراً لا مال له، وينظر إلى من آتاه الله المال الكثير، فهو ينفق في سبيل الله؛ فيتمنى ذلك الفقير أن يكون له مثل ما لذلك الغني من المال؛ لينفق في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التمني [باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة]، حديث ٧٢٢٧، ص ١٢٤٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب التمني [باب تمنى الخير، وقول النبي ﷺ «لو كان لي أحد ذهباً»]، حديث ٧٢٢٨، ص ١٢٤٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأحكام [باب أجر من قضى بالحكمة]، حديث ٧١٤١، ص ١٢٢٩.

«مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يَنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُوَثِّرْهُ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا عَمَلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهَا فِي الْأَجْرِ سِوَاءٍ»<sup>(١)</sup>.

ويأتي قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ ليشير إلى أن الله تعالى خلق الناس وأعطى لكل من الذكر والأنثى القدرة على العمل الملائم لكل منهما، فالإنسان يعمل في هذه الحياة، ويبذل ما يبذل من جهد على وفق سنن الله التي لا تتغير، والله عز وجل هو الرازق، بيده خزائن كل شيء، وقد دعا الناس إلى العمل.

فليس صواباً أن يجلس الإنسان في بيته من غير أن يعمل أي عمل كان، ومن غير أن يجتهد، زاعماً أن ما قسم الله له سيئاته، بل عليه أن يأخذ من العمل ما يناسبه؛ لأنه لا يعلم ما قدر الله له من رزق. وليس صواباً أيضاً أن ينحرف الإنسان عن النهج المستقيم، فيتمنى المقلُّ زوالَ نعمةٍ من أنعم الله عليه، بل عليه أن يتوجه إلى العمل على وفق السنة الكونية، ويسأل الله تعالى وحده من فضله؛ فإن خزائن الله لا تنقص ولا تنفذ، فإن الخير والكرم والجود والعطاء كل ذلك بيديه وهو قادر قادر، وغيره عاجز عاجز.

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فما أوسع فضل الله! والله تعالى قَسَمَ رِزْقَ الْعِبَادِ عَلَى وَفْقِ عِلْمِهِ: فَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَصْلِحُ حَيَاةَ النَّاسِ. فَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا الرِّضَا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، حديث ١٨٠٢٤، ٢٩ / ٥٥٢، قال محققه: حديث حسن، وابن

ماجه في كتاب الزهد (باب النية)، حديث ٤٢٢٨، ص ٦١٦.

بما قسمه الله له بعد أخذه بالأسباب، وقد قال الله تعالى:

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وفي هذا دعوة من الله تعالى لعباده أَنْ يسألوه من فضله ليعطيهم، فإنه هو الجواد الكريم، يؤتي السائلين سُؤلهم وهو الغنيّ الكريم، وقد قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله؛ فإن الله عز وجل يحب أن يُسأل، وأفضلُ العبادة انتظار الفرج»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «مَنْ لَا يَسْأَلُهُ يَغْضَبُ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup> أي من لا يسأل الله، يغضب عليه، وفي هذا المعنى ما قاله أحد الشعراء:

لا تسألن بنيَّ آدمَ حاجةً      وسلِ الذي أبوابه لا تُحجبُ  
الله يغضبُ إن تركتَ سؤاله      وبنيَّ آدمَ حين يُسألُ يغضبُ

وكانت خاتمة الآية تبياناً لعلم الله الواسع بكل شيء، فهو الذي خلق الإنسان ويعلم المنهج الذي يصلحه... وأنه تعالى عليم بما يستحقه الرجال دون النساء، وعلیم بما تستحقه النساء دون الرجال، فيعطي كل واحد منهم ما يناسبه، وهو الذي قسم الأرزاق بين العباد على وفق علمه، فجعل في الناس فقراء وأغنياء ليتبادلوا المنافع:

﴿ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات [باب انتظار الفرج وغير ذلك]، حديث ٣٥٧١.

(٢) رواه الإمام أحمد، حديث ٩٧٠١، ١٥ / ٤٣٨، والبخاري في "الأدب المفرد"، حديث ٦٥٨،

## مفهوم الطاعة والحكم عند التنازع

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾  
[النساء: ٥٩].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ [النساء: ٥٩]، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية<sup>(١)</sup>.

قال ابن جريج: نزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي، بعثه النبي ﷺ في سرية، أخبرني يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس<sup>(٢)</sup>.

وعن علي ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمّر عليهم رجلاً من الأنصار،

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير [باب: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم]، حديث

٤٥٨٤، ص ٧٨٣، قال ابن كثير: أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه. تفسير ابن كثير ٣ / ١٤٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة [باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية]، حديث ٤٧٤٦،

ص ٨٢٤.

وأمرهم أن يُطيعوا، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تُطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: قد عزمتُ عليكم لما جمعتم حطباً، وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها؛ فجمعوا حطباً، فأوقدوا ناراً، فلما همّوا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ حمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: (فقول ابن عباس: نزلت في عبد الله بن حذافة، يحتمل أنه أراد نزلت حين تعيينه أميراً على السرية، وإن الأمر الذي فيها هو الذي أوجب تردد أهل السرية في الدخول في النار، ويحتمل أنها نزلت بعدما بلغ خبرهم رسول الله؛ فيكون المقصود منها هو قوله: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ٥٩] إلخ، ويكون ابتداءها بالأمر بالطاعة لثلاثين أن ما فعله ذلك الأمير يبطل الأمر بالطاعة)<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام [باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية]، حديث ٧١٤٥، ص ١٢٢٩، ومسلم في كتاب الإمامة [باب وجوب طاعة الأئمة من غير معصية وتحريمها في المعصية]، حديث ٤٧٦٦، ص ٨٢٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير تأليف: الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٤ / ١٦٩، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ، بيروت.

## عبد الله بن حذافة رضي الله عنه

اسمه ونسبه:

نحن الآن في صحبة سيرة عظيم من عظماء الصحابة، كان داعية من دعاة الإسلام، ومجاهداً من أقوى المجاهدين صلابة في الحروب، وقد أدهش القارئ لسيرته برباطة جأشه وقوة نفسه في مواقف تخور فيها عزائم كثير من الأبطال؛ لذلك اختاره رسول الله ﷺ سفيراً له في سفارة من أعظم السفارات؛ ليؤدي رسالة رسول الله ﷺ إلى ملك من أعظم ملوك الدنيا - آنذاك - عُرف بقسوته وبطشه، وما كان الرسول الكريم ليختار في سفارته إلا من اتّصف بتلك الصفات العاليات وغيرها من الصفات الحميدة.

أَعْرِفَتَ - أَخِي الْقَارِئُ - مَنْ هَذَا الصَّحَابِيُّ؟

إنه عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي القرشي السهمي، كان يُكنى بأبي حذافة، أو - بأبي حذيفة - وأمّه: تميمية بنت حُرثان. نشأ في مكة وفيها ترعرع، صحب رسول الله ﷺ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه (قيس بن حذافة)، وهو أخو (خنيس بن حذافة) زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ (١)، وتصير أمّاً للمؤمنين.

(١) أسد الغابة ٢ / ٥٧٧.



## إسلامه:

لما أرسل الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً إلى العالمين بهذا الدين، كان عبد الله من أوائل من انضوى تحت لوائه: فهو من السابقين الأولين كما قال العسقلاني<sup>(١)</sup>.

ولما اشتدّ أذى المشركين على المؤمنين الصادقين، كان ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه (قيس بن حذافة)، وبقي فيها مدة من الزمن، ثم عاد إلى مكة ليكون مصاحباً لرسول الله ﷺ، يتحمّل الأذى بعد الأذى وهو صابر محتسب، ولما أذن رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة كان ممن هاجر إليها، وهناك في المدينة أكثرَ المسلمون من أسألتهم للرسول الكريم؛ ويتوجّه عبد الله بسؤال لرسول الله ﷺ لم يسأله أحد غيره: فروى الإمامان البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس، فصلّى الظهر، فلما سلّم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أموراً عظيماً، ثم قال: «من أحبّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا» فقام عبد الله بن حذافة فقال: مَنْ أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوك حذافة»<sup>(٢)</sup>.

ويصلي ابن حذافة يوماً فيجهر بصلاته، فيسمعه رسول الله ﷺ فيقول له: «ناج ربك بقراءتك يا بن حذافة، ولا تُسمّعني وأسمع ربك»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ٦ / ٩٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، [باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه] حديث ٧٢٩٤، ص ١٢٥٤ - ١٢٥٥، ومسلم في كتاب الفضائل [باب توقيره ﷺ] وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له، حديث ٦١٢١، ص ١٠٣٧.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٣ / ٢٦.

## سفير رسول الله ﷺ إلى كسرى:

أرسله رسول الله ﷺ في السنة السادسة من الهجرة برسالة إلى أعظم ملوك الدنيا - آنذاك - كسرى، يدعوها فيها إلى الدخول في الإسلام. ويأخذ عبد الله رسالة رسول الله ﷺ ويغذُّ السير إلى بلاد فارس، فلما دخل عليه بأبته وأبته إيوانه الذي جلس فيه، وقد زُين، وحضر ذلك المجلس عطاء الفرس... دخل عليه وهامته مرفوعة عالية، تتمثل به عزة المؤمن، فلم ترعه تلك المناظر، ولم يلتفت إلى شيء من تلك البهارج، وتقدم ليسلم الرسالة بيد كسرى كما أوصاه رسول الله ﷺ، لكن كسرى أمر أن يأخذ الرسالة بعض أفراد حاشيته ليسلمها له، ويأبى عبد الله بن حذافة أن يسلمها لغير كسرى قائلاً: إنما أمرني رسول الله ﷺ أن أدفعها لك يداً بيد، وأنا لا أخالف أمراً لرسول الله ﷺ، ويأذن له كسرى أن يسلمها بيده: فأقبل يدنو إليه حتى ناوله الرسالة بيده. ولننظر ماذا فعل كسرى برسالة رسول الله ﷺ؟

إنه ما إن بدأ الترجمان يقرأ له بداية الرسالة وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى»، فلم يجاوز المترجم ترجمة هذا النص حتى أخذ الغضب منه مأخذه، فغلا الدم في عروقه، واحمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، وأخذ بتمزيق رسالة رسول الله ﷺ، ثم أمر بعبد الله أن يخرج عنه فخرج. وبعد أن سكن غضبه طلب صاحب رسول الله ﷺ فبحثوا عنه فلم يجدوه، فقد أدَّى الرسالة كما أمره رسول الله ﷺ، وما عليه إلا أن يعود إليه ليخبره الخبر، ولما مثل بين يدي رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، ما زاد رسول الله ﷺ على أن قال: «مزق الله ملكه». واستجاب الله دعاء رسوله، فمزق

الله ملكه، فقد انقلب عليه ولده (شيرويه) فقتله أولاً، وتمزق ملك فارس ثانياً في خلافة فاروق الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أيدي المسلمين.

### عبد الله بن حذافة في الأسر:

أما لقاءه لقيصر الروم، فقد كان في السنة التاسعة عشرة من الهجرة. ولم يذهب سفيراً في هذه المرة كما ذهب في سفارته إلى كسرى، بل التقاه من غير أن يخطط للقياه، وكأن الله تعالى أراد أن يُري قيصر الروم كيف ربّى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، على الثبات على الإسلام. فقد أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً لحرب الروم، وكان فيه عبد الله بن حذافة رضي الله عنه، وما إن انتهت المعارك حتى كان ابن حذافة وعدد من المجاهدين قد وقعوا بالأسر، وأراد القيصر أن يلتقي واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن أوقعهم الحظ العاثر بالأسر، فكان تقدير الله أن يقع الاختيار على عبد الله بن حذافة، ولندع ابن الأثير يروي قصة لقاء ابن حذافة بملك الروم، وكيف ثبت على دينه بالأسر، على الرغم من ترغيبه وترهيبه، وحكمته في تخلص أسرى المسلمين فيقول:

(أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له الطاغية: تَنْصُرْ وإلاّ ألقيتك في البقرة - لبقرة من نحاس - قال: ما أفعل. فدعا بالبقرة النحاس فملئت زيتاً وأغليت، ودعا برجل من أسرى المسلمين، فعرض عليه النصرانية؛ فأبى، فألقاه في البقرة، فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تَنْصُرْ وإلاّ ألقيتك. قال: ما أفعل. فأمر به أن يُلقى في البقرة، فبكى؛ فقالوا: قد جزع، قد بكى، فقال: رُدُّوه. قال: لا ترى أنّي بكيْتُ جزعاً مما تريد أن تصنع بي، ولكنني بكيْتُ حيث ليس لي إلا نفس واحدة يُفعل بها هذا في الله، كنت أحبُّ أن يكون لي

من الأنفِ عَدَدَ كُلِّ شَعْرَةٍ فِيَّ، ثُمَّ تُسَلِّطُ عَلَيَّ فَتَفْعَلُ بِي هَذَا. قَالَ: فَأَعْجَبَ مِنْهُ، وَأَحَبَّ أَنْ يُطَلِّقَهُ، فَقَالَ: قَبَّلْ رَأْسِي وَأَطْلِقْكَ. قَالَ: مَا أَفْعَلُ. قَالَ: تَنْصُرُ وَأُزْوَجُكَ بِنْتِي وَأُقَاسِمُكَ مَلَكِي، قَالَ: مَا أَفْعَلُ. قَالَ: قَبَّلْ رَأْسِي وَأَطْلِقْكَ وَأَطْلِقْ مَعَكَ ثَمَانِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: أَمَّا هَذِهِ فَنَعَمْ. فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَأَطْلَقَهُ، وَأَطْلَقَ مَعَ ثَمَانِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ...<sup>(١)</sup>.

وفي رواية للبيهقي: (قال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك؟ قال عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين. قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله أقبل رأسه يُخَلِّي عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي، فدنا منه وقبَّل رأسه؛ فدفَع إليه الأسارى؛ فقدم بهم على عمر، فأخبر عمر خبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يُقبَّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ؛ فقام عمر؛ فقبَّل رأسه)<sup>(٢)</sup>.

وليس هذا هو الأسلوب الوحيد الذي اتبعوه مع ابن حذافة وهو بالأسر بغية أن يتفلت بزعمهم من أحكام الإسلام، فقد كانوا على علم أن المسلمين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، فجعلوا له في البيت الذي وَضَعُوهُ فِيهِ خَمْرًا وَلَحْمَ خَنْزِيرٍ. وَبَقِيَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ؛ فَقَالُوا لِلْمَلِكِ: (قد انشئ عنقه: فَإِنْ أَخْرَجْتَهُ وَإِلَّا مَاتَ؛ فَأَخْرَجَهُ، وَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ وَتَشْرَبَ؟ قَالَ:

(١) أسد الغابة ٢ / ٥٧٨.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، حديث ١٦٣٩، ٢ / ٢٤٥، بتحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول الطبعة الثانية ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

أما إنَّ الضرورة كانت قد أحلتها لي، ولكن كرهتُ أن أُشمتك بالإسلام...<sup>(١)</sup>.

### حكمة عبد الله بن حذافة في الأخذ بين العزيمة والرخصة:

وتبدو حكمة عبد الله بن حذافة في هذين الموقفين اللذين لا يفهما إلا الفقيه الذي وفقه الله في اتِّخاذ الموقف السليم: فقد أخذ بالعزيمة في محلها حين طلب منه (ملك الروم) أن يرتدَّ عن الإسلام ويدين بالنصرانية، ولم تُجدِّ معه وسائل الترغيب والترهيب نفعاً، وظلَّ ساخراً بذلك التهديد والوعيد؛ لإيمانه العميق أنَّ الحياة والموت بيد الله وحده، وأخذ بالرخصة في محلها أيضاً حين طلب منه الملك أن يقبَّل رأسه ليفكَّ أسرَه، ويطلق سراحه، لكنَّ عبد الله اشترط مقابل ذلك أن يُطلق سراح أسرى المسلمين كلهم ففعل ذلك.

لقد أخذ عبد الله بموقفه الثاني بالرخصة، وحقَّق نفعاً كبيراً حين أخذ بها، فعاد ومعه أسرى المسلمين. وقد يكون الأخذ بالرخصة في محلها أكثر نفعاً من الأخذ بالعزيمة.

وتظهر عظمة الحاكم المسلم حين يعلم أنَّ جندياً من جنوده، أو قائداً من قاداته يقف هذا الموقف الحكيم، فيقوم بتقبيل رأس ذلك البطل، ويأمر المسلمين أن يقوموا بتقبيل رأسه ففعلوا.

لقد كان الصحابة يعلمون بطولة وعظم حكمة ابن حذافة في تخليص المسلمين من الأسر؛ فكان منهم من يمزح معه قائلاً: قبَّلتَ رأسَ علج! فيقول:

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٢ / ١٥.

أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين<sup>(١)</sup>.

## شهوده فتح مصر:

وبعد أن توفي رسول الله ﷺ، ظل عبد الله بن حذافة ذلك المجاهد، فشهد فتح مصر<sup>(٢)</sup> بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وخاض معه معامع الحروب ومعارك عدة، وأبدى صنوفاً من الشجاعة القتالية والعبقرية الحربية، الأمر الذي جعل ابن العاص يثق بقابليته الحربية، فأعطاه بعض المهتمات منها: أمره أن يتوجه إلى مدينة (عين شمس) ليفتحها، وهي تبعد ثلاثة فراسخ عن (مدينة الفسطاط) التي تم فتحها، فحاصرها عبد الله، حتى طلب أهلها منه الصلح، فصالحهم على الشروط التي صالح فيها عمرو بن العاص أهل (الفسطاط)، وعاد ظافراً منتصراً.

ولما عزم ابن العاص على فتح الإسكندرية وتم له ذلك، استخلف عليها: عبد الله بن حذافة، ومعه عدد قليل من جنود الإسلام. وعلم أهل (الإسكندرية) بقلّة عدد المسلمين، واستجاب القيصر لطلبهم؛ فأرسل مدداً كبيراً لمقاتلة المسلمين، وعلم عبد الله بتلك الجموع، وتبين له أنّه لو تصدّى للقتال لكانت الخسارة الكبرى في جانب المسلمين، فإن القوتين غير متكافئتين، فحافظ على حياة جنوده بالانسحاب إلى (الفسطاط)؛ ليعدّ المسلمون العدة لاستعادتها، وما مثل ذلك الانسحاب إلا كمثل انسحاب المسلمين في غزوة (مؤتة) التي باركها رسول الله ﷺ... وهكذا كان، فقد جيش المسلمون جيوشهم، وقاموا بفتحها مرة

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٣ / ١٢٢، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وسعد عبد

الحميد السعدي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الإصابة لابن حجر العسقلاني ٦ / ٩٦.

أخرى، طاردين منها الروم.

### وفاته:

ظل عبد الله في مصر، حتى أتاه الأمر الذي لا مردَّ له... أتاه الموت؛ فانتقل إلى جوار ربه، ودفن في مصر في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، بعد ذلك الجهاد الطويل: جندياً وقائداً.

رضي الله عن عبد الله بن حذافة، وعن صحابة رسول الله، الذين بفضلهم دخل الناس في الإسلام.



قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

صلة الآية بما قبلها:

خاطب الله عز وجل الأمة في الآية التي قبل هذه الآية أمراً بتأدية الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والذي يقوم بهذه المهمة خير قيام هو من يطيع الله ويطيع رسوله وأولي الأمر من المسلمين. فجاءت هذه الآية تأمر بذلك.

التفسير:

في هذه الآية أمر الله عباده المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان منذ أن أنزل الله هذه الآية على رسوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - أمرهم بطاعته جلّ جلاله: وهي العمل بكل ما أمر به في القرآن الكريم، وترك كل ما نهى عنه. وتكرر الأمر بطاعة رسوله، وذلك بالاستجابة لكل ما صدر عنه من أحكام. وتوجه الخطاب للذين آمنوا هنا ولم يتوجه للناس؛ لأنّ الذين آمنوا هم الذين اعتقدوا اعتقاداً جازماً بوجوده تعالى، وأنه هو الخالق والعالم بكل شيء، وأنه متصف بكل صفات الكمال: فهو لاء هم الذين يستجيبون لأمر الله ولنهيهِ، فلم يخاطب الله مطلق الناس هنا، بل خاطب الذين آمنوا، فلا نعجب إذا علمنا أن أكثر التكاليف الشرعية التي نزلت في العهد المدني صُدرت بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا



الَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴿١﴾

وبعد الأمر بطاعة الله، جاء الأمر بطاعة رسوله. ونجد تلازماً وثيقاً بين الطاعتين لا تنفك إحداهما عن الأخرى: طاعة الله وطاعة رسوله، يقول الله عز وجل:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ويقول:

﴿وَمَا ءَأْتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فوجبت طاعته صلوات الله وسلامه عليه في كل ما يصدر عنه من أحكام، وقد قال تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

ونظر في الفعل (أطيعوا)، فقد ورد لله ولرسوله: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، مع أن حرف العطف الذي هو الواو يغني عن إعادة فعل الأمر (أطيعوا) ليشير إلى أن طاعة رسول الله طاعة مستقلة؛ لئلا يتوهم متوهم أن امتثال الطاعة لا تكون إلا فيما ورد في القرآن الكريم، ولم يُعد الفعل (أطيعوا) لأولي الأمر؛ لأن طاعتهم ليست مستقلة كطاعة الله وطاعة رسوله.

ولقد وردت أحاديث كثيرة نصّ فيها رسول الله ﷺ على أحكام كثيرة أمر ببعضها المسلمين ونهى عن بعضها الآخر، ولم نجد تلك الأحكام في القرآن الكريم، من ذلك قوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل

شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموا، ألا لا يجِلُّ لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي نابٍ من السَّبُع...»<sup>(١)</sup>.

وقوله:

«ألا هل عسى رجل يبلِّغُ الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، وإنما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله»<sup>(٢)</sup>.

ولما أرسل رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، وسأله الرسول الكريم: [«كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟»] قال: أقضي بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ...»<sup>(٣)</sup>.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شريح القاضي كتاباً جاء فيه:

(انظر ما تبين لك في كتاب الله، فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبين لك في

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب السنة [باب في لزوم السنة]، حديث ٤٦٠٤، ص ٨٣١، والترمذي في كتاب العلم [باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ]، حديث ٢٦٦٣، ص ٦٠٤، وابن ماجه في المقدمة حديث ١٢، ص ٢.

(٢) رواه الترمذي في كتاب العلم [باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ]، حديث ٢٦٦٤، ص ٦٠٥

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب الأفضية [باب اجتهاد الرأي في القضاء]، حديث ٣٥٩٢، ص ٦٤٤، والترمذي في كتاب الأحكام [باب ما جاء في القاضي كيف يقضي]، حديث ١٣٢٧، ص ٣٢١.

كتاب الله، فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

ومن الأحكام التي استقلت بها السنة النبوية في الحلال والحرام، ولم ترد في كتاب الله عز وجل: تحريم أكل لحوم الحمر الأهلية، ورجم الزاني المحصن، ومنع القتال من الميراث، وتحريم لبس الذهب والحريير على الرجال، وصدقة الفطر... وغير ذلك.

### أولو الأمر:

ولقد اختلف العلماء في المراد بأولي الأمر على أقوال، وأهمها قولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية:

الأول: ذهب الجمهور من المفسرين وغيرهم إلى أن الذين أوجب الله طاعتهم هم الولاة والأمراء. وهذا ما رجحه الإمام الطبري فقال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول مَنْ قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بطاعة الأئمة والولاة فيما كان الله طاعةً وللمسلمين مصلحة)<sup>(٢)</sup>.

وقد رجح هذا قبل ابن جرير الإمام الشافعي محتجاً (بأن قريشاً كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير؛ فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر)<sup>(٣)</sup>.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي بإشراف الشيخ: محمد علي السائيس، ص ٣٠، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.

(٢) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري ٨ / ٥٠٢، بتحقيق: محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر، طبع سنة ٢٠٠٨، دار ابن الجوزي، القاهرة.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٨ / ٣٢٠.

عصى الله، وَمَنْ يُطِعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي...»<sup>(١)</sup>.

الثاني: أنهم العلماء، وهو ما ذهب إليه ابن أبي طلحة وابن عباس وجابر بن عبد الله... وغيرهم، ودليلهم أن العلماء هم الذين يُرجع إليهم عند التنازع. ويمكن الجمع بين الرأيين: بأن العلم شرط لا بد منه للإمام، ليستطيع القيام بتدبير شؤون الأمة.

ويتحدث ابن قيم الجوزية في هذين الصنفين فيقول:

(والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً: فإنَّ العلماء والأمرء ولاةُ الأمر الذي بعث الله به رسوله؛ فإنَّ العلماء ولاةُ حفظاً وبياناً وذباً عنه، ورداً على من ألد فيه وزاغ عنه... والأمرء ولاةُ قياماً وعنايةً وجهاداً وإلزاماً للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه. وهذان الصنفان هما الناس، وسائر النوع الإنساني تبعٌ لهما ورعية)<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا المعنى ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا:

(المراد بأولي الأمر: جماعة أهل الحلِّ والعقد من المسلمين: وهم الأمرء والحكام والعلماء ورؤساء الجند، وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة..)<sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير [باب: يُقاتل من وراء الإمام ويتقى به]، حديث ٢٩٥٧، ص ٤٨٩.

(٢) بدائع التفسير (الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية) ١ / ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار تأليف الشيخ محمد رشيد رضا ٥ / ١٤٧.

وقال ابن كثير:

(الظاهر - والله أعلم - أنها عامّة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء)<sup>(١)</sup>.

وإذا اتفق العلماء والأمراء صار اتفاقهم حجة<sup>(٢)</sup>. وتكون تلك الحجة ملزمة إذا لم تتعارض مع كتاب الله وسنة النبي ﷺ. وفي هذا ردٌّ على أولئك الحكام الظالمين الذين استدلوا شعوبهم، وإذا أنكروا عليهم شيئاً من سياساتهم قالوا لهم: ألم يأمر الله الناس بطاعة أولي الأمر؟!

وجاء التعبير القرآني بهذا النسق: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

ليشير إلى أن طاعة رسول الله أعلى من طاعة أولي الأمر.

ويشير اللفظ القرآني (منكم) (وأولي الأمر منكم) إلى أن طاعة الأمير ملزمة إذا كان يطيع الله ويطيع رسوله بكل ما جاء عنهما.

ولا يظنُّ أحد أن طاعة الأمير مطلقة، لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود. إنها ليست كذلك، بل مقيدة بقيود الشرع؛ فإذا أمر الأمير بمعصية فلا تكون له طاعة؛ وأولو الأمر ليسوا بمعصومين، ولا تكون العصمة إلا لرسول الله فيما يُبلِّغه عن الله تعالى.

وهذا ما كان يقول به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد كتب إلى واليه على مصر (الأشتر النخعي) كتاباً يقول فيه: (واردُّ إلى الله ما يضلّك - أي ما

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٠.

(٢) البيان لتفسير آي القرآن لابن تيمية ٢ / ٥٦٠، جمع ودراسة وتحقيق: أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الطحاوي، السعودية، الرياض.

يُشَكِّلُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ - مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهَ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وَالرُّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ<sup>(١)</sup>.

وقال العلماء: (طاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام على الحق، فإذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق)<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت بعض أحاديث رسول الله ﷺ وردت مطلقةً بطاعة الأمير كحديث: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني...»<sup>(٣)</sup>، فقد جاءت أحاديث أخرى قيّدت هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث المطلقة في الطاعة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»<sup>(٤)</sup>.

وقال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمّر بمعصية،

---

(١) نهج البلاغة لأبي طالب ص ٣٧٨، شرح الشيخ محمد عبده، طبع سنة ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الحديث، القاهرة.

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان تأليف: محمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي ٦ / ١٦٧، دار المنهاج ودار طوق النجاة، بيروت.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأحكام [باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية]، حديث ٧١٤٥، ص ١٢٢٩، ومسلم في كتاب الإمارة [باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية]، حديث ٤٧٦٦، ص ٨٢٦.

فإذا أُمرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(١)</sup>.

وقال في حجة الوداع:

«ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «لا طاعة في معصية الله»<sup>(٣)</sup>.

وقال: «لا طاعة لبشر في معصية الله»<sup>(٤)</sup>.

### الحكم عند التنازع:

ولما كانت وجهات النظر تختلف بين المسلمين بعضهم مع بعض، وتختلف بينهم وبين ولاة أمورهم في نطاق مأمورات الطاعة، فقد أوجد القرآن الحكيم الحل لذلك: وهو الرجوع عند الاختلاف في المسائل التشريعية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، والنزاع يأتي بمعنى الجذب وشدة الاختلاف: فكأن كل واحد من المتنازعين يجذب من غيره الحجة. والمتنازعون هنا هم المسلمون، فيشمل كل المتنازعين من عموم الناس بعضهم مع بعض، كما يشمل تنازع عامة الناس مع ولاة الأمور، وتنازع الولاة فيما بينهم:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام [باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية]، حديث ٧١٤٤، ص ١٢٢٩، ومسلم في كتاب الإمارة [باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية]، حديث ٤٧٦٣، ص ٨٢٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة [باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية]، حديث ٤٧٦٣، ص ٨٢٥.

(٣) رواه الإمام أحمد، حديث ١٩٨٢٤، ٣٣ / ٥٨، قال محققه: إسناده صحيح.

(٤) رواه الإمام أحمد، حديث ١٠٦٥، ٢ / ٣١٨، قال محققه: إسناده صحيح.

كتنازع الوزراء مع الحاكم.

وهذا النصّ الشريف حكم قاطع، فلا يكون الرجوع عند الاختلاف إلا إلى هذين المصدرين لا إلى غيرهما مهما كان. وكلُّ من يرضى أن يُحكّم غير الله ورسوله، يصير قد خرج من الإيمان بالله واليوم الآخر. ولكن من هم الذين يعرفون الأحكام الشرعية ويفصلون فيها؟

إنّهم - ولا شكّ - العلماء الذين بلّغوا منزلةً عاليةً في العلم. فأراد الله تعالى بهذا النصّ الشريف أن يوجد حلاًّ للتنازع الذي يقع بين المسلمين؛ فكان الردُّ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما المسائل التي لم يردّ فيها نصٌّ صريح من القرآن والسنة، فهنا يأتي دور المجتهدين من العلماء الذين يجتهدون في حدود ما جاء عن الله ورسوله، أو موافقاً لروح التشريع الإسلامي.

ويفسّر هذا النصّ الكريم الإمام القرطبي فيقول:

﴿فَإِنْ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي تجادلتم واختلّفتم في شيء من أمر دينكم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: أي ردّوا ذلك الحكم إلى كتاب الله، أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته<sup>(١)</sup>.

ونظر باللفظ القرآني (شيء): ﴿فَإِنْ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ﴾، فنجده قد ورد هنا نكرة، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، ويفهم من هذا أن أمور العقيدة

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ٣ / ١٥٦، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ -

١٤٢٩ / ٢٠٠٨، دار الفكر، بيروت.



والأموال والدماء، وكل ما له علاقة بالدين والدنيا مما يحصل فيه النزاع، يجب أن يرجع فيه المسلم إلى الكتاب والسنة: فما حَكَمَ به أحدهما، فهو الحق الذي يجب أن ينقاد له المسلم ظاهراً وباطناً، وكذلك ما حكم به العلماء المجتهدون.

وهكذا يكون في دولة الإسلام صنفان:

الأول: العلماء من ذوي الاجتهاد الذين يطلق عليهم في العصر الحديث بـ (الهيئة التشريعية).

الثاني: الحاكمون الذين يقومون بتنفيذ الأحكام التي تصدرها الهيئة التشريعية وبخاصة عند التنازع، وتكون الأمة ملزمة بالخضوع لتلك الأحكام.

ويتبع القرآن أسلوب الحُصِّ والتهيج من أجل ردِّ الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله عند التنازع فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، مع أن الله تعالى خاطبهم في ابتداء الآية بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فوصفهم بصفة الإيمان في أصل الخطاب، وذلك ليُهَيِّجَهُمْ وَيُحْضِضَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا دَعَا إِلَيْهِ الْقُرْآنُ عِنْدَ التَّنَازُعِ، وهذا الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ شرط واضح إذا انتفى فينتفي الشروط بانتهائه.

أما اسم الإشارة (ذلك): ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، فيعود إلى الردِّ إلى كتاب الله وسنة رسوله. والخير: هو كل ما فيه نفع، وهو اسم من أسماء التفضيل مسلوب المفاضلة والتأويل في قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أحسن مرجعاً وأجمل عاقبة.

وهكذا يكون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله في فصل النزاع خيراً  
للمسلمين في الدنيا لتتنظم أمور الحياة؛ وذلك يؤدي إلى إشاعة الأمن والأمان في  
حياة الناس في الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيامة.

### وأخيراً:

فإن الله عز وجل خَلَقَ هذا الكون، وخلق الإنسان، وهو العالم بما يُصلحه،  
فسنّ شريعة الإسلام، وأمرَ الناس أن يسيروا على منهاجها، ويلتزموا بكل ما  
فيها، وليس للمسلم الخيار أن يعمل بهذه الشريعة أو لا يعمل؛ لأنّ الإنسان لا  
يصير مؤمناً إلا إذا آمن بالله الإيَّمان الحق، وعمل بكل حكم من أحكامها عن  
قناعة ورضى واطمئنانٍ نفسٍ، من غير أن يُتَّجَلَّه حَرَجٌ في أيِّ حكم كان من  
أحكامها.



## من شروط الإيمان

قال الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عروة بن الزبير أن الزبير كان يُحدِّث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بديراً إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة كانا يسقيان به كلاهما. فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك»؛ فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمّتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسقِ، ثم احبس حتى يبلغ الجدر»، فاستوعى رسول الله ﷺ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم. قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]<sup>(١)</sup>.

وشراج الحرّة: هي مسايل الماء، والحرّة: هي الأرض الملسة فيها حجارة سود.

والجدر: هي الحواجز التي تحبس الماء.

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح (باب: إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حَكَمَ عليه بالحكم البين)،

حديث ٢٧٠٨، ص ٤٤٢، ومسلم في كتاب الفضائل (باب: وجوب اتباعه ﷺ)، حديث ٦١١٢.

## الزبير بن العوام رضي الله عنه<sup>(١)</sup>

أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي، حواريُّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكلِّ نبيِّ حواريٍّ، وحواريُّ الزبير»<sup>(٢)</sup>.

وقال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أشجع الناس الزبير، يغضب غضب النمر، ويثبُّ وثوبَ الأسد)<sup>(٣)</sup>.

وقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنَّ الزبير ركن من أركان الدين)<sup>(٤)</sup>.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: (نَجْدَة الصحابة: حمزة وعليّ والزبير)<sup>(٥)</sup>.

### إسلامه:

أسلم رضي الله عنه في فجر الدعوة الإسلامية؛ فكان إسلامه بعد إسلام أبي بكر الصديق بيوم أو أيام قليلة، وهو رابع أو خامس من دخل في الإسلام<sup>(٦)</sup>، وكان

---

(١) مقتطفات من كتابي (سته مبشرون بالجنة).

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة [باب من فضائل طلحة والزبير]، حديث ٦٢٤٣، ص ١٠٦٥.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ١٨ / ٣٨٥.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ٤ / ٢٢.

(٥) صلاح الأمة في علوِّ الهمة جمع وترتيب: د. سيد حسين العفاني ٤ / ٣٣٤، الطبعة الثامنة ١٤٣١ - ٢٠١٠، دار العفاني، القاهرة.

(٦) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٢٠٩.

عمره ست عشرة سنة<sup>(١)</sup>.

## هجرته إلى الحبشة:

لما ازداد اضطهاد المشركين على صحابة النبي رضي الله عنهم، أشار عليهم النبي بالهجرة إلى الحبشة، وكان الزبير واحداً ممن هاجر إليها، وأقام مع إخوته المهاجرين في ظل الملك العادل النجاشي مطمئنين على أرواحهم وعلى كرامتهم. ولكن أتاهم من يقول: إن مكة أسلمت وكفّت قريش عن الإساءة إلى المسلمين وتعذيبهم؛ لذلك قفل قسم من المهاجرين إلى مكة، ومنهم (الزبير)، وتبين لهم أن ما بلغهم عن إسلام أهل مكة وكفهم عن اضطهاد المسلمين ليس صحيحاً، فلا تزال قريش بطغيانها وجبروتها وظلمها تُذيق المسلمين أشدّ العذاب... وعاد الزبير ليلازم رسول الله ﷺ، ويتلقى عنه ما ينزل عليه من آيات.

ويزداد التضييق على المسلمين، فيأذن الله للنبي وصحابته بالهجرة إلى المدينة، وكان الزبير من الثلثة المؤمنة التي هاجرت، وقد هاجر وحده، وظل جندياً مطيعاً لرسول الله ﷺ.

## في غزوة بدر:

عُرِفَ الزبير بشجاعته. ففي غزوة بدر الكبرى كانت عليه عمامة صفراء، فنزل جبريل عليه السلام على سيء الزبير<sup>(٢)</sup>. ومع شجاعته الفائقة كان دقيق النظر في إصابة الهدف، وصاحب خبرة في معالجة الأمور الطارئة، وهذا مثال على ذلك:

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير ١ / ١٢٣، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ / ٢٧٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦، والطبراني رقم ٢٣٠، ١ / ١٢٠.

روى هشام عن عروة عن أبيه (الزبير بن العوام) قال: قال الزبير: (لقيت يوم بدر عبدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج، لا يرى منه إلا عيناه وهو يكنى أبا ذات الكرش<sup>(١)</sup>) فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة<sup>(٢)</sup> فطعته في عينه فمات، قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: وضعت رجلي عليه، ثم تمطأت، فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها...<sup>(٣)</sup>.

### في غزوة أحد:

كان الزبير في غزوة أحد معه إحدى رايات المهاجرين، وقد قاتل قتالاً لم يشهد التاريخ مثله، ولما انقلب نصر المسلمين إلى هزيمة في الجولة الثانية من المعركة، رأى رسول الله ﷺ رجلاً من المشركين يقتل المسلمين قتلاً عنيفاً فقال: «قم إليه يا زبير»، فرقى إليه الزبير، حتى إذا علا فوقه اقتحم عليه فاعتقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا على الأرض، ووقع الزبير على صدره فقتله...<sup>(٤)</sup>.

### في غزوة الخندق:

كانت الشجاعة التي يتمتع بها الزبير مضرب الأمثال، فما من موقف من المواقف الصعبة يتبدد فيها النبي ﷺ واحداً من الصحابة ليقوم بها إلا كان الزبير أول من يقول: أنا، فهو رجل المهات الصعبة. روى الإمام مسلم قال:

(١) يطلق الكرش على كل مجتر، ويطلق على العيال والجماعة.

(٢) العنزة: كالحرية، وهي أطول من العصا وأقصر من الرمح في أسفلها حديدة كحديدة الرمح، يتوكأ عليها الشيخ الكبير.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي [باب: ١٢]، حديث ٣٩٩٨، ص ٦٧٥.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ١٨ / ٣٥٩.

(ندب رسول الله ﷺ يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندهم فانتدب الزبير؛ فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري وحواري الزبير»<sup>(١)</sup>).

### في معركة اليرموك:

بعد أن انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ظلّ الزبير ذلك المجاهد في سبيل الله إلى أن لقي ربه، وهذا مثال من أمثلة كثيرة على شجاعته في هذه الغزوة:

روى عروة بن الزبير عن أبيه: (أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فنشدَّ معك؟ فقال: إني إن شددتُ كذبتُم<sup>(٢)</sup>. فقالوا: لا نفعل، فحمل عليهم حتى شقَّ صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلاً، فأخذوا بلجامه، فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعبُ وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزبير يومئذ وهو ابن عشر سنين، فحمله على فرس ووكل به رجلاً<sup>(٣)</sup>).

### فتح حصن بابلين:

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه في جهاد دائم لفتح مصر، وقد استعصى عليه فتح (حصن بابلين)؛ إذ لم تكن قوات المسلمين بكافية، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يطلب منه أن يمدّه بمدد من الرجال؛ فأرسل الزبير بن العوام في

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة [باب: من فضائل طلحة والزبير]، حديث ٦٢٤٣، ص ١٠٦٥.

(٢) معنى (كذبتُم): جبتم، وانصرفتُم عن القتال وهربتم.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي [باب قتل أبي جهل]، حديث ٣٩٧٥، ص ٦٧١.

عشرة آلاف، وقيل: اثني عشر ألفاً، ومما قيل: إن عمر بن الخطاب أرسل أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع، وكتب إليه: إني أمددُكَ بأربعة آلاف، على كل ألف منهم رجل مقام ألف، وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال.

ولما وصل الزبير وجد عمراً محاصراً (حصن بابلين)، فركب حصانه وطاف في الخندق المحيط بالحصن، وفرّق الرجال حول الخندق. واستمرّ الحصار سبعة أشهر، ولما قيل للزبير: إن بها الطاعون، قال: (إِنَّمَا جِئْنَا لِلطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ)<sup>(١)</sup>. وأبطأ فتح الحصن على المسلمين، فقال الزبير: (إِنِّي أَهَبُ نَفْسِي لِلَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَوَضَعَ سَلْمًا وَأَسْنَدَهُ إِلَى جَانِبِ الْحِصْنِ مِنْ نَاحِيَةِ (سُوقِ الْحَمَامِ)، ثُمَّ صَعِدَ، وَأَمْرَهُمْ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ أَنْ يَجِيبُوهُ جَمِيعًا، فَمَا شَعَرُوا إِلَّا وَالزَّبِيرُ عَلَى رَأْسِ الْحِصْنِ يَكْبُرُ وَمَعَهُ السِّيفُ؛ فَتَحَامَلُ النَّاسُ عَلَى السُّلْمِ حَتَّى نَهَاهُمْ عَمْرُو؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْكَسِرَ. فَلَمَّا رَأَى الرُّومُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ ظَفَرُوا بِالْحِصْنِ انْسَحَبُوا، وَبِذَلِكَ فَتَحَ حِصْنَ بَابِلْيُونَ أَبْوَابَهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَانْتَهَتْ بِفَتْحِهِ الْمَعْرَكَةُ الْحَاسِمَةُ لِفَتْحِ مِصْرَ، وَكَانَتْ شَجَاعَةَ الزَّبِيرِ ﷺ النَّادِرَةَ السَّبَبَ الْمُبَاشِرَ لِانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَقَوْقِسِ)<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢١٥، راجعه رضوان محمد رضوان، ١٤٠٣، ١٩٨٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة: د. سيد حسين العفاني ٤ / ٣٣٩، نقلاً عن كتاب قادة فتح الشام ومصر، تأليف: محمود شيت خطاب ص ٢٠٩، ٢٢٧.



## يرفض الولاية:

ولما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يوليه على مصر قال له الزبير: (لا حاجة لي فيها، ولكنني أخرج مجاهداً، وللمسلمين معاوناً: فإن وجدتُ عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدتُ إلى بعض السواحل فرابطتُ به، وإن وجدتُه في جهاد كنت معه)<sup>(١)</sup>، فسار على ذلك.

## استشهاد الزبير:

كان الزبير رضي الله عنه يحرص على الشهادة في سبيل الله! وربما كانت بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالجنة لا تفارقه: وحدثت الفتنة في (معركة الجمل)، وكان لعبد الله بن سبأ اليهودي الملقب بابن السوداء دور لئيم في هذا. وخرج الزبير يريد الإصلاح ولكن الفتنة العمياء أطلت برأسها، فوقع القتال بين جماعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من جهة وجماعة طلحة والزبير من جهة أخرى. وفي الجولة الأولى من المعركة، خرج الزبير منها معتزلاً القتال، وكأنه أحسّ بدنو أجله، فأوصى ابنه عبد الله قائلاً له:

«يا بُنيّ؛ إنه لا يُقتل اليوم إلا ظالمٌ أو مظلوم، وإنّي لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً، وإنّ أكبرَ همّي لديني... يا بنيّ، إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي. قال: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبتّي، مَنْ مولاك؟ قال: الله. قال: فوالله ما وقعتُ في كُرْبَةٍ من دَيْنِهِ إلاّ قلتُ: يا مولى الزُّبيرِ اقضِ عنه دَيْنَهُ فيقضيه...»<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب فرض الخمس [باب: بركة الغازي في ماله حياً وميتاً]، حديث ٣١٢٩، ص ٥١٨.

وجاء إلى الزبير رجل وعرض عليه أن يقتل علياً بعد أن يندس في جيشه؛  
فأنكر عليه الزبير بشدة قائلاً له: «إِنَّ الْإِيْمَانَ قَيْدَ الْفِتْكَ لَا يَفْتِكُ مَوْمن...»<sup>(١)</sup>.

لقد ترك الزبير القتال بعد أن كلمه علي بلطف، ولعلَّ الزبير شكَّ في صحة موقفه من هذه الفتنة؛ فقد خرج للإصلاح ليس إلا، ولما حلَّ السلاح محلَّ الإصلاح رجع ولم يقاتل... وهناك أسباب أخرى ذكرها كُتَّاب السِّير، وربما كان بعضها - مع ما تقدّم - أسباباً لخروجه من القتال..

وعلم عمرو بن جرموز بذلك، فعزم على قتله. ولقد لقيه في طريق عودته فقال له عمرو: إنَّ لي إليك حاجة. فقال: ادنُّ، فقال مولى الزبير واسمُه عطية: إنَّ معه سلاحاً فقال: وإن. فتقدّم إليه فجعل يحدثه، وكان وقت الصلاة، فقال له الزبير: الصلاة. فقال: الصلاة. فتقدّم الزبير ليصلي بهما؛ فطعنه عمرو بن جرموز فقتله، وكان قتلُه يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين.

لقد ظنَّ ابنُ جرموز أنَّه سينال حظوة عند علي، فلما علم عليّ، بذلك قال: بَشْرٌ قَاتَلَ ابْنَ صَفِيَّةٍ بِالنَّارِ. ثم قال علي: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٍّ وَحَوَارِيٍّ الزَّبِيرِ»<sup>(٢)</sup>. ولما رأى علي سيف الزبير قال: إنَّ هذا السيف طالما فرَّج الكُرب عن وجه رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>.

وقال علي ﷺ: إنِّي لأرجو أن أكونَ أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله في

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ١٤٢٦، ٣ / ٤١.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة [باب: من فضائل طلحة والزبير]، حديث ٦٢٤٣، ص ١٠٥٦.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٤٠.

حقهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قضى الزبير حياته كلها حتى استشهد وما ولي إمارة قط ولا خراجاً، بل كان يتَّجر ويأخذ عطاءه<sup>(١)</sup>.

جعل الله في أمتنا من يقتدي بإخلاص الزبير وشجاعته من أجل نصره دين الله!.

\*\*\*

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢ / ٢٨٠، حققه وضبطه وعلق عليه: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

قال الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

### صلة الآية بما قبلها:

تحدّث الآية التي قبل هذه الآية عن رسل الله الذين سبقوا رسول الله محمداً ﷺ في الزمن، وقد أوجب الله على كل قوم طاعة رسولهم، أما رسول الله ﷺ فليس بدعاً من الرسل، فوجب على الناس كلهم أن يُطيعوه. فجاءت الآية التي نتحدث فيها، تُبيّن الطريق الصحيح للإيمان الحق.

### التفسير:

في الآية الكريمة وعيدٌ شديد ترتعد منه الفرائص، وترتجف من هوله الرُّكْب؛ لأنها تتحدّث في مستقبل المؤمن كيف يكون، فإنَّ رأس مال المؤمن: هو الإيمان الحقّ، فإذا نفاه القرآن عن ناس لا يحكّمون رسول الله ﷺ في حياتهم الدينية والدينيوية، فقد حلّت بهم الخسارة التي تجعلهم يتقلّبون على جمر الغصّي.

ونظر في أسلوب القرآن في الآية الكريمة، فتراها من أسمى مراتب البيان: فهي دعوة صادحة تلامس شغاف القلوب، تدعو إلى تحكيم رسول الله ﷺ في شؤون الحياة وقد صُدّرت بأجلّ قَسَم: وهو قَسَمه جل جلاله بذاته الكريمة المقدّسة بنفي الإيمان عن أي مسلم كان إذا لم يحكّم رسول الله ﷺ في أموره الدينية، فما حَكَمَ به في أمرٍ من الأمور، فالحكّم حكمه، ويجب أن ينقاد المؤمن لذلك الحكم ظاهراً وباطناً.

ابتدأت الآية بهذا القَسَمِ: (فلا وربك). ومعروف أن القسم لا يؤتى به إلا للتأكيد، وقد سبق بحرف النفي (لا) ليؤكد القسم توكيداً لفظياً، وفي هذا القسم جاءت إضافة لفظة (الرب) إلى كاف الخطاب: (فلا وربك)، وأصل الكلام: فَوَرَبِّكَ، فهو قسم جليل من رب العالمين، أضاف فيه اسمه عز وجل إلى رسول الله ﷺ، تشریفاً له وتكريماً وتنويهاً بمكانته ومنزلته الرفيعة. هكذا جاء تعظيم المُقَسَمِ به وهو رسول الله؛ لأن الشيء لا يُقَسَمُ به إلا إعظاماً له، وكأن هذا القَسَمِ قد جاء توطئةً للأمر بوجوب تحكيم رسول الله ﷺ في كل شأن من الشؤون.

وحين يحتكم المسلم إلى سنة رسول الله ﷺ بعد وفاته، ويسلم له بكل ما حكم به، فكأنه أتى رسول الله ﷺ في حياته، وسمع منه الحكم، وخضع له بجوارحه وبقلبه ومشاعره لما يقول: وقد نص الله عز وجل في القرآن على أن طاعة الرسول هي طاعة الله فقال تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ [النساء: ٨٠].

وقال:

﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

إن قضية التنازع والاختلاف في وجهات النظر أمر طبيعي يقع بين الأفراد وبين الجماعات في كل أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور وقد كان المسلمون في حياة رسول الله ﷺ يهرعون إلى رسولهم الكريم ليحكم بينهم، وجاء التعبير القرآني هنا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ<sup>(١)</sup>، ليشير إلى الاختلاف الذي يقع بينهم.

وماذا بعد أن حدث التشاجر بين المسلمين وأتوا رسول الله ليحكم بينهم؟  
ويأتي الجواب: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا

تَسْلِيمًا﴾.

الحرج: هو الضيق كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ

ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ويضيق صدر الإنسان إذا كره أمراً من الأمور. ولكن المؤمن لا يتم إيمانه إلا بعد أن يستجيب لما حكم به رسول الله ﷺ في حياته، وما حكمت به شريعة الإسلام بعد مماته.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ليدخل المسلم في عداد المؤمنين الصادقين، بل هناك شرط آخر هو: أن رسول الله ﷺ إذا حكم بين متخاصمين اثنين بحكم، فقد يكون أحدهما راضياً رضىً في الظاهر فقط دون الباطن؛ فجاءت الآية لتنص على وجوب الرضى الباطني الذي يستقر في سويداء القلوب، من غير أن يجد في نفسه أي ضيق كان من الحكم، فيذعن إذعاناً تاماً، ويقتنع اقتناعاً لا يخالجه أي شك كان أو ريب من عدالة ذلك الحكم، ويسلم له تسليماً.

لقد كان حكم رسول الله ﷺ في هذه القضية عادلاً، وكيف لا يكون كذلك؛ وقد عصمه الله عن الوقوع بالخطأ فيه، ذلك (أن من كانت أرضه أقرب

---

(١) التشاجر: هو التنازع. وسُمي الشجر شجراً لتداخل أغصانه وتشابكها، وقد قال طرفه بن العبد يفخر بقومه:

وهم الحكماء أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر

إلى فم الوادي، فهو أولى بأول الماء، وحقه تمام السقي، وتماه أن يبلغ الماء الجدر<sup>(١)</sup>، وقد كانت أرض الزبير أقرب إلى فم الوادي.

وقد يسأل سائل: ما حكم من يعرض عن حكم رسول الله ﷺ؟

والجواب: أن من يعرض عن حكمه صلوات الله وسلامه عليه، يكون قد فسد دينه، وقد يصل بهذه العقيدة الفاسدة إلى الكفر من حيث لا يشعر، والأصل أن يستجيب لله ولرسوله كل الاستجابة، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

وجاء بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن هذه الآية دعوة صريحة إلى كل مسلم في هذا الوجود أن يحكم كتاب الله وسنة رسوله في كل شأن من شؤون حياته الدينية والدينية، وقد كثرت آيات القرآن الداعية لذلك، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

(١) التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ٦ / ٥٦٢، دار المصور العربي، الإسكندرية، مصر. والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ٥ / ٣٧٧، بتحقيق: سيد عمران، طبع سنة ١٤٣٣ - ٢٠١٢، دار الحديث، القاهرة.

وقال:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْىِ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال:

﴿أَفْحَكُم الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويتحدث الإمام أبو حامد الغزالي في هذا الأمر فيقول:

(أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنها النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له)<sup>(١)</sup>.  
ويفرق سيد قطب رحمه الله بين الإسلام والإيمان في الآية التي ابتدأنا حديثنا بها فيقول:

(وإذا كان يكفي لإثبات (الإسلام) أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله... فإنه لا يكفي في (الإيمان) هذا، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان في اطمئنان! هذا هو الإسلام، وهذا هو الإيمان، فلتنظر نفس أين هي من الإسلام، وأين هي من الإيمان، قبل ادعاء الإسلام

(١) المستصطفى من علم الأصول للإمام أبي حامد الغزالي ١ / ٥٣، الطبعة الأولى ١٣٥٦ - ١٩٣٧،

مطبعة مصطفى محمد، القاهرة.



وادّعاء الإيمان<sup>(١)</sup>.

إن على المسلم أن يكون له ميزان دقيق يزن به حاله، ويتأمل قلبه في كل حكم صدر عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ، فيرضى بها جاء في القرآن، وما قرره رسول الله ﷺ، من غير أن يجد في نفسه أيّ ضيق كان من الأحكام التي صدرت عنه صلوات الله وسلامه عليه.

ونظر في أحوال الناس، فنجد منهم من تأثر بالثقافة الغربية، فهم يودّون أن هذا الحكم أو ذلك لم يرد في السنّة النبوية مسaire للثقافة الغربية وحضارتها. ونحن نشفق على هؤلاء ونتمنى أن يعودوا إلى رشدهم، خشية أن يظلّ الشيطان يتلاعب بهم فيوردتهم موارد الهلكة، ويكبهم الله في النار. فالله تعالى يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولقد ذمّ الله قوماً كرهوا ما أحبه الله وأحبوا ما كرهه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ولقد ذمّ الله تعالى المشركين الذين يتبعون أهواءهم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

إن الاعتراض على حكم من أحكام الله أو أحكام رسوله وعدم

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ٦٩٧.

الرضى به، يصل بصاحبه إلى الخسارة الكبرى؛ إذ يتجرد بذلك عن الإيمان الحق، فإذا اعترضت المرأة مثلاً على حكم تعدد الزوجات الذي أباحه الله في محكم كتابه، وأبت الرضا به أو قبوله، تكون قد خرجت عن طريق الإيمان الحق.

## وأخيراً:

فإن هذه الآية التي تكلمنا بها، - ولو نزلت في سبب خاص - هي عامة في وجوب التحاكم إلى رسول الله ﷺ في حياته، وإلى شريعة الإسلام بعد وفاته؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

## ملاحظات وفوائد من الآية الكريمة:

١ - تدلّ الآية الكريمة على أن رسل الله معصومون من الوقوع بالخطأ في الفتوى وفي الأحكام؛ لأن الله تعالى أمر المؤمنين بالانقياد لهم في الظاهر والباطن، فكيف يوجب الله على المؤمنين ذلك لو لم يكونوا معصومين من الوقوع بذلك؟

٢ - يرشدنا سبب النزول إلى أن الحاكم يعمل على الإصلاح بين الخصوم، حتى ولو كان الحق ظاهراً بيناً؛ لعلهم يصطلحون على أمر، فإن أبى أحدهما، أخذ صاحب الحق حقه كاملاً. ويبدو هذا واضحاً في خصم الزبير لما قال لرسول الله ﷺ: «أن كان ابن عمّتك؛ فقال رسول الله ﷺ: «استقِ يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر».

٣ - يستفاد من الآية الكريمة أن رسول الله ﷺ كان لا يحكم إلا بظاهر ما يستمع من المتخاصمين، وقد أعلم الناس بذلك فقال: «إنما أنا بشر، وإنكم

تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنها أقطع له قطعة من النار»<sup>(١)</sup>.

٤ - روي عن جعفر الصادق عليه السلام قوله: «... ولو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت، ثم قالوا لشيء صنعهُ رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا صنعَ خلاف ما صنع؟ أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم، لكانوا مشركين، ثم تلا هذه الآية، يعني: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام [باب موعظة الإمام للخصوم]، حديث ٧١٦٩، ص ١٢٣٤.  
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣ / ٩٢، وضع هوامشه: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت.

## وَحَسُنَ أَوْلَاكَ رَفِيقًا

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول

قال الواحدي: نزلت في (ثوبان) مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له رسول الله ﷺ: «يا ثوبان ما غير لونك؟» فقال: يا رسول الله، ما بي من ضرر ولا وجع، غير أنني إذا لم أراك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف أن لا أراك هناك؛ لأنني أعرف أنك تُرفع مع النبيين، وإني وإن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة، فذلك أحرى أن لا أراك أبداً؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>(١)</sup>.

وروى الطبراني عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي ومالي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا

(١) أسباب النزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ص ١٢٩.

دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]<sup>(١)</sup>.

وهناك روايات أخرى بهذا المعنى ذكرها الواحدي<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ١ / ٢٦، صححه وراجع

أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان الطبعة الثانية، ١٤٠١ - ١٩٨١، دار الفكر.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٢٩ - ١٣٠.

## ثوبان مولى رسول الله ﷺ

### حياته:

هو ثوبان بن بُجْدَد - وقيل بن جحدر - يُكنى بأبي عبد الله، وهو صحابي معروف، يُقال: إنه من العرب. وقد اختلف في نسبته، وكان ممن سُبِيَ في الجاهلية، فصار عبداً، وأراد الله له الخير، فاشتراه رسول الله ﷺ، ثم أعتقه وخيره قائلاً له: «إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وإن شئت أن تكون من أهل البيت»، فثبت على ولاء رسول الله ﷺ، ولازم الرسول الكريم، في الحضر والسفر، وحفظ عنه كثيراً من العلم، وكان شديد الحب للنبي، وظل قائماً على خدمته إلى أن انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، وقد تحوّل - بعد ذلك - إلى الشام فنزل في (مدينة الرملة)، وسافر إلى (مصر) و (حمص) وابتنى في كل منها داراً له.

ذكر الذهبي عن مرضه بحمص فقال: إن ثوبان مرض بحمص، وكان أميرها (عبد الله بن قُرْط) فلم يَعُدَّهُ، فدخل على (ثوبان) رجل يعودُه، فقال له (ثوبان): أتكتب؟ قال: نعم، قال: اكتب، فكتب للأمير (عبد الله بن قُرْط):

من ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أما بعد، فإنه لو كان لموسى وعيسى مولىً بحضرتك لَعُدَّتْهُ. فأتي بالكتاب فقرأه، وقام فزِعاً. قال الناس: ما شأنه أحضر أمر؟ فأتاه فعاده، وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون

ألفاً، لا حسابَ عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً»<sup>(١)</sup>.

وروى ثوبان أن رسول الله ﷺ دعا لأهل بيته، فذكر علياً وفاطمة وغيرهما؛ فقلت: يا رسول الله: أَمِنْ أهل البيت أنا؟ قال: فسكت، ثم قلت: أَمِنْ أهل البيت أنا؟ قال: فسكت، ثم قال في الثالثة: «نعم ما لم تَقُمْ على سُدَّةٍ أو تأتي أميراً تسألُهُ»<sup>(٢)</sup>.

وروى عن رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قَصْعَتِها» فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت»<sup>(٣)</sup>.

ومن الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ: «لا يزيد في العُمُر إلا البر، ولا يردُّ القدر إلا الدَّعاء، وإنَّ الرجل لِيُحرم الرزقَ بخطيئةٍ يعملها»<sup>(٤)</sup>.

وروى عن رسول الله ﷺ أيضاً: «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقتها

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣ / ١٧، والإمام أحمد بإسناد حسن برقم ٢٢٤١٨، ٣٧ / ٩٨ - ٩٩، والطبراني في المعجم الكبير حديث ١٤١٣، ٢ / ٩٢.

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ٢ / ٩٩، والإصابة للعسقلاني ٢ / ٨٨، والسُدَّة: هي التي تكون أمام الباب يستظل بها، والمراد: النهي عن السؤال.

(٣) رواه أبو داؤد في كتاب الملاحم [باب: في تداعي الأمم على الإسلام]، حديث ٤٢٩٧، ص ٧٦٩، والإمام أحمد، حديث ٢٢٣٩٧، ٣٧ / ٨٢.

(٤) رواه ابن ماجه في المقدمة [باب في القدر]، حديث ٩٠، ص ١٥، وفي كتاب الفتن (باب: في العقوبات)، حديث ٤٠٢٢، ص ٥٨٠.

ومغاربها، وإنَّ أمّتي سيبلغُ ملكها ما زُوي لي منها...»<sup>(١)</sup>.  
توفي سنة أربع وخمسين في مدينة حمص من بلاد الشام.  
أما الأحاديث التي رواها، فهي مئة وثمانية وعشرون حديثاً<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن [باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض]، حديث ٧٢٥٨، ص ١٢٥٠.

(٢) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ٦٠.



قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ  
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ  
الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

التفسير:

يُرغَّبُ اللهُ عبادة المؤمنين، ويستجيش قلوبهم لذلك المتاع الذي ما بعده متاع: إنه صحبة رسول الله ﷺ والنبين والصادقين والشهداء والصالحين في جنات الخلود. والمطاع هنا: هو الله تعالى ورسوله، وذكَّرت طاعة رسول الله ﷺ هنا لتشريفه، وتبيان أن ما شرعه رسول الله ﷺ كتشريع الله، فيجب العمل به كالعمل بتشريعه جلَّ جلاله، ويظل المسلم ترنَّ بأذنه تلك الصحبة التي يقصر البيان عن وصفها لعله يحظى بمصاحبة أصحاب المنازل العالية، مرافقاً لأنبياء الله ولئن جاء بعدهم وهم: الصديقون والشهداء والصالحون، وهل هناك نعمة أفضل من مرافقة هؤلاء الأصناف الأربعة في الجنة؟!

نظر في الآية الكريمة، فراها قد بدأت بذكر النبيين أولاً لعلَّ منزلتهم على مَنْ سواهم: فهم الذين اختصَّهم الله بوحيه، فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة. وثنى بـ (الصادقين) وهم جمع صديق: وهو صيغة مبالغة في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال، فهم الذين صدَّقوا بكل ما جاء به رسول الله ﷺ من ربه تصديقاً يقينياً، لا يخالطه شيء من الريب أو الشك، وقاموا بالدفاع عن عقيدتهم الصحيحة من غير تردد ولا تباطؤ، وما سُمِّي أبو بكر بالصادق إلا لتصديقه رسول الله ﷺ بكل ما قاله من غير تردد ولا

تساؤل، فلما ذُكر له أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أتى بيت المقدس وعاد إلى مكة في ليلة واحدة، قال أبو بكر: إن كان قال ذلك فقد صدق. ويشمل لفظ الصديقين كل مَنْ صدق رسلَ الله بما أتوا به من عقيدة وشريعة وأخلاق... وثلث ب (الشهداء): وهم الذين قُتِلوا في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله، وختم ب (الصالحين): أولئك الذين صلحت نفوسهم واستقامت نحو دين الله، فصرفوا أعمارهم في طاعة الله، وبذلوا أموالهم وما يملكون في مرضاته جل جلاله. وقد رتب القرآن الكرامَ من الأصناف الأربعة، فجعل منزلة كل واحد منهم أعلى من منزلة مَنْ بعده، فبدأ ب (النبیین) لأنهم أفضل من (الصديقين)، وهكذا...

هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يكونون في رفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وجاء تذييل الآية: ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾، ليرغب الناس في التمسك بالعقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة التي تجعل المتقين الأبرار في صحبة هؤلاء الكرام. والرفيق: هو المُلَازِمُ للإنسان في حضر أو سفر، وسُمِّي بهذا؛ لأن كل واحد يستعين بالآخر في قضاء شؤونه، فلا شيء أفضل من رفقة هؤلاء الكرام.

لذلك نجد من الصحابة مَنْ كان يسأل رسول الله ﷺ مرافقته في الجنة: فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ؓ قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوءه (أي بالماء يتوضأ به) وحاجته فقال لي: «سَلْ»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قلتُ: هو ذاك. قال: «فَاعِنِّي على نفسك بكثرة

وفي هذا المعنى ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟»، قال: لا شيء، إلا أنني أحبُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. فقال: «أنت مع مَنْ أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنت مع مَنْ أحببت». قال أنس: فأنا أحبُّ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم<sup>(٢)</sup>.

لقد رأى الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاشوا معه، وتيقنوا أنه رسول من الله حقاً، لما رأوا من المعجزات التي أجراها الله على يديه، ومن حسن سيرته وأخلاقه التي ملكت قلوبهم، فهم لا يريدون مفارقتة... ولكن لا بد من الفراق في الدنيا، وكان هذا أمراً جليلاً يشغل أرواحهم، فكان أسمى ما يرجونه أن يكونوا رفقاءه في الجنة.

إن رفقة الطائعين لله للأصناف الأربعة في أعلى درجات الجنة فضلٌ عظيم عظيم؛ إذ يستمتع الطائع لله بصحبة هؤلاء الأصناف الأربعة وإن تفاوتت درجاتهم في الجنة.

﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

فهو تعالى العليم بمن يصلح بمرافقة هؤلاء في الجنة.

والآية الكريمة - ولو وردت في الصحابي (ثوبان) - تشمل كل مَنْ أطاع الله

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة [باب فضل السجود]، حديث ١٠٩٤، ص ٢٠٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [باب مناقب عمر بن الخطاب]، حديث

ورسوله.

فيا سعادة الطائعين بصحبة خير الناس أجمعين في جنات النعيم!

أمثلة على حب الصحابة لرسول الله ﷺ:

ولم يكن (ثوبان) هو الرجل الوحيد الذي أحب رسول الله ﷺ ذلك الحب الذي ملك عليه حياته كلها، ونجد الكثير الكثير من الصحابة ممن كان يحب الرسول الكريم كحب (ثوبان)، فقد طغت محبتهم له صلوات الله وسلامه عليه على أنفسهم وأولادهم وأموالهم والناس أجمعين، وهذه أمثلة على ذلك:

١ - وقع زيد بن الدثنة بالأسر لدى مشركي مكة، فخرجوا به إلى (التنعيم) ليقتلوه، واجتمع عليه رهط من قريش فيهم (أبو سفيان بن حرب)؛ فقال له أبو سفيان حين قُدم ليقتل: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي؛ فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتل<sup>(١)</sup>.

٢ - قال زيد بن ثابت: (بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيت فآقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيت وهو بأخر رمق، وفيه سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم؛ فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٧٢.

الأنصار: لا عُذر لكم إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته<sup>(١)</sup>.

٣ - في غزوة أحد اقترب المشركون من رسول الله ﷺ، وصاروا يرمونه بالنبال؛ فترس أبو دجانة عليه بظهره، والنبل يقع فيه، وهو لا يتحرك<sup>(٢)</sup>.

٤ - خرجت امرأة من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ؛ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ - تريد الاطمئنان على سلامته - قالوا: خيراً هو بحمد الله كما تُحِبِّين! قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ<sup>(٣)</sup>.

إنّ الذي هوّن مصابها في أعزائها الثلاثة: سلامة رسول الله ﷺ.

٥ - وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

(كان رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمّ)<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣ / ١٨٥، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة ١٤٢٥ - ٢٠٠٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) زاد المعاد ٣ / ١٧٧.

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للشيخ محمد بن أحمد القسطلاني ٢ / ٤٨٠، شرحه وعلّق عليه مأمون بن محيي الدين الجنّان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) المواهب اللدنية ٢ / ٤٨١.

## لا يستويون

قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

### ماقاله العلماء في أسباب النزول:

روى البخاري عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أُملي عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمَلُّها عليّ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت وكان أعمى؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرَضَّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله «غير أولي الضرر»<sup>(١)</sup>.

وعن الفلّتان بن عاصم قال: كنا عند النبي ﷺ فأنزل عليه، وكان إذا أنزل عليه دام بصره مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله، فكنا نعرف ذلك [منه]؛ فقال للكاتب: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، قال: فقام الأعمى فقال: يا رسول الله ما ذنبنا؟ فأنزل الله عليه، فقلنا

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير [باب لا يستوي القاعدون من المؤمنين]، حديث ٤٥٩٢، ص

للأعمى: إِنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ [فخاف أن ينزل عليه شيء من أمره] فبقي قائماً،  
ويقول: أعوذ بالله من غضب رسول الله ﷺ. قال: فقال النبي ﷺ: اكتب «غير  
أولي الضرر»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحقيق: شعيب  
الأرنؤوط ومحمد رضوان العرقسوسي، حديث ١٧٣٣، ٢ / ٧٧٦، الطبعة الأولى ١٤١٤ -  
١٩٩٣، مؤسسة الرسالة، بيروت.

## ابن أم مكتوم رضي الله عنه

### حياته:

اختلفَ باسم هذا الصحابي: فقال ابن سعد: (أمّا أهل المدينة فيقولون: اسمه عبد الله، وأمّا أهل العراق وهشام بن محمد بن السائب فيقولون: اسمه عمرو)<sup>(١)</sup> وعمرو هو الأكثر شهرة عند أهل الحديث. والده: قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي. أمّه: عاتكة بنت عبد الله بن عثكنة، وهي أمّ مكتوم. ولقبت بهذا لأنها ولدت ولدها مكفوفاً مكتوماً أعمى.

وهو ابن خال أمّ المؤمنين خديجة زوج النبي رضي الله عنها. كان ابن أمّ مكتوم من عامّة الناس، فلم يكن له شأن يذكر قبل بزوغ شمس الإسلام على الوجود، وبعد أن أكرم الله محمداً ﷺ بالنبوة، شرح الله صدره للإسلام فأسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فكان من المؤمنين منذ فجر البعثة النبوية، ووقف حياته لنشر عقيدة التوحيد، وأصابه ما أصابه من الأذى بسبب ذلك.

### ابن أمّ مكتوم في المدينة:

وتمضي الأيام، ويُضَيَّقُ على رسول الله ﷺ وعلى مَنْ آمن به من قافلة الإسلام الأولى، فيأذن الله للصحابة بالهجرة إلى المدينة، ويدعوهم رسول الله ﷺ

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ٤ / ١٩١.



لذلك، فما أسرع استجابة الصحابة، فكان أول المهاجرين إلى المدينة مصعب بن عمير فقد أرسله رسول الله ﷺ لِيُبَشِّرَ الناس بالإسلام، ويشرح لهم مبادئه، ويدعوهم إلى الانضواء تحت لوائه، كان مصعب يقرأ على الناس القرآن في المدينة، وانضم إليه (ابن أم مكتوم)، فصار الاثنان يقومان بتلاوة القرآن ودعوة الناس إلى الإسلام. وهذا يدل على الهمة العالية التي كان عليها الرجل، فلم يمنعه فقده للبصر أن يذهب إلى المدينة لدعوة الناس إلى هذا الدين. قال البراء:

(أول مَنْ قَدِمَ علينا مصعب بن عمير، ثم أتانا بعده عمرو بن أم مكتوم، فقالوا له: ما فعل مَنْ وراءك؟ قال: هم أولاء على أثري)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن سعد: (وقد رُوي لنا أن ابن أم مكتوم هاجر إلى المدينة قبل أن يُقدِّم رسول الله ﷺ المدينة وقبل بدر)<sup>(٢)</sup>.

### يقتل يهودية أساءت إلى رسول الله ﷺ:

لقد كان ﷺ كثير الحب لرسول الله ﷺ، فهو أحب إليه من الدنيا وما فيها، وهذا هو شأن صحابة رسول الله رضي الله عنهم، فلا يتحمل واحد منهم السكوت إذا سمع آية إساءة كانت تُوجِّه لرسول الله ﷺ - وابن أم مكتوم واحد منهم، وقد نزل في المدينة بعد هجرته بدار امرأة من اليهود، كانت عمّة لرجل من الأنصار، وكانت تُحسن إليه، لكنها تُسمعه ما يكره في الله ورسوله، وحاول أن يردعها فلم ترتدع، فضربها فماتت، وأقرّ بهذا أمام رسول الله ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦١.

(٢) الطبقات الكبير ٤ / ١٩٢.

ولندع الإمام الذهبي يروي لنا حادثة (ابن أم مكتوم) مع اليهودية فيقول:  
 (نزل ابن أم مكتوم على يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتؤذيه في النبي ﷺ؛  
 فتناولها فضربها فقتلها؛ فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال هو: أما والله إن كانت  
 لترفقي، ولكن آذني في الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «أبعدها الله قد أبطلت  
 دمها»<sup>(١)</sup>).

ولم يكن (ابن أم مكتوم) بعد هجرته - وهو الرجل الأعمى - ليجلس خانعاً  
 في مكانه لا يتحرك ولا يعمل، وعذره أنه مكفوف البصر، بل كان على الرغم من  
 (فقد البصر) نشيطاً أيماً نشاط. فلما قام رسول الله ﷺ ببناء المسجد بعد هجرته  
 شارك في البناء بنفسه.

### يطلب من رسول الله أن يأذن له بالصلاة في بيته:

لقد سكن في دار بعيدة عن المسجد، وليس له قائد، وهو فاقد البصر في  
 الوقت نفسه، فيأتي إلى رسول الله ﷺ لعله يجد له رخصة في الصلاة في داره في  
 بعض الأوقات، فيقول للرسول الكريم: (يا رسول الله، إني ضرير البصر، شاسع  
 الدار، وليس لي قائد يلازمي، فهل تجدي من رخصة؟ قال: «هل تسمع النداء؟»  
 قلت: نعم، قال: «ما أجدل لك من رخصة»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية: (يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوام، قال: «هل تسمع حي على

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٣.

(٢) معجم الصحابة لابن قانع البغدادي ١٠ / ٣٧٢٤، تحقيق حمدي الدمرداش محمد، الطبعة  
 الأولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الفكر، بيروت.

الفلاح؟ قال: فحيّ هلا»<sup>(١)</sup>.

ومنذ ذلك اليوم لم يفكر أن تفوته صلاة الجماعة في المسجد مرة واحدة خلف رسول الله ﷺ. وقد اتخذته النبي الكريم مؤذناً يؤذن للصلاة مع بلال بن رباح، وكان له حدس صادق في معرفة طلوع الفجر، فيتوَّخاه ولا يخطئه إذا حان وقته، وعند ذلك يؤذن. أما بلال، فكان يؤذن بليل قبل طلوع الفجر بقليل ليوقظ النائمين، ولا نزال نجد هذين الأذنين في كثير من البلاد العربية والإسلامية: الأول لإيقاظ النائمين، والثاني لأداء صلاة الفجر، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بلالاً يؤذِّن بليل؛ فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أمّ مكتوم»<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت لابن أم مكتوم مكانة كبيرة عند رسول الله ﷺ، فكان يستخلفه في غزواته، فاستخلفه ثلاث عشرة مرة، منها: عند خروجه إلى (غزوة بدر)، و(فتح مكة) و(حجة الوداع)... وذلك من أجل أن يصلي بالناس.

### من فضائله:

ومن فضائل هذا الصحابي: أن الآيات التي نزلت في فضل المجاهدين على القاعدين - وكان فرض الجهاد على الكفاية آنذاك وليس على العين -، كان ابن أم مكتوم سبباً في إزاحة الضيق عن أولي الضرر من المسلمين. فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

(١) معجم الصحابة لابن قانع ١٠ / ٣٧٢٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان [باب أذان الأعمى إذا كان له من يخبره]، حديث ٦١٧، ص ١٠٢، ومسلم في كتاب الصيام [باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر]، حديث

٢٥٣٦، ص ٤٤٥.

كنتُ إلى جنب رسول الله ﷺ، فغَشِيَتْهُ السكينة، فوَقَعْتُ فخذ رسول الله على فخذِي، فما وَجَدْتُ ثِقَلَ شَيْءٍ أَثْقَلَ مِنْ فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ: «اكتب»؛ فَكَتَبْتُ فِي كَتْفِ: (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) إلى آخر الآية؛ فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غَشِيَتْ رسول الله ﷺ السكينة، فوَقَعْتُ فخذَه على فخذِي، ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، فقال: «اقرأ يا زيد»؛ فقُرِئَتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فقال رسول الله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ الآية كلها. قال زيد: فأنزها الله عز وجل وحدها فألحقتها، والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في كتف<sup>(١)</sup>.

### أهلاً بمن عاتبني فيه ربي:

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن ابن مكتوم كان رجلاً يحب العلم ويحرص عليه؛ لذلك كان كثير الحضور في مجلس رسول الله ﷺ. جاء يوماً إلى رسول الله ﷺ والرسول مشغول مع أئمة الشرك وقادة الحملة المسعورة ضد دعوته: عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي جهل عمرو بن هشام، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة، ومعهم العباس بن عبد المطلب، يدعوهم رسول الله إلى الإيمان الحق؛ لعل قلوبهم تتفتح للاعتقاد بالله الاعتقاد الصحيح، ولعل شعاعاً من نور يدخل في قلوبهم المظلمة فينيرها، فيتقبل هؤلاء دعوة الله بعد أن وقفوا

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الجهاد [باب الرخصة في القعود من العذر]، حديث ٢٥٠٧، ص ٤٤٠.

بطريقها يصدون الناس عنها؛ فكان صلوات الله وسلامه عليه طامعاً بإسلامهم: يُرغِّبهم ويُرهِّبهم، ويقيم لهم الأدلة بعد الأدلة على أنه رسول من رب العالمين.

أجل كان رسول الله طامعاً بإسلامهم، وطمعه ليس لمصلحة شخصية له ولا لقرابته، ولكن لمصلحة دعوة الإسلام؛ لأنَّ هؤلاء إن شرح الله صدورهم للإسلام فأسلموا؛ فإنَّ عقبات كأداء ستزاح من أمام دعوة الإسلام؛ إذ ستضوي تحت لواء هذا الدين أعداد كثيرة من الناس، وينتهي ذلك العذاب الذي كان ينصبُّ على المسلمين المستضعفين صباً أو يخف إن لم يرتفع كلياً...!

وبينا كان الرسول منشغلاً بدعوة هؤلاء إلى الإسلام يأتيه (ابن أم مكتوم) - وكان مكفوف البصر - فيقطع حديثه مع القوم، ويسأله أن يُعلِّمه مما علمه الله، ولم يكتفِ بسؤاله مرة واحدة، بل سأله أكثر من ذلك وألح عليه بالسؤال، وهو لا يعلم أنَّ رسول الله ﷺ مشغول بدعوة هؤلاء.

ويتمنى رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن السؤال ساعتئذ، فهو في أمر مهم، لكنه ظلَّ يسأل؛ وتخرج موقف الرسول الكريم، فعبَسَ في وجهه وأعرض عنه لا يُجيبه، وأقبل على مَنْ كان يتحدث معهم من كبراء قريش! فعاتبه الله تعالى عتاباً فيه لطف ورفق فقال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ۝٤ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْفَى ۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تُلَهَّى ۝١٠...﴾ [عبس: ١ - ١٠].

روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«أنزلت [عبس وتولى] في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني - قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين - قالت فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويُقبل على الآخر ويقول: أتري بما أقول بأساً؟ فيقول: لا. ففي هذا أنزلت [عبس وتولى]»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن نزلت هذه الآيات الكريهات، صار رسول الله ﷺ يُذنيه ويقربه أكثر من ذي قبل، ويجلسه بجانبه ويقول: أهلاً بمن عاتبني فيه ربي.

وهكذا تكون للمؤمن منزلة عظيمة عند الله وموازينه جلّ جلاله تختلف عن موازين الناس التي تنظر إلى نسب الإنسان وعشيرته، وإلى غناه أو فقره، وإلى قوته أو ضعفه، وإلى مكانته الاجتماعية وغير ذلك من الموازين، ويكفي في تبيان ميزان الإسلام أن جبريل عليه السلام نزل من ربه عز وجل بتلك الآيات التي يعاتب فيها رسوله الكريم.

### جهاده:

كان ابن أم مكتوم معذوراً في أمر الجهاد، وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بسببه، ومع ذلك فقد كان يسعى إلى حصول أجر المجاهدين، وذلك باشتراكه الفعلي في الجهاد، وخوض غمرات الموت، فكان يقول: (ادفعوا إليّ اللواء؛ فإني أعمى لا أستطيع أن أفرّ، وأقيموني بين الصفين). قال أنس بن

(١) رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن عن رسول الله ﷺ [باب: ومن سورة عبس]، حديث

مالك رضي الله عنه: كان مع ابن أم مكتوم يوم القادسية رايةً ولواءً<sup>(١)</sup>.

وروى ابن سعد عن أنس: أنّ عبد الله ابن أم مكتوم يوم القادسية كانت معه راية سوداء وعليه درع له<sup>(٢)</sup>.

وقال الواقدي: (شهد القادسية، ورجع إلى المدينة فمات بها)<sup>(٣)</sup>.

أما الزبير بن بكار فقال: (خرج إلى القادسية، فشهد القتال، واستشهد هناك، وكان معه اللواء حينئذ. وقيل: بل رجع إلى المدينة بعد القادسية فمات بها، ذكره البغوي)<sup>(٤)</sup>.

وقال الذهبي: ويُقال: استشهد يوم القادسية<sup>(٥)</sup>.

وقد يسأل سائل: كم كان عمره حين اشترك بحرب القادسية واستشهد فيها؟

قد يعجب الناس إذا علموا: أنه اشترك بهذه الحرب وعمره ثمانون سنة!

### الأحاديث التي رواها:

ذكر ابن حزم الأندلسي: أن ابن أم مكتوم روى عن النبي ﷺ ثلاثة

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١ / ٥٨٤، تحقيق: محمود فاخوري، ود. محمد رواس قلعه جي،

الطبعة الثانية ١٣٩٩ - ١٩٧٩، بيروت.

(٢) الطبقات الكبير ٤ / ١٩٨، وسير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٤.

(٣) الإصابة لابن حجر العسقلاني ٧ / ٣٣٢.

(٤) الإصابة ٧ / ٣٣٢.

(٥) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٥.

أحاديث<sup>(١)</sup>.

رضي الله عن الصحابي ابن أم مكتوم، فقد كان ذا هممة عالية، وسيرته تشحذُ  
الهمم، وتقوي العزائم، وهذا هو شأن صحابة النبي رضي الله عنهم، ويكفيهم  
شرفاً وفخراً ثناء الله عليهم في محكم كتابه العزيز، فقال تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وصدق الله العظيم.

\*\*\*

---

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ٢٦٨.



قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

صلة الآيتين بما قبلهما:

دعا الله عز وجل في الآيات السابقة لهاتين الآيتين الصحابة - وهو خطاب لكل مسلم - أن يتبينوا في جهادهم، فلا يقتلوا مَنْ نطق بالشهادة، وذلك بعد أن قتل المسلمون رجلاً نطق بها، وذلك للاحتراز عن الوقوع بالخطأ. ثم جاءت الآيتان الكريمتان - بعد ذلك - في فضل المجاهدين على القاعدتين؛ ليهتز لذلك القاعدون، ولئلا يصيب قلوبهم شيء من الفتور عن الجهاد.

التفسير:

تدعو هاتان الآيتان إلى الجهاد في سبيل الله؛ لئلا يتهاون المسلمون عن القيام به أو تركه؛ إذ - عند ذلك - يتغلب الأعداء على المسلمين فيستولون على أعراسهم وديارهم وأموالهم ويسومونهم سوء العذاب، فوق ما يُصيبهم من خَسْفٍ ومهانةٍ وذلة. لذلك لا يستوي القاعدون من المؤمنين - غير أُولي الضرر - الذين آثروا الراحة والدعة على التعب والنصب وركوب الأهوال... لا يستون مع المجاهدين الذين امتشقوا سيوفهم وحملوا رماحهم، وانطلقوا يجاهدون أعداء

الله، تاركين أولادهم وأموالهم وأهلهم وكل ما يعزّ عليهم، ويخوضون معامع الحروب وصليلُ السيوف يَصْكُ الأساع، ويُعرّضون أنفسهم للموت؛ ليحموا الأمة من الاعتداء عليها... فلا يستوي هؤلاء في الفضل مع القاعدين.

ومع ذلك، فإنّ القرآن الحكيم لم يُكفّر القاعدين عن الجهاد، ولم يتوعّدْهم بالعذاب الأليم، بل لم يعنفهم - مجرد تعنيف - لأنهم مؤمنون أولاً، ولأنّ قعودهم لم يكن عن نفاق ولا عن ضعف في دينهم، ثانياً؛ بل كان عن تراخٍ منهم فقد ساهم (المؤمنين)، ولأنّ هاتين الآيتين لما نزلتا على رسول الله ﷺ لم يكن الجهاد فرض عين، وإنما كان على الكفاية.

وقد نصّت الآية الكريمة على إيمانهم: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ..﴾، وكل ما هناك أنّ القرآن الحكيم عرّض بهم بشيء من التعريض، - ولو لم يكن الجهاد فرض عين آنذاك - لأنّهم فرطوا بما يؤدي إلى حرمان القاعدين من أجر عظيم، فجاءت الآية تستحثهم ليتلافوا ذلك التهاون بأمر الجهاد، فلا يستوي المجاهدون مع القاعدين من غير أولي الضرر.

أمّا (أولو الضرر)، فقد استثناهم القرآن من الجهاد وهم: أصحاب العاهات كالعمى والعرج وأصحاب الأمراض والعلل التي تعوق عن الجهاد، وحدّد القرآن الحكيم أصنافهم فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

وقال:

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْزًا أَلَا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].<sup>(١)</sup>

هؤلاء (أولو الضرر) غير مرادين بعدم مساواتهم مع المجاهدين بالأجر إذا كانت نياتهم صادقة في جهم اللحاق بإخوانهم المجاهدين لولا الضرر الذي هم فيه، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً، ولا أنفقتهم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك لصحابته:

(١) يعلق الشيخ محمد متولي الشعراوي على قوله تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْزًا... ﴾ فيقول: "تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، وكلمة (تولوا) هنا لها معنى كبير، فلم يقل الحق: إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولي، هم لا يدمعون أمام النبي، ولكنهم يدمعون في حالة توليهم، وهذا انفعال نفسي من فرط التأثر؛ لأنهم لا يشتركون في القتال، وكلمة (تفيض) تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها، فهم لا يصطنعون ذلك، لكن الانفعال يغمرهم؛ لأن الذي يصطنع ذلك يقوم بتعصير عينيه، ويبدل جهداً للمراءة، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم، فتفيض أعينهم من الدمع" تفسير الشعراوي ٤ / ٢٥٧٠ - ٢٥٧١. مطابع دار أخبار اليوم، القاهرة.

(٢) رواه أبو داؤد في كتاب الجهاد [باب الرخصة في القعود من العذر]، حديث ٢٥٠٨، ص ٤٤١.

«إِنَّ أَقْوَاماً بِالْمَدِينَةِ خُلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلَا وادياً إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا حِسْبَهُم  
العذر»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا المعنى ما قاله الشاعر وهو متشوق لزيارة بيت الله الحرام، وكانت  
أحوال قد حالت دون زيارته:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد      سيرتم جُسوماً وسرنا نحن أرواحا  
إنّا أقمنا على عُذرٍ وعن قَدَرٍ      ومَنْ أقام على عذرٍ كمن راحا

ويأتي - بعد ذلك - تفصيل ما أجمله القرآن من التفاضل بين الفريقين فقال:

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾

وقد قدّم القرآن في هذه الآية وغيرها الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ لأنّ  
الطبيعة البشرية جُبِلت على حبّ المال إلاّ مَنْ رحم ربك، وكثير من الناس  
يفقدون مروءتهم وكرامتهم، بل يلقون بأنفسهم إلى التهلكة ويفقدون حياتهم من  
أجل المال.

ويأتي فضل المجاهدين على غيرهم بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

والدرجة التي فضّل الله بها المجاهدين على القاعدين لفظ مستعار، يشير  
لذلك العلوّ المعنوي كقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]،

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير [باب: حبسه العذر عن الغزو]، حديث ٢٨٣٩،

والمراد بها علوُّ الفضل وعلوُّ المنزلة التي أعدها الله لعباده المجاهدين، ويحرم منها القاعدون.

وجاءت الجملة الاعتراضية ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ لتشير إلى أن هذه الدرجة يُختصُّ بها المجاهدون وحدهم، وأما ما سوى ذلك، فإنَّ المجاهد والقاعد في درجة واحدة؛ لأنَّ كلاً منهما فاز بفضيلة الإيثار، وأما (الحسنى)، فهي الجنة والثواب الجزيل الذي أعده الله لعباده المؤمنين.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل يأتي تأكيد القرآن على فضل المجاهدين مرة أخرى فيقول: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقد يسأل سائل: ما تفصيل ذلك الأجر؟

ويأتي الجواب: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وهكذا - مرة أخرى - يأتي تفصيل المجاهدين على غيرهم ممن ليست لهم أعذار بتلك المقامات العالية، مع مغفرة الله لهم على ما صدر منهم من ذنوب، والله سبحانه وتعالى كان - ولا يزال على الدوام - كثير المغفرة لعباده الصالحين.

ولفظ (غفور) صيغة مبالغة، وأما الدرجات، فهي المنازل بعضها فوق بعض، وجاء اللفظ القرآني (درجات) لِيُشْعِرَ بِعَظَمِ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ الَّتِي هِيَ شَرَفٌ عَظِيمٌ لَا يَحْدَهُ الْحَصْرُ.

وإذا كان القرآن الحكيم قد ذكر تفضيله للمجاهدين على القاعدين بـ (درجات)؛ فلأنَّ الجنة لم تكن بدرجة واحدة، بل هي بدرجات كثيرة، وقد نصَّ

رسول الله ﷺ على ذلك فقال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

وهناك من ذهب إلى أَنَّ القاعدين من (أولي الضرر) هم الذين حُرِّموا من تلك الدرجة التي نالها المجاهدون، لأنَّ المجاهدين يقاتلون أعداء الله فيقتلون ويُقتلون، وأما (أولو الضرر)، فقد جلسوا في بيوتهم، لا يُصيبهم ما أصاب المجاهدين من تعبٍ ونَصَبٍ... وأما تفضيل المجاهدين على القاعدين - من غير أولي الضرر - فكان بدرجات، وهذا ما ذهب إليه الإمام الزمخشري فقال:

(أما المُفَضَّلون درجة واحدة، فهم الذين فَضِّلوا على القاعدين الأَضْرَاءِ، وأما المُفَضَّلون درجات، فالذين فَضِّلوا على القاعدين الذين أُذِنَ لهم في التخلف اكتفاءً بغيرهم؛ لأنَّ الغزو فرض كفاية)<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير [باب درجات المجاهدين في سبيل الله]، حديث ٢٧٩٠ ص ٤٦٢، سمع الصحابة من رسول الله ﷺ هذا الحديث وهم يؤمنون كل الإيمان بكل ما يقوله رسول الله ﷺ - ومن ذلك الجنة بدرجاتها وما بين الدرجتين - والإنسان في عصرنا الحاضر أكثر قدرة على تصور ما بين الدرجتين بعد أن علم شيئاً عن أبعاد الكون.

(٢) تفسير الكشاف تأليف جار الله الزمخشري ص ٢٥٥.

## مهاجر أدركه الموت في طريق هجرته

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ [النساء: ٩٧]، فكان بمكة رجل يقال له: (ضمرة) من بني بكر وكان مريضاً؛ فقال لأهله: (أخرجوني من مكة فإني أجد الحر)؛ فقالوا: إلى أين نخرجك؟ فأشار بيده نحو المدينة؛ فنزلت هذه الآية: ﴿...وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].<sup>(١)</sup>

\*\*\*

(١) تفسير الطبري ٩ / ١١٨، حققه وعلّق حواشيه محمود محمد شاكر.

## ضمرة بن جندب رضي الله عنه

ضمرة بن جندب - وقيل ابن أبي العاص - وقيل غير ذلك: وقد اختلف باسمه، واسم أبيه على عشرة أوجه أو أكثر، ورجح التابعي عكرمة أن اسمه (ضمرة بن العيص) قال: طلبت اسمه أربع عشرة سنة حتى وقفت عليه<sup>(١)</sup>.

أسلم في مكة. ولما دعا رسول الله ﷺ صحابته للهجرة إلى المدينة، كان ضمرة شيخاً كبيراً، وكان مريضاً - في الوقت نفسه - ويبدو أنه أراد الهجرة إلى المدينة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إليها، لكنه كان يخاف قومه. وتمضي الأيام ويطلب من أبنائه أن يحملوه إلى المدينة المنورة على الرغم من كبر سنه ومرضه، ويستجيب الأبناء لهذا الطلب، لكنه لم يصل إليها، فحال الأجل دون وصوله إليها فمات في طريق هجرته في منطقة تدعى (التنعيم) بالقرب من مكة<sup>(٢)</sup>.

فعن سعيد بن جبير قال: كان رجل من خزاعة يقال له: ضمرة بن العيص ابن ضمرة بن زنباع لما أمروا بالهجرة، وكان مريضاً، فأمر أهله أن يفرشوا له على سرير ويحملوه إلى رسول الله ﷺ، ففعلوا، فأتاه الموت وهو في التنعيم، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]<sup>(٣)</sup>.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢ / ٣٠٢.

(٢) معجم الصحابة لابن قانع ٧ / ٢٧١٠.

(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٣ / ٧٠.



أما ابن الأثير، فقد ذكر أن عبد الرحمن بن عوف كتب إلى أهل مكة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَمْلَكْتُمُوهُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾...﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩]، فلما قرأها المسلمون قال ضمضم بن عمرو - وقال بعضهم ضمرة بن عمرو الخزاعي - والله لأخرجنَّ وكان مريضاً. وقال آخرون: عارض عمداً ليخرج فقال: أخرجوني من مكة، فقد آذاني فيها الحر، فخرج حتى انتهى إلى التنعيم، فتوفي؛ فأنزل الله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [النساء: ١٠٠] (١) الآية.

وفي رواية أخرى قال: (احملوني فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله

ﷺ) (٢).

\*\*\*

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٤٧٦.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٤٧٦.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

صلة الآية بما قبلها:

حذرت الآيات التي تقدّمت هذه الآية المسلمين عن القعود عن الهجرة عند القدرة عليها. أما المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يطيقون الهجرة، فقد بعث الله رجاءه لهم أن يعفوا عنهم. وجاءت الآية التي بعدها- وهي التي نتحدث فيها- لترغب المسلمين بالهجرة بتبيان ثوابها عند الله.

التفسير:

في الآية الكريمة تنويه بشأن الهجرة إلى الله ورسوله، وتنشيطاً للمسلمين المستضعفين في مكة، وحضّ لهم على اهتبال الفرصة المناسبة للالتحاق بإخوانهم في المدينة المنورة؛ فإن في هجرتهم إعلاءً لكلمة الله، ونصراً لدولة الإسلام.

والهجرة - بصفة عامة - هي لون من ألوان الجهاد في سبيل الله، ففيها من مخاطر الطريق أولاً، وفيها الخوف من المشركين؛ إذ لو أمسك بالمهاجر المشركون وهو في طريق هجرته، فقد يعودون به إلى مكة؛ ليظل رازحاً تحت سياط العذاب بُغية حمله على ترك دين التوحيد ثانياً، والهجرة بعد ذلك فيها ترك للأهل والأولاد والوطن لكن ذلك يهون أمام التمسك بدين الله وبنشره.

فإذا كان المشركون قد ألحقوا العذاب الشديد بمن آمن بالله واليوم الآخر،

ومنعواهم من إقامة شعائرهم الدينية وإعلان عقيدتهم أمام الناس، إن المؤمنين الصادقين بهجرتهم إلى المدينة تمكنوا من ضرب العدو وإذلاله، فهي انتقال من مرحلة من مراحل الدعوة إلى مرحلة أخرى.

والمهاجر الذي يخرج من بيته بنيته الخالصة لله: إما أن يصل إلى مبتغاه أو لا؛ فإن وصل إلى مبتغاه، فقد أرغم أنف أعداء الله وأذلمهم، وإذا أته منيته في الطريق وأدركه الموت، فيحظى بالنعيم السرمدي الدائم، وبهذا يكون قد نال إحدى الحُسنيين، وفي مقابل ما يلاقيه المهاجرون في سبيل الله من خوف وتعب ونصب، نجد إنعام الله عليهم يتجلى في الطمأنينة التي يقذفها في قلوبهم، ولا يكاد الواحد منهم يذكر شيئاً من العضلات التي لاقاها من غطسة المشركين، ولا التي عاناها في طريق هجرته، فقد ذهبت مع ما فيها من المآسي التي يشيب لها الولدان وكأنها لم تكن حين يصل المدينة المنورة ويلتقي رسول الله ﷺ وأصحابه.

### وجوب الهجرة قبل فتح مكة:

ولقد كانت الهجرة واجبة على المسلمين قبل فتح مكة، ولكن بعد أن فتحت في السنة الثامنة من الهجرة وأعزَّ الله دينه ونصر نبيه وصارت الناس تدخل في دين الله أفواجا... فلم تكن هناك حاجة إلى الهجرة إلى المدينة، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح. ولكن جهادٌ ونية وإذا استنفرتم فانفروا»<sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير [باب فضل الجهاد والسير]، حديث ٢٧٨٣، ص ٤٦١، ومسلم في كتاب الإمارة [باب: المبايعه بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير]، حديث ٤٨٣١، ص ٨٣٧.

على أن كلمة الهجرة بمعناها العام لم تكن محصورة بها ذكرناه، فهي تطلق على أشياء كثيرة منها: الهجرة في طلب العلم، والهجرة لنشر دعوة الإسلام، والهجرة في طلب الرزق، كما تطلق على هجر الذنوب والمعاصي، وقد قال رسول الله ﷺ: «المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»<sup>(١)</sup>.

### عطف كلمة الرسول على اسمه جلّ جلاله:

ونظر بالآية الكريمة، فنرى العليم الخبير عز وجل قد عطف (الرسول) على اسمه تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ وذلك ليشير إلى فضل الالتحاق برسول الله ﷺ في المدينة؛ لتقوية دولة الإسلام هناك. وقد فهم الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة هذا المعنى؛ فبادروا إلى الالتحاق برسول الله ﷺ في المدينة.

### سبب نزول الآية:

وهناك من المسلمين من ظلوا بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ، فلما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبِيَّةَ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان [باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده]، حديث ١٠،

وبعد أن نزلت هذه الآيات، أمر رسول الله ﷺ أن تُكتبَ، وأرسلها إلى المسلمين من أهل مكة، وكان (ضمرة بن جندب) مريضاً، فطلب من أبنائه أن يحملوه إلى المدينة.

ولنترك العلامة الألوسي ينقل لنا هذه الرواية عن سعيد بن جبير فيقول: (إنها نزلت في (جندب بن ضمرة)، وكان بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها، فقال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً؛ فمات بالتنعيم. ولما أدركه الموت أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك. ولما بلغ خبر موته الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ليته مات بالمدينة؛ فنزلت<sup>(١)</sup>.

وهذه الآية الكريمة - ولو أنها نزلت في شخص معين - تعم المسلمين كلهم في كل زمان وفي كل مكان، لأنها عامة في سياق الشرط، فلا يخصصها سبب النزول.

### موت الإنسان في طريق هجرته:

ونقف هنا أمام قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾. والموت من الحقائق الثابتة التي لا يجادل فيها أحد، وقد أخفى الله ميعاده، فلا يعرف الإنسان متى يموت.

---

(١) تفسير روح المعاني لأبي الثناء الألوسي ٦ / ٢٤٦ - ٢٤٧، الطبعة الأولى ١٤٣١، ٢٠١٠، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ولا ريب أن المهاجر في سبيل الله يحرص على أن يبلغ مكان هجرته، لكن الموت قد يقطع عنه ما يريد: فيموت في طريق هجرته، وهو بهذه الحالة قد وقع أجره على الله، ونال الثواب الجزيل من ربه عز وجل الذي تكفل بذلك، ولو مات بعد أن جاوز عتبة داره، ويكفيه أن يكون مخلصاً في هجرته، وقد قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»<sup>(١)</sup>.

وقال:

(مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)<sup>(٢)</sup><sup>(٣)</sup>.

## أجر المهاجر:

وقد يسأل سائل: ما مقدار ذلك الأجر الذي يحصل عليه المهاجر في سبيل الله؟

ويأتيه الجواب من رب العالمين: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وورد لفظ الأجر هنا مبهماً ليشير إلى عِظَمِ قَدْرِ ذَلِكَ الأجر. وَمَنْ الذي تكفل بهذا الأجر؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي [باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ]، حديث ١، ص ١.

(٢) وفي حكم هذه الآية وحكم ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث: أَنَّ مَنْ قَصَدَ الْقِيَامَ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَخْلَصاً فِي ذَلِكَ لَكِنَّهُ عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا، أَثَابَهُ اللَّهُ عَلَى نِيَّتِهِ ثَوَابَ الطَّاعَةِ كَامِلاً.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى)، حديث ٤٩٣٠، ص ٨٥٤.

إنه الله عز وجل، فقد جعله حقاً عليه، فأوجب على نفسه الكريمة المقدسة ذلك الأجر، والله تعالى هو الذي يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لأحد أن يوجب عليه شيئاً، فإن الحكم حُكْمُهُ والسلطان سلطانه.

### باب الهجرة مفتوح:

ولا يظنُّ أحد أنَّ الهجرة لا تكون إلاَّ في حياة رسول الله ﷺ، لا؛ فإنَّ باب الهجرة مفتوح، ويظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومنَّ عليها إذا تكالبت الخطوب على المسلم وعجز عن أن يقوم بشعائره الإسلامية، فيحق له الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، وهذا ما فعله عدد من صحابة رسول الله رضي الله عنهم مرتين من مكة إلى الحبشة لما اشتد الأذى والعذاب على من آمن بالله وبرسوله، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»<sup>(١)</sup>.

### تفسير الزمخشري للآية:

ويتحدث الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية فيقول:

(كل هجرة لغرض ديني - من طلب علمٍ أو حج أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة وزهداً في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب - فهي هجرة إلى

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ١٦٩٠٦، ص ١١١. قال محققه: حسن لغيره، وأبو داؤد في أول كتاب الجهاد (باب: ما جاء في الهجرة وسكنى البدو)، حديث ٢٤٧٩، ص ٤٣٥. قال محققه: حديث صحيح.

الله ورسوله، وإن أدركه الموتُ في طريقه فأجره واقع على الله<sup>(١)</sup>.

ونتأمل بالآية الكريمة، وبسيرة رسول الله ﷺ، فنرى وجوب الهجرة قبل فتح مكة، أما بعد أن فتحت في السنة الثامنة من الهجرة، وأعزَّ الله دينه ونصرَ رسوله، فلم تعد هناك حاجة لها وقد مرَّ بنا حديث رسول الله ﷺ:

«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا»<sup>(٢)</sup>.

### ختام الآية:

أما ختام الآية، فكان بمغفرة الله ورحمته بعباده ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، فهو عظيم المغفرة كان وما زال كذلك، يغفر لعبده ما فرط منه من ذنوب وزلات، بعد أن يتدارك العبد ما فاته من المعاصي بالتوبة الصادقة.. وهو سبحانه كثير الرحمة بعباده المؤمنين، شملهم بعطفه، وغمرهم بإحسانه، فقبل توبتهم وغفرَ ذنبهم، وتجاوز عن زلاتهم. وأما لفظا (غفور) و (رحيم) فصيغتان من صيغ المبالغة.

### لماذا شرعت الهجرة؟

هناك أسباب عديدة لمشروعية الهجرة منها ما يأتي:

١- تعرض المسلمون إلى الاضطهاد والتعذيب والقتل بُغيةً صدَّهم عن الإسلام وردَّتْهم عنه، فدعا رسول الله ﷺ إلى الهجرة، ليقوم المسلم بعبادته على

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ص ٢٥٦، وفتوح الغيب وهو حاشية الطيبي على الكشاف ٥/ ١٣٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: فضل الجهاد والسير)، حديث (٢٧٨٣)، ص ٤٦١، ومسلم في كتاب الإمامة (باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير)،

حديث ٤٨٣١، ص ٨٣٧.



وَفَقَّ شَرَعَ اللهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضْطَهْدَهُ أَحَدٌ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ إِذَا أُوْذِيَ وَعُذِّبَ يَرْتَدُّ عَنْ هَذَا الدِّينِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ يَعْبُدُ اللهُ فِيهِ عَلَى وَفْقِ شَرْعِهِ الشَّرِيفِ. فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، فَقَدْ يَصِيبُهُ الْإِثْمُ.

٢- تجب الهجرة من بلد ليس فيه علماء يرشدون الناس ويفقهونهم في أمر دينهم، فوجب على من كان عنده الكفاية أن يسافر إلى المدن التي فيها العلماء فيتعلم ويعود ليرشد قومه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإن لم يفعل ذلك من عنده الكفاية أصابه الإثم.

\*\*\*

## من أساليب التربية القرآنية

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

«يا أيها الناس، كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَقَامَ مُحْصَنُ الْأَسَدِيِّ<sup>(١)</sup> فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ ثُمَّ تَرَكْتُمْ لَضَلَلْتُمْ، اسْكُتُوا عَنِّي مَا سَكُتُ عَنْكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسْؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ! فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾» [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

وهناك روايات أخرى سنأتي على ذكرها في التفسير.

(١) بعد سند ابن جرير الطبري بسند واحد: فقام عكاشة بن محصن، ولعله الصواب.

(٢) تفسير الطبري رقم ١٢٨٠٥ و ١٢٨٠٦، ١١/١٠٥-١٠٧.

## عكاشة بن مُحصن رضي الله عنه

بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالإسلام لينقذ الناس من ضلال الكفر والشرك. بيد أن قريشاً وقفت من هذا الدين موقف الألدِّ الحَصِم، مدافعة عن وثنيها وشركها، عاملة على صدِّ الناس عنه بالترغيب والترهيب، ومع هذا فإن تلك الأساليب لم تمنع أناساً من ذوي الفِطْرِ السليمة، والعقول الراجحة، والأفكار النيِّرة أن يتبَيَّنوا بأنفسهم حقيقة ما جاء به رسول الله ﷺ، فأمنوا بهذا الدين مُتحدِّين الجاهلية وغطرستها، ومن هؤلاء شاب هو زين الشباب، عُرفَ بجمال طلعتة، وشجاعته وإقدامه، آمنَ بالله ورسوله منذ فجر الدعوة الإسلامية، فكان من السابقين إلى الانضواء تحت لواء الإسلام. ولا يظنُّ أحد أنه نجا من أذى المشركين بعد إسلامه، فقد أصابه ما أصاب غيره ممن آمن بالله واليوم الآخر، ولم يزدد بعد الذي أصابه إلا ثباتاً على هذا الدين وإصراراً على الدعوة إليه.

وتسألني مَنْ هذا الشابُّ الذي هذه صفاته؟

فأقول: إنه (عكاشة بن مُحصن بن حرثان الأسدي)، حليف بني عبد شمس ابن أمية، يكنى أبا مُحصن، أخوه أبو سنان بن مُحصن، وأخته أم قيس بنت محصن، وكان ممن بايع رسول الله ﷺ.

أسلم عكاشة، وقد صار من سادة الصحابة وفضلائهم الذين حملوا رسالة الإسلام لينقذوا الدنيا المعذبة، ويهدوا الإنسانية الحائرة، ويُعدُّ من فرسان رسول الله ﷺ، وفرسان خالد بن الوليد من بعده.

وتمضي الأيام، ويشتد الأذى على العُصبة المؤمنة من صحابة رسول الله، ولكنَّ الله سبحانه لا يترك صحابة نبيه يعذب بها العابثون بأنواع العذاب، فأذن لرسوله وللصحابة بالهجرة إلى المدينة.

وانطلق المسلمون في هجرتهم زرافاتٍ ووحدانا لا يلوون على شيء، وكان (عكاشة) ممن هاجر مع قومه (بني غنم بن دودان) رجالاً ونساءً، ليقدم للإسلام خدماته الجليلة في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

ولم تمض غير فترة ليست بالطويلة حتى انطلق رسول الله ﷺ بهجرته المباركة، ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وما أسعد عكاشة والصحابة الذين كانوا معه حين اكتحلت عيونهم برؤية نبيهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه!

ويستقر رسول الله في المدينة، ويقوم بالمؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فيؤاخي بين عكاشة والمجذّر بن زياد البلوي حليف الأنصار. وما هي إلا أسابيع ليست بالطويلة، حتى نجد رسول الله ﷺ قد اتخذ له أسلوباً جديداً في نشر دعوة الإسلام، فصار يرسل سراياه، ليعرف الناس بالإسلام أولاً، ويلقن كفار مكة دروساً قاسية، بعد أن تفتنوا بتعذيب من آمن بالله ورسوله الإيذان الحق.

لقد كان عكاشة - وهو ذلك البطل الشجاع المقدم - يمني نفسه بأن يكون واحداً ممن يرسلهم رسول الله ﷺ في السرايا التي يرسلها. وتحقق ما كان يتمناه، فأرسل الرسول الكريم سرية أمر عليها عبد الله بن جحش الأسدي ومعه ثمانية رهط من المهاجرين فقط، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكان عكاشة واحداً

منهم، وكانت هذه أوّل سرية أرسلها رسول الله ﷺ. وسارت السرية على بركة الله، وبصرت بعير لقريش يصحبها أربعة نفر، فقتلوا واحداً منهم وأسروا اثنين وفرّ الرابع، واستاقت السرية العير والأسيرين إلى المدينة، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون، وأول أسيرين أُسرا من المشركين.

وتمضي الأيام، وتقع (غزوة بدر الكبرى)، وكان (عكاشة) ممن أبلى فيها بلاءاً حسناً، فانطلق يضرب بسيفه المشركين يميناً وشمالاً حتى انكسر سيفه، ويأتي إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فيعطيه عرجوناً من نخل أو عوداً، فعاد في يده بإذن الله سيفاً، فعاد يقاتل به<sup>(١)</sup>. واستطاع في هذه الغزوة أن يقتل واحداً من فرسان المشركين وهو (معاوية بن عبد قيس)، وظل يقاتل حتى حقق الله نصره لعباده المؤمنين.

أما العرجون الذي أعطاه رسول الله ﷺ له، فظلّ معه يقاتل به في كل غزوة من الغزوات وسرية من السرايا، وكان يسمى (العون)، حتى أستشهد في حروب الردة.

وتأتي (غزوة أحد)، وتبدو بسالته وشجاعته وإقدامه فيها بصورة من أروع صور الشجاعة والبسالة، فكان يرمي بالنبل حتى فني كل ما كان معه منها. وهكذا الأمر في (غزوة بني قريظة): فقد أسرع لقتال اليهود، حتى حقق الله نصره لرسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٠٨.

وفي (غزوة ذي قرد)<sup>(١)</sup>، خرج الرسول الكريم ليردّ غارة (عيننة بن حصن)، وكان (عكاشة) من أوائل من لبّى نداء رسول الله ﷺ في هذه الغزوة. وهنا أبدى ضروباً من الشجاعة والإقدام، حتى صار مضرب الأمثال فيها، وقد قتل في هذه الغزوة (أوثار بن عمرو بن أوثار).

أما في (سرية الغمر)<sup>(٢)</sup>، فقد أمره رسول الله ﷺ عليها، ومعه أربعون من الصحابة، منهم: (ثابت بن أقرم) و (شجاع بن وهب) و (يزيد بن رقيش).

وخرج عكاشة بسرّيته مسرعاً، بيد أن القوم علموا بمجيئه، فهربوا قبل أن يصلهم. ولم يقف عند هذا الحد، بل بعث (شجاع بن وهب) يتحسس خبرهم، فعثر على رجل منهم كان ربيثة لهم، فأخذه، وقد أمّنه المسلمون إن دلّهم على نَعَمٍ للقوم، فدلّهم على نَعَمٍ لبني عمٍ له لم يعلموا بمسير المسلمين إليهم، فأغاروا على القوم، فانهمز الأعراب في كل وجه، وتركهم المسلمون فلم يلاحقوهم، فاستاقوا مائتي بعير، وكذلك النعم إلى المدينة، وأطلقوا سراح الرجل، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة.

### استشهاده:

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ظل عكاشة ذلك المجاهد في سبيل الله. وحين وقعت حركة الردة عن الإسلام وظهر المتنبيّين في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكذلك لما امتنع الناس عن أداء الزكاة، وقف أبو بكر

---

(١) ماء على نحو يوم من المدينة بينها وبين خيبر.

(٢) الغمر: ماء لبني أسد.

ذلك الموقف الحازم، فعقد أحد عشر لواءاً لمحاربتهم، وقال في مانعي الزكاة كلاماً وعاه سمعُ الزمن، (والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإنَّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها...) (١).

وكان فيمن ارتدَّ عن الإسلام وادعى النبوة (طليحة بن خويلد الأسدي)، تنبأ في قومه (بني أسد) و (غطفان)، وانضمَّ إليه من انضمَّ من قبيلتي (عبس) و(ذبيان).

أما عكاشة، فقد انطلق إلى (طليحة بن خويلد) مع ثلثة مؤمنة من الصحابة لتأديبه، وتحدَّث اللواء الركن (محمود شيت خطاب) رحمه الله عن كيفية قتل عكاشة فقال:

(أرسل خالد بن الوليد عكاشة و ثابت بن أقرم الأنصاري طليعة، فلقبهما (حبال) أخو طليحة فقتلاه، فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سلمة، فقتل طليحة عكاشة، وقتل أخوه ثابتاً ورجعا. فقد انفرد طليحة بعكاشة وسلمة بثابت، وكان ثابت وعكاشة فارسين: عكاشة على رأس فرسٍ يقال له: الرِّزام، وثابت على فرس يُقال له المحبَّر، فلم يلبث سلمة أن قتل ثابت بن أقرم، فصرخ طليحة لسلمة، (أعني على الرجل فإنه قاتلي)، فكَرَّ سلمة على عكاشة فقتلاه جميعاً...) (٢).

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: وجوب الزكاة)، حديث ١٤٠٠، ص ٢٢٥.

(٢) قادة النبي ﷺ تأليف: محمود شيت خطاب ص ٢٤٧، الطبعة الثانية ١٤٢٠-١٩٩٩، دار القلم

- دمشق، الدار الشامية - بيروت.

هكذا قُتِلَ عكاشة رضي الله عنه، وكان قتله سنة إحدى عشرة للهجرة!

## وماذا عن طليحة؟

ندم طليحة على ما كان من أمر رده، فعاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق، وبايع عمر بن الخطاب حين تولى الخلافة، ورجع إلى العراق مجاهداً في سبيل الله.

سُعدَ عكاشة ببشارة رسول الله ﷺ له بأنه واحد من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب. ولأهمية هذا الحديث وفائدته أذكره هنا كاملاً:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَأَجَدَ النَّبِيَّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفْرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشْرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ، هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتُبُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رِجْلِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ فَقَالَ: أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ مِنْهُمْ)، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرَ قَالَ: أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ، قَالَ «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ»<sup>(١)</sup>.

ويوم توفي رسول الله ﷺ كان عكاشة قد بلغ من العمر أربعاً وأربعين سنة، واستشهد بعد ذلك بما يقرب من سنة، فكان عمره حين أُسْتَشْهِدَ ما يقرب من

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث ٦٥٤١،



خمسة وأربعين سنة.

روى عنه من الصحابة: أبو هريرة وابن عباس. وذكر ابن كثير حديثاً له في كتابه (جامع المسانيد والسنن) في الجزء التاسع، في الصفحة ٢٤٩٨<sup>(١)</sup>.

رضي الله عن الصحابي عكاشة بن محصن، وجمعنا به في جنات الخلود،  
ويكفيه شرفاً وفضلاً أنه من صحابة رسول الله ﷺ الذين مات عنهم الرسول  
وهو راضٍ عنهم!

\*\*\*

---

(١) جامع المسانيد والسنن لابن كثير ٩/٢٤٩٨، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور:  
عبد المعطي قلعجي، الطبعة الثانية ١٤٢٣-٢٠٠٢ / دار الكتب العلمية، بيروت.

## كلام في الأسئلة الموجهة لرسول الله ﷺ

١- بعض ما ورد من روايات في أسباب النزول.

وردت روايات ليست بالقليلة في أسباب نزول هاتين الآيتين منها:

أ. ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس، فصلى الظهر، فلما سلّم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أنّ بين يديها أموراً عظيماً، ثم قال: (من أحبّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا...).

قال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: (النار)، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: (أبوك حذافة...)<sup>(١)</sup>.

ب. وجاء في بعض روايات الحديث أنه فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: (أبوك سالم مولى شيببة)<sup>(٢)</sup>.

ج. روى علي بن عبد الأعلى قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ﴾

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (باب: ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه)، حديث ٧٢٩٤، ص ١٢٥٤-١٢٥٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: وجوب اتباعه ﷺ)، حديث ٦١٢٥، ص ١٠٣٨.

الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله،  
 أفي كل عام؟ فسكت، ثم قال: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت»، فأنزل الله  
 هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَآمَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ  
 تَسْوُؤُهُمْ﴾<sup>(١)</sup> [المائدة: ١٠١].

ونجد واحداً من هؤلاء الثلاثة في الحديث الأول فضح نفسه  
 حين سأل: أين مدخلي؟ فأجابه رسول الله ﷺ أن مدخله في النار.  
 أمّا الإثنان الآخران، فكانا على خطر عظيم حين سأل كل واحد  
 منهما: مَنْ أبي يا رسول الله؟؛ ذلك لأنَّ أبا كلٍ من عبدالله بن حذافة  
 وسالم، لو كان غير الأب المعروف، لوقع كلاهما في خطبٍ كبير وحرص  
 عظيم.

ولقد عتبتُ والدة عبدالله بن حذافة على ابنها عبدالله عتباً شديداً  
 حين علمت أنه سأل رسول الله ﷺ عن أبيه فقالت له:  
 (ما سمعتُ بآبن قط أعقّ منك! أأمنت أن تكون أمك قد قارفت  
 بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟!)<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الرسول الكريم ينهى عن الأسئلة التي لا خير فيها:

وكما أن القرآن الكريم نهى عن الأسئلة التي إن تبدد للسائل تسؤوه، فكذلك

(١) تفسير الطبري ١١/ ١٠٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه...)،

حديث ٦١١٩، ص ١٠٣٧.

جاء نهي رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنها قد تكون سبباً في نزول آيات تفضح ما كان مستوراً، وقد يكون فيها تشديد على السائل وعلى غيره؛ لأن رسول الله ﷺ ما زال حياً بين أظهر الصحابة، وآيات القرآن تنزل عليه بين آونة وأخرى؛ فقد خشي الرسول الكريم أن تكون تلك الأسئلة سبباً في زيادة التكاليف، لذلك قال صلوات الله وسلامه عليه:

«أعظمُ المسلمين جُرمًا مَنْ سأل عن شيءٍ لم يُحَرِّم فَحَرِّم من أجل مسألته»<sup>(١)</sup>.

ونهى صلوات الله وسلامه عليه عما سكت عنه القرآن، وما سكت عنه الرسول الكريم فقال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدَعُوهُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال:

«إِنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ فرض فرائض فلا تُضَيِّعُوهَا، ونهى عن أشياء، فلا تنتهكوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا فيها»<sup>(٣)</sup>.

وقال:

«إِنَّ الله عز وجل حرَّم عليكم عقوق الأُمهات، ووَأَد البنات، ومنعاً وهات،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (باب: ما يكره من كثرة السؤال) حديث ٧٢٨٩، ص ١٢٥٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الحج (باب: فرض الحج مرة في العمر)، حديث ٣٢٥٧، ص ٥٦٤.

(٣) تفسير الطبري ١١ / ١١٤، والدارقطني والقرطبي وابن كثير..

وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»<sup>(١)</sup>.

وهناك أحاديث أخرى في هذا المعنى.

### ٣- ما كان عليه الصحابة بعد نزول الآيتين:

وبعد نزول الآيتين الكريمتين، وتوجيهات رسول الله ﷺ بهذا الشأن، نجد الاستجابة الكاملة من الصحابة لرسولهم الكريم من غير أن يسألوا عما لا فائدة فيه، فكان الواحد منهم يتلقى أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ فينفذها من غير تردد ولا تباطؤ، فهو كالجندي في تلقيه الأوامر، بعد أن أفلوا من الأسئلة إلا التي فيها خيرهم وصلاحهم ونفع المسلمين. وكم كانوا يُسرون حين يأتي رجل عاقل من أهل البادية يُحسن السؤال؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (ثمينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأل ونحن نسمع...)<sup>(٢)</sup>.

### ٤- الأسئلة المنهي عنها:

ليس كل سؤال نهى عنه القرآن الحكيم أو نهى عنه رسول الله ﷺ، وكم من أسئلة كثيرة تتعلق بشريعة الإسلام سئل عنها رسول الله ﷺ فأجاب السائلين: كأسئلتهم عن الإيمان والإسلام وأحكام فقهية يحتاج لها المسلم: كالنظر والوضوء والصلاة والصوم والزكاة والحج... فهذه الأسئلة وأمثالها يمدح صاحبها ولا يذم، وهناك أسئلة جاء النهي عنها، منها:

(١) رواه مسلم في كتاب الأقضية (باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة)، حديث ٤٤٨٣، ص ٧٦١.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: السؤال عن أركان الإسلام)، حديث ١٠٢، ص ٢٧.

أ. الأسئلة التي تضرُّ صاحبها، وتُلحق به الأذى إذا ظهر الجواب. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْوَأٌ﴾، مثال هذا مَنْ سَأَلَ عَنْ وَالِدِهِ مَنْ هُوَ؟ وكذلك مَنْ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيْنَ مَدْخَلِي؟ فَأَجَابَهُ فِي النَّارِ.

ب. أسئلة يُسأل عنها رسول الله ﷺ على وجه السخرية: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: مَنْ أَبِي؟ ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوَأٌ...﴾ [المائدة: ١٠١] حتى فرغ من الآية<sup>(١)</sup>.

ج. من سأل عن شيء فحُرِّم من أجل مسألته كسؤال ذلك الرجل للرسول الكريم حين قال رسول الله: إِنْ اللَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا؛ فيسأله الرجل: أَيْ كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فِيرُدُّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ: «لَوْ قَلْتُ نَعَمْ لَوْجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ ثُمَّ تَرَكْتُمْ لَضَلَلْتُمْ»<sup>(٢)</sup>.

د. أسئلة تتعلق بدقائق التكليف في الشريعة الإسلامية.

هـ. أسئلة لا يحتاج إليها في ذلك الوقت.

و. أسئلة تتعلق بصعاب المسائل، كما جاء في النهي عن الأغلوطات<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: [لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم]) حديث

٤٦٢٢، ص ٧٩٠.

(٢) مرَّ تخريجه.

(٣) الأغلوطات: هي المسائل المشككة التي يغالط بها الناس بعضهم بعضاً، فيهيج من وراء ذلك شرٌّ

وفتنة.

## ٥ - دعوة رسول الله ﷺ المسلمين إلى التفقه في الدين.

وهذا لا يعني أن رسول الله ﷺ نهاهم أن يسألوه عن أي سؤال كان، ونجد في أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه دعوته إلى السؤال. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر؛ فشجّه في رأسه [ثم احتلم]، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب - شك من الراوي - على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»<sup>(١)</sup>.

ولقد كتب ابن عبد البر باباً مطولاً في كتابه (جامع بيان العلم وفضله وذم من منع)، ذكر فيه أدلة كثيرة في مدح السؤال من أجل التفقه والاستفادة، واستهله بحديث رسول الله ﷺ الذي مر ذكره: «شفاء العي السؤال»، وأتبعه بقول عائشة رضي الله عنها: «رحم الله نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن»<sup>(٢)</sup>، وما أكثر الأسئلة المفيدة التي كان الصحابة يسألونها لرسول الله ﷺ عما في آيات القرآن وفي أحكامه، ومما كان يتحدث به عليه الصلاة والسلام مما لا يفهمه قسم من الناس فهذا كله لا يدخل في النهي عن السؤال، بل هو واجب؛

---

(١) رواه أبو داؤد في كتاب الطهارة (باب المجدور يتيمم)، حديث ٣٣٦، ص ٦٥. وقد قال رسول الله: «قتلهم الله» زجراً وتهديداً.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٣١٥، بتحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة العاشرة ١٤٣٣، دار ابن الجوزي، السعودية - القاهرة.

لأن آيات القرآن فيها تحليل وتحريم يحتاج إلى معرفتها المسلمون، فلا بد أن يُهرَعُوا إلى رسولهم الكريم ليفسر لهم ما احتاجوا إلى تفسيره.

## ٦- سؤال عمر بن الخطاب في الخمر.

ولقد كان من الصحابة مُحدِّثون (مُلهمون) ينظرون إلى ما فيه الضرر فيسألون الله أن يبين لهم بياناً شافياً فيه، من هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يعلم ما في تعاطي الخمرة من ضرر كبير وشر مُستطير، وقد رأى المجتمع آنذاك قد تعارف على معاقرة الخمرة وصارت جزءاً من حياة الناس، فلما أنزل الله تعالى قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْلَفِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، دعا الله عمر بن الخطاب، وكرّر الدعاء: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً). وهكذا حتى انتهى التشريع بتحريم الخمر تحريماً قاطعاً.

## ٧- مختصر ما يجوز وما لا يجوز من الأسئلة.

ولقد اختصر الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي فيما يجوز وما لا يجوز من الأسئلة فقال:

(قال أهل العلم: الذي يجوز أن يُسأل عنه هو ما يجوز أن يُعمل عليه في أمر دين أو دنيا، والذي لا يجوز أن يُسأل عنه؛ هو ما لا يجوز أن يُعمل عليه في أمر دين أو دنيا...)<sup>(١)</sup>.

(١) التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي ٧/ ٥٤٩ بتحقيق: د. عبد العزيز سظام آل سعود و د. تركي بن سهول العتيبي، دار المصور المصري، الإسكندرية.



## ٨- ابن عباس ومسألة سؤال الصحابة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيتُ قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبِضَ، كلُّهن في القرآن، منهن، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال: ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم<sup>(١)</sup>.

وهذا الذي ذكره ابن عباس يتعلق بالأسئلة التي توجهت إلى رسول الله ﷺ، ونزلت فيها أجوبة عن تلك الأسئلة في القرآن هي ثلاث عشرة مسألة فقط. أما أسئلة الصحابة للرسول الكريم مما لم تنزل فيها آيات فهي كثيرة كثيرة لا تكاد تحصى، ومن أراد أن يعرف شيئاً عنها، فليقرأ الثلث الأخير من الجزء الرابع من كتاب (إعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن قيم الجوزية، ففيه كثير من الأسئلة التي وجهها الصحابة لرسول الله ﷺ.

\*\*\*

---

(١) سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، حديث ١٢٥، ص ٥٤، بتحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧، دار المصطفى، دمشق.

قال الله تعالى:

﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن نَسَّأُوا عَنْهَا  
حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن  
قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

### صلة الآيتين بما قبلهما:

وظيفة رسل الله تبليغ دين الله إلى الناس. وبعد تبليغ الرسل يصير كل واحد ممن بلغتهم الدعوة مسؤولاً عن قبول الدعوة أو رفضها، وهذا ما نصت عليه الآية التي تقدمتها: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغٌ﴾. وهذا البلاغ الذي يقوم به الرسول يجب على المؤمنين به أن ينقادوا له باطناً وظاهراً. أما ما لم ينص عليه الله تعالى في قرآنه ولم ينص عليه رسول الله ﷺ أيضاً، فلا يجوز للمسلم أن يخوض به ويسأل أسئلة قد تكون سبباً في كثرة التكاليف التي يشق على الناس العمل بها.. وحينذاك يكون السائل سبباً في تشريع تكاليف ينوء بحملها هو وغيره من المسلمين على مدى الدهور والأحقاب.

### التفسير:

هاتان الآيتان أسلوب من أساليب تربية الله لصحابة نبيه ﷺ، حاملة الأدب اللبّاب الذي يجب أن يكونوا عليه مع رسولهم الكريم في تلقي آيات الله، وأحاديث رسوله ﷺ: فهي تدعوهم إلى أن يقفوا على ما ينزل من آيات القرآن على رسوله، من غير أن يتمحلوا في أسئلة لا منفعة لهم فيها، إذ قد تؤدي إلى التضيق والتشديد عليهم بكثرة التكاليف في عهد رسول الله ﷺ، ويستمر

التشديد على الأمة في كل عهد من العهود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.  
يتحدث ابن كثير في تفسيره للآية الأولى فيقول:

(تأديبٌ لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم في  
السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور، ربما ساءت لهم، وشق  
عليهم سماعها)<sup>(١)</sup>.

بدأت الآية الكريمة الأولى بذلك النداء الإلهي لعباده المؤمنين الذين آمنوا  
بعلم الله وحكمته، واستقرّ في سويداء قلوبهم أن الله تعالى من أسماؤه الحسنی  
(العليم) (الحكيم)، فإذا أمر بشيء فلحكمة أمر بها، وإذا نهى عن شيء فلحكمة  
نهى عنها، وإذا سكت عن شيء فلحكمة سكت عنها. وتوجيه خطاب الله تعالى  
للذين آمنوا، لأنهم هم الذين يستجيبون لكل ما يأمر به الله من الأوامر، ويتتهون  
عن كل ما نهى عنه من النواهي، ويأتي النهي من العليم الحكيم عن سؤال نبيهم  
محمد ﷺ عما سكت عنه سبحانه في القرآن، فكان سكوته عن قسم من الأحكام  
رحمة بالمسلمين من غير نسيان، فلا تسألوا عما سكت عنه القرآن، وسكت عنه  
رسول الله ﷺ، إذ السؤال عن المسكوت عنه يؤدي بالسائل وبغيره من المسلمين  
إلى التشديد والتضييق والخرج.. والسبب في ذلك: أن رسول الله ﷺ ما زال حياً  
بين أظهر الصحابة، وآيات القرآن تنزل عليه بين آونة وأخرى، فقد تنزل آيات  
فيها تشديد على السائل وعلى المسلمين تبعث على إعناتكم وخرجكم وحزنكم  
﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سؤُوكُمْ﴾

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٦.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾، فمعناه  
- والله أعلم -:

أنَّ ما تسألون به نبيكم عن أمور سكت عنها القرآن قد تترتب عليها أحكام  
فيها شدة عليكم وعلى المسلمين مدى الدهر، وذلك بإيجاب ما لم يكن واجباً،  
وتحريم ما لم يكن محرماً، وتكون الصورة أمامكم واضحة حين ينزلها الله في  
القرآن، وعند ذاك يكون كل واحد منكم مُلزماً بالعمل بها، وقد تستثقلونها فلا  
تستطيعون القيام بها، ولو سكتكم فلم تسألوا الأسئلة التي لا خير فيها لما أوقعتم  
أنفسكم بالشدة والحرَج؛ فلا تسألوا عن شيء سكت عنه كتاب الله، وسكت عنه  
رسول الله ﷺ.

وَذِيَلَّتْ الآيَةُ بِعَفْوِ اللَّهِ عَمَّا صَدَرَ عَنْكُمْ مِنْ أَسْئَلَةٍ لَا خَيْرَ فِيهَا، وَهُوَ سَبْحَانَهُ  
وَاسِعَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، فَلَمْ يُوَاخِذْكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ قَبْلَ نَزْوْلِ النَّهْيِ فِي الآيَةِ؛  
لِسَعَةِ مَغْفِرَتِهِ وَعَظِيمِ حِلْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ جَهَالَتِكُمْ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ  
حَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

وهناك من ذهب إلى أن معنى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾: أي: تَرَكَهَا ولم يذكرها في  
كتابه الكريم.

(١) العفو مأخوذ من عَفَى الأثر: أي: أذهب الأثر.

غفور: صيغة مبالغة من غفر.

حليم: هو الأناة والتؤدة، وقد وصف الله نفسه بالحلم لأنه تعالى لا يُعَجِّلُ بِعَقُوبَةِ  
الْمُعْتَدِي، فلا يستفزه عصيان العاصين، ولا جحود الجاحدين.

وتتمة لتبيان علة النهي عن تلك الأسئلة التي نهى الله عنها، جاء قوله

تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

هكذا ذكر العليم الحكيم أمماً تقدمت الأمة الإسلامية في الزمن، سألوا أنبياءهم ورسولهم أسئلة شددوا بها على أنفسهم، فلما استجاب الله لسؤالهم وفرضه عليهم، شق ذلك عليهم فلم يعملوا به! وبلغ الأمر ببعضهم أن قال: هذه ليست من عند الله؛ فصاروا من الكافرين.

وَمَنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ؟

نقل الألوسي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: (هم قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، سألوا إنزال المائدة، ثم كفروا بها، وقيل: هم قوم صالح عليه السلام، سأله الناقة، ثم عقروها وكفروا بها. وعن مقاتل: هم بنو إسرائيل مطلقاً، كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أخبروهم كذبوهم)<sup>(١)</sup>.

وبنو إسرائيل هم الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، وأماننا ما حكاه القرآن الكريم على لسان سيدنا موسى عليه السلام لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، هكذا جاء اللفظ القرآني (بقرة) بصيغة النكرة، فتشمل الآية أية بقرة كانت من غير أوصاف ومن غير شروط وقيود، لكنهم صاروا يسألون عن أوصافها: ما هي؟ ما لونها؟... وبعد كل سؤال يُشددُ الله عليهم في الأوصاف. وبنو إسرائيل هم الذين قالوا لنبِيِّهم: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا

(١) تفسير الألوسي المسمى بـ (روح المعاني) لشهاب الدين أبي الثناء محمود بن عبد الله الألوسي

البغدادى ٧/ ٤٤٣، حقق هذا الجزء: ماهر حبوش.

نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٤٦﴾، ولما استجاب الله لما طلبوه وكتب عليهم القتال نكصوا على أعقابهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ﴿البقرة: ٢٤٦﴾، ومما قالوه عمن بعثه الله إليهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ ﴿البقرة: ٢٤٧﴾. لقد كانوا يسألون أنبياءهم عن أمور لم تكن واجبة عليهم، فلما وجبت من أجل أسئلتهم، خرجوا عن طاعة ربهم لما استثقلوا العمل بالأحكام التي سألوا عنها، فجدد من جحد منهم أنها من عند الله، فلم يعملوا بها، وضلوا ضلالاً كبيراً. ولقد جاء اللفظ القرآني هنا (قوم) - بالتنكير -: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فلم يذكر القرآن اسم القوم ولا جنسه ولا محل إقامته؛ لأن المراد النهي عن التشبه بهم في أسئلتهم وليس المهم ذكر أسمائهم وأجناسهم ومحل إقامتهم. وهناك التفاتة بديعة في الآية ذكرها الشيخ محمد سيد طنطاوي فقال:

(وقوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، يؤذن بأنهم قبل السؤال عن تلك الأشياء، أو قبل الخوض في تلك الأسئلة لم يكونوا كافرين، ولكنهم أصبحوا بسبب الخوض فيها والتفتيش عنها كافرين، لأنهم لم يمثلوا ما أجيئوا به، وإنما نبذوه وراء ظهورهم)<sup>(١)</sup>.

وهكذا نرى الآيتين الكريمتين تنهيان كل مسلم في كل زمان ومكان عن الأسئلة التي لا فائدة فيها، والتي تسيء إلى السائلين أو إلى غيرهم ولا تنفعهم. ولو سكت هؤلاء فلم يسألوها، لكان خيراً لهم.

(١) التفسير الوسيط للشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي ٤/ ٣١١-٣١٢.

## استعلاء الإيمان

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٣].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢]، قال: نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا: لا تُدْنِ هؤُلاءِ<sup>(١)</sup>.

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام: ٥٢] قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة "باب: في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه"،

حديث ٦٢٤٠، ص ١٠٦٤.

النبي ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ وَقَالُوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: (نعم) قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> [الأنعام: ٥٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرّ الملاء من قريش بالنبي ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾<sup>(٢)</sup> [الأنعام: ٥٢].

\*\*\*

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (باب: مجالسة الفقراء)، حديث ٤١٢٧، ص ٦٠٢، والطبراني في معجمه الكبير، حديث ٣٦٩٣، ٤/٧٥-٧٦، وحلية الأولياء لأبي نُعَيْم، حديث ٤٨٢، ١/١٩٧-١٩٨، وابن أبي حاتم في تفسيره، حديث ٧٣٣١، ٤/١٢٩٧، وغيرهم.

(٢) رواه الطبري في تفسيره، حديث ١٣٢٥٥، ١١/٣٧٤.



## خَبَابُ بِنِ الْأَرْتِ رضي الله عنه (١)

خَبَابُ بِنِ الْأَرْتِ بِنِ جَنْدَلَةَ بِنِ سَعْدِ بِنِ خَزِيمَةَ التَّمِيمِي، كُنِيَّتُهُ: أَبُو يَحْيَى، وَقِيلَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ عَرَبِيٌّ أَصِيلٌ، وَقَدْ وَقَعَ فِي السَّبْيِ فِي مَقْتَبَلِ حَيَاتِهِ، فَبِيعَ فِي مَكَّةَ، - وَالْعَبِيدُ تُبَاعُ وَتُشْتَرَى أُنْدَاكُ - فَذَاقَ مَرَارَةَ الْعَبُودِيَّةِ مَدَّةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ مِنَ الزَّمَنِ. وَلَمَّا أَشْرَقَ نُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْوُجُودِ، فَكَانَ سَادِسَ مَنْ أُسْلِمَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: أَنْتَ سُدْسُ الْإِسْلَامِ: أَيُّ سَادِسِ الْمُسْلِمِينَ.

عَاشَ خَبَابُ حَيَاتَهُ الْأَوَّلَى فَقِيرًا، لَكِنَّهُ كَانَ غَنِيًّا بِإِيْمَانِهِ، فَصَارَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِيهِ وَفِي إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

عَاشَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَاعِيَةً مِنْ دَعَاةِ الْإِسْلَامِ، يَهْتَبِلُ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ فَيُنَشِّرُ بِهَذَا الدِّينِ، وَيَتْلُو عَلَى النَّاسِ مَا حَفِظَهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَمِمَّا تَعَلَّمَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ سَعِيدًا بِنِ زَيْدٍ وَزَوْجَهُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْخَطَّابِ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللَّهُ قَلْبَيْهِمَا لِلْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَا، وَفَاجَأَهُمَا عَمْرُ بِنِ الْخَطَّابِ - وَكَانَ أَنْتَدُ مُشْرِكًا - فَاخْتَفَى خَبَابُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الدَّارِ. وَلَمْ يَكُنْ خَبَابُ جَبَانًا فَقَدْ تَحَمَّلَ مَا تَحَمَّلَ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي أَذَى لِأَهْلِ ذَلِكَ

(١) عَنْ كِتَابِنَا: صَحَابَةُ دَفَنُوا فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ ص ٧٨-٨٢، ط: دَارُ عَمَارِ.

الدار، وكان أول من أظهر إسلامه مع أربعة من الصحابة هم: أبو بكر الصديق، وبلال بن رباح، وصهيب الرومي، وعمّار بن ياسر<sup>(١)</sup>. أمّا أبو بكر، فدافع عنه قومه (بنو تيم) ولم يسلموه للأذى، وأمّا الآخرون، فقد تفنن المشركون في تعذيبهم.

ويتحدّث عمرو بن العاص رضي الله عنه عن تعذيب بلال فيقول: (مررت ببلال وهو يُعذب في الرمضاء - أي في الرمل الشديد الحرارة من الشمس - ولو أنّ بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى. وأمّية ابن خلف مغتاظ عليه، فيزيده عذاباً فيقبل عليه فيدغت في حلقة، فيغشى عليه، ثم يفيق)<sup>(٢)</sup>.

أمّا خبّاب، فقد أوغل المشركون في تعذيبه أيضاً، فروى شيئاً مما لاقاه من المشركين فقال:

(لقد رأيتني يوماً، وقد أوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجله على صدري، فما اتقيت الأرض إلا بظهري، ثم كشف خبّاب عن ظهره، فإذا هو قد برص)<sup>(٣)</sup>.

ويجتمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدد من الصحابة - وفيهم خبّاب - فيسأل عمر خبّاباً عمّا لقي من المشركين فيقول: (يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فنظر فقال: ما رأيت كالיום! قال خبّاب: أوقدت لي نار وسحبت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٤.

(٢) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحي ٢/ ٣٥٧. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، الطبعة الثانية ١٤٢٨-٢٠٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٥٩.

عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهري<sup>(١)</sup>. والودك: هو دسم اللحم والشحم.  
لقد كان خباب حداداً يصنع السيوف، فلما أُخبرت مولاته (أم أنهار) بإسلامه، فكانت تأخذ الحديدة المحمّاة فتضعها على رأسه؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا النبي ربّه فقال: «اللهم انصر خباباً». ولما كانت دعوة رسول الله ﷺ مستجابة، فقد اشتكت مولاته (أم أنهار) رأسها، فكانت تعوي مثل الكلاب؛ فقبل لها: اكتوي؛ فكان خباب يأخذ الحديدة المحمّاة فيكوي بها رأسها<sup>(٢)</sup>.

ولقد نزلت آيات كريمة بسبب حادثة وقعت لخباب، فقال: رضي الله عنه:  
(كنت قيناً في الجاهلية - أي حداداً أصنع السيوف - وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ. فقلت: لا أكفر حتى يميئك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك؛ فنزلت: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۗ ﴿٧٩﴾ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠].

ويمضي الزمن، ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ويهاجر خباب، ويؤاخي رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فأخى بينه وبين تميم مولى خراش بن الصمّة، وقيل: أخى بينه وبين جبر بن عتيك.

(١) الاستيعاب ٢/ ٢٢.

(٢) أسد الغابة ٢/ ١٠٣.

(٣) الصحيح المسند من أسباب النزول، تأليف: مقبل بن هادي الوادعي ص ١٥٢، والحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولما أذن الله لرسوله بمقاتلة المشركين، رأينا (خباباً) يشهد (غزوة بدر) و(غزوة أحد)، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وحين انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربّه، ظلّ خباب ذلك المجاهد في سبيل الله، وكانت له مكانته المرموقة التي يتطلع لها كثير من الناس عند الخلفاء الراشدين، فهم يجلبونه، وله مكانة في قلوبهم وفي مجالسهم.

ولقد أُصيب رضي الله عنه في آخر عمره بمرض شديد، كان يتمنى فيه الموت، ولكنه لا يدعو به لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك. فعن قيس بن أبي حازم قال: (دخلنا على خباب، وقد اکتوى سبع كيات في بطنه؛ فقال: لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به)<sup>(١)</sup> وكان الله عز وجل أراد أن يبتليه هذا الابتلاء لتزداد منزلته رفعة يوم القيامة.

ولما حان وقت الرحيل إلى الدار الآخرة، أوصى أن يدفن في ظاهر (الكوفة)، وكان الناس - آنذاك - يدفنون موتاهم في أفنيتهم وعلى أبواب دورهم، فهو أول من دُفن في ظاهر المدينة، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين من الهجرة، ثم تتابع الناس بدفن موتاهم هناك؛ اقتداءً بخباب، فقد عاش ثلاثاً وسبعين سنة.

ومرّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد رجوعه من (صفين) بباب (الكوفة)، فرأى قبوراً سبعة فسأل: ما هذه القبور؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين: (إنّ خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك إلى صفين، وأوصى أن يدفن في ظهر الكوفة،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: كراهية تمّني الموت لضر نزل به) رقم ٦٨١٧، ص

وكان الناس إنما يدفنون موتاهم في أفنيتهم، وعلى أبواب دورهم؛ فلما رأوا خبباً أوصى أن يدفن بالظهر دفن الناس؛ فقال علي: رحم الله خبباً، لقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً، ثم دنا من القبور فقال: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، أنتم لنا سلفٌ فارط، ونحن لكم تبعٌ، عما قليل لاحق، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله عز وجل<sup>(١)</sup>.

روى عن النبي ﷺ اثنين وثلاثين حديثاً<sup>(٢)</sup>. ومن الأحاديث التي رواها قال: (هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله: فمننا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير، قُتل يوم أُحد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة، فكُنّا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجله خرج رأسه؛ فقال رسول الله ﷺ «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجله الإذخر» ومننا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها<sup>(٣)</sup>. يعني: يجتنيها. وروى عنه ابنه عبد الله، ومسروق، وقيس بن أبي حازم، وشقيق، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل، والشعبي، وغيرهم.

رضي الله عن خبّاب، وحشرنا يوم القيامة معه.

\*\*\*

(١) المعجم الكبير للطبراني، رقم ٣٦١٨، ٥٦/٤، ومعنى فارط: سابق.

(٢) أسماء الصحابة الرواة ص ١٠٠.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنائز (باب: في كفن الميت) رقم ٢١٧٧، ص ٣٧٩.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٣].

### صلة الآيتين بما قبلهما:

أذَرَ اللهُ تعالى في الآيات السابقة لهاتين الآيتين مَنْ يُحْشُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رِبِّهِمْ، سواء كانوا من المشركين أم من أهل الكتاب. فجاءت الآيتان تنهى رسول الله ﷺ أن يكون الإنذار سبباً في طرد الضعفاء من المؤمنين من مجلس رسول الله طمعاً بإسلام سادة وكبراء المشركين.

### التفسير:

تحدثنا السيرة النبوية أن أكثر من آمن بالله واتبع رسول الله محمداً ﷺ في فجر البعثة النبوية كانوا من ضعفاء الرجال والنساء والعييد والإماء، ولم يتبعه إلا القلة القليلة من الأشراف، وكان سادة قريش وكبراءها يعيرون المسلمين بهذا. وحين نتأمل بهذا الأمر، نجد أن رسول الله ﷺ ليس بدعاً من الأنبياء والرسل، فكان أكثر من اتبعه من الضعفاء والعييد والمساكين، وقد حكى لنا القرآن ما قاله قوم نوح لنيبهم نوح عليه السلام: ﴿ أَنْوْمُنْ لَكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، ويجيبهم سيدنا نوح قائلاً لهم - كما حكى القرآن - : ﴿ قَالَ وَمَا عَلِيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١١٢] إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا

إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ [الشعراء: ١١٢ - ١١٥].

ونرى مثل هذه النظرة للفقراء والضعفاء الذين آمنوا بنبي الله نوح عليه السلام تتكرر في القرآن قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أُتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ...﴾ [هود: ٢٧].

ويبدو أن نظرة السادة والزعماء المزدرية للضعاف والعيبد والفقراء، عانى منها أنبياء الله ورسله: فهي صفة مشتركة بين تلك الأقوام، فكانت القِيم عندهم تقاس بالمكانة الاجتماعية والدرهم والدينار، ولا تقاس بميزان تقوى الله التي هي الأصل الأصيل لدى العقلاء من الناس. وقد سبق القرآن الحكيم الأمم كلها والشعوب أجمعها لما قرّر الميزان الذي يجب أن يزن بها الناس قال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٣].

### سادة قريش يأبون الجلوس مع المسلمين المستضعفين:

ولقد كان من كفار قريش وزعمائها وقادتها وعلية القوم فيها من الذين آتاهم الله الغنى والجاه والسيادة والقوة من يتردد على رسول الله ﷺ يحاورونه في أمر الدين الذي أكرمه الله به. وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً على هداية أي إنسان كان ودخوله في الإسلام، لينقذه الله من نار الجحيم. كانت هذه مهمته. ونظر في أعراف الجاهلية - آنذاك - فنرى سادتهم وكبراءهم يحرصون على أن تكون لهم مكانة مرموقة في ذلك المجتمع، يتباهون بها أمام العرب، ويأتي الملاء من

قريش، فيجدون رسول الله ﷺ جالساَ مع عدد من ضعفاء المسلمين ومن العبيد من أمثال صهيب الرومي وبلال الحبشي، وعمار بن ياسر، وخبّاب بن الأرت، فتثور الحمية الجاهلية في نفوسهم، ويأبون الجلوسَ معهم، فيطلبون من رسول الله ﷺ أن يطردهم عن مجلسه، فلم يستجب رسول الله لهم، ويطلبون منه مرة أخرى أن يختصهم بمجلس ليس فيه أحد من الضعفاء والعبيد، إذ كيف يقعدون معهم وهم عِليةُ القوم يُشارُ إليهم بين العرب بالبنان؟! وكأنَّ رسول الله ﷺ مال قلبه إلى ما اقترحوه عليه، لعلَّ الله يهديهم للإيمان، وليس من أجل مكانتهم الإجتماعية، فكانت مصلحة الدعوة الإسلامية تقتضي ذلك في الظاهر. وأما الصحابة المستضعفون، فلا يجدون في ذلك ضيراً لعلَّ الله يهديهم لهذا الدين.

لقد حرص رسول الله ﷺ على هداية هؤلاء؛ لأنهم إن شرح الله صدورهم للإسلام انزاحت من أمام المسلمين المستضعفين عقبة كأداء، فلا يتعرض لهم أحد من المشركين بسوء، وعند ذاك تأخذ دعوة الإسلام طوراً جديداً في انضمام الناس تحت لواء هذا الدين، لكنَّ ميزان الله غير ميزان البشر: ميزان الله قواعد ثابتة، الناس فيها سواسية، فلا فضل للأغنياء على الفقراء، وهذا أصل من أصول هذا الدين. وقد علم الله أن هؤلاء المستضعفين أقبلوا على هذا الدين بنية خالصة له وحده، فهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ﴿لذلك جاء نهي الله لرسوله عن الاستجابة لما اقترحه المشركون؛ ونرى نهي الله لرسوله هنا جاء بأسلوب فيه ما فيه من الشدة، يدل على هذا اللفظ القرآني (الطرد): ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾. والطرد: هو الإبعاد، وطرده: أبعدته، مع أن رسول الله ﷺ حتى لو استجاب للمشركين لم يطردهم،



وجاء الأسلوب القرآني بهذا اللفظ؛ ليشير إلى تأكيد هذا النهي عن الاستجابة لهم، فإن انتصار دين الله لا يتوقف على إيمان الطغاة المتجبرين المتكبرين، فالله غني عنهم، ينصر دينه بغيرهم. وتُظهر الآية الكريمة أيضاً المنزلة العالية التي تبوأها الضعفاء من المؤمنين عند الله فهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. وهذه شهادة من الله تعالى للضعفاء والفقراء من الصحابة الذين عمر الله قلوبهم بالإيمان. فأين هؤلاء المؤمنون الصادقون من هؤلاء الذين غرقوا في التكبر عن طاعة الله وطاعة رسوله إلى الأذقان؟! إن مجالسة المؤمنين الصادقين لرسول الله أولى من مجالسة القساة المتكبرين من المشركين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِزْهِيمِ لِّلَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨].

### يدعون ربهم بالغداة والعشي:

ومن صفات المؤمنين الصادقين من المستضعفين: أنهم أعلنوا إيمانهم على الملأ فلم يكتموا، ويتوجهون إلى الله بالعبادة وليس لغيره، ولا يريدون من ذلك غير رضوان الله وحده:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. والمراد بالدعاء هنا: العبادة. والغداة: كناية عن النهار، والعشي كناية عن الليل. وقيل: الغداة: أول النهار، والعشي من زوال الشمس عن وسط السماء - أي الظهر - إلى الصباح. فهم يعبدون ربهم بالنهار والليل كما يقول القائل: الحمد لله بكرة وعشياً. وقد شهد الله عز وجل لهؤلاء الضعفاء والعبيد ممن كانوا يجالسون رسول الله ﷺ أنهم لا يريدون حظاً من حظوظ الدنيا، بل يريدون رضی الله وليس رضی غيره من

الناس: يريدون أن يرضى الله عنهم، ويريدون قربه ليفوزوا بالنعيم المقيم في جنات الله، فهم يطلبون ثواب الله، ويعملون على إبتغاء مرضاته، لا يقصدون بعبادتهم غير الله، ولا يعدلون بذلك أي شيء كان ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وهو ثناء من رب العالمين بإيمانهم الحق. ومثل هذا التعبير القرآني قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

### التعليل القرآني لنهي النبي عن طردهم:

ويأتي التعليل القرآني لنهي النبي الكريم عن طردهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فلا تؤاخذ أنت بحسابهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فلا يؤاخذون هم بحسابك: فلا يؤاخذ كل واحد منك ولا منهم بحساب صاحبه، وقد جاء النص القرآني بهذا الأسلوب لاستكمال التعليل، وكأن الله تعالى يُذكر رسوله محمداً ﷺ بمهمة الرسالة: وهي تبشير الناس بما وَعَدَ به عباده المؤمنين، وإنذار منْ أبى واستكبر عن الانضواء تحت لواء هذا الدين، فتكون الآية تضميناً لقوله تعالى: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وننظر إلى المسلمين المستضعفين الذين التقوا حول رسوله الكريم: يجالسونه ويتربون على يديه؛ فينغرس الإيمان في قلوبهم أكثر وأكثر، فليس هناك ما يستوجب طردهم، بل يستحقون كل ترحيب وإيناس. ويؤمى هذا النص الكريم بالتعريض بالمشركين الذين اقترحوا على رسول الله أن يجعل لهم مجلساً خاصاً بهم، ليس فيه أحد من المسلمين المستضعفين، متظاهرين بالنصح لرسول الله ﷺ! زاعمين أنه لو استجاب لهم لأقبل المشركون يدخلون في دينه. ويأتي نهى الله

وتحذيره لرسول الله عن طردهم فيقول: ﴿فَطَرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقد عظم الأمر على رسول الله ﷺ عند نزول الآية؛ خشية أن يسلك في جملة الظالمين، فقال ابن الأنباري:

(عظم الأمر في هذا على النبي ﷺ خوف الدخول في جملة الظالمين؛ لأنه كان قد همّ بتقديم الرؤساء وأولي الأموال على الضعفاء وذوي المسكنة، مقدراً أن يستجرّ بإسلامهم إسلام قومهم وحلفائهم ومن يلوذ بهم. وكان عليه السلام لا يقصد في ذلك إلا الخير، ولا ينوي ازدراء الفقراء ولا احتقارهم؛ فأعلمه الله تبارك وتعالى أن ذلك غير جائز<sup>(١)</sup>).

### فتنة بعض الناس ببعض:

ويستمر السياق القرآني ذاكراً فتنة بعض الناس ببعض فيقول: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

والفتنة هي الامتحان والاختبار، فيختبر الله بعض الملأ من القوم والسادات بالعبيد والضعفاء، فينظر السادة إلى الذين هداهم الله للإسلام من المساكين فآمنوا، فهم يحمدون الله على ما رزقهم من الهدى والرشاد، فيغلي الدم في عروق كبراء المشركين ويأنفون من الانضواء تحت لواء الإسلام بعدهم، ولسان حالهم ومقالهم: أيسبقني هؤلاء الضعفاء إلى الخير وأتخلف أنا عنهم؟! أيجوزون على الهدى ولا نحوزه، ونحن السادة الأغنياء وهم العبيد

(١) التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ١٦٢ / ٨.

والفقراء. وتبلغ بهم الحمية الجاهلية مبلغها فيقولون: لو كان في اتباع محمد ﷺ خير ما سبقنا إليه هؤلاء. ولا ريب أن ما قاله هؤلاء المستكبرون يدلُّ على عدم انقيادهم للحق بعد معرفته.

ومن ذلك الاختبار أيضاً: ما لاقاه المؤمنون من عذاب كان ينصبُّ عليهم صباحاً؛ ليتبين مدى صبر المؤمنين على العذاب من أجل هذا الدين.

ومن ذلك: أن الغني فتنة للفقير، فيتأمل الغني بالفقير: أينظر إليه نظرة حسد أم يرضى عن عطاء الله لغيره؟ والفقير يكون فتنة للغني لينظر أيجتر الغني الفقير؟

ومن تلك الفتنة ما قاله الله عز وجل: ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ويأتي الرد من العليم الخبير: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بل! إنه عليم بنفوس عباده الذين يشكرون له، فيوفقهم في حياتهم، ويثيبهم بجنات الخلود بعد مماتهم.

هكذا جاءت الآيتان مبينتين استعلاء الإيمان بالله على قيم الأرض التي تُعدُّ للزعامة والجاه والقوة والمال المكانة العالية.

\*\*\*

## إقامة الصلاة تذهب بالسيئات

قال الله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن أبي اليسر (كعب بن عمرو) قال: أتتني امرأة تبتاع تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيب منه، فدخلت معي في البيت؛ فأهويت إليها فقبلتها؛ فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له؛ فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدًا، فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك، وتب، ولا تخبر أحدًا، فلم أصبر، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال له: أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتى أوحى (الله) إليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]. قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها علي رسول الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله، ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن (باب: ومن سورة هود)، حديث ٣١١٥، ص ٧٠٣-

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»<sup>(١)</sup>.

## مع الذنوب التي تقع من الصحابة:

قد يعجب قسم من الناس ويقول: كيف يُقدم واحد من صحابة رسول الله على ارتكاب هذا الذنب؟

والجواب:

أولاً: إنّ الصحابة هم بشر كسائر البشر. والنفس البشرية بطبيعتها قد يُصيبها الضعف في حالة من الحالات. والفرق بين الصحابة وغيرهم: أنّ الواحد من الصحابة كان إذا وقع بذنب، فسرعان ما يثوب إلى رشده، ويتوب إلى الله عن قريب، ولا يدع الذنب يتمكن في نفسه. والصحابة ليسوا بمعصومين، وليس هناك أحد من البشر بمعصوم، والعصمة لا تكون إلاّ لرسول الله ﷺ فيما يُبلغه عن الله عز وجل، وقد قال رسول الله ﷺ:

«كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التّوابون»<sup>(٢)</sup>.

وما كان الواحد من الصحابة ليُسوّف في التوبة كما نرى ذلك في توبة أبي اليسر كعب بن عمرو؛ لأنّ التسوية من أساليب الشيطان، فكانوا أكثر الناس

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة (باب: الصلاة كفارة)، حديث ٥٢٦ ص ٨٩.

(٢) رواه الترمذي، حديث ٢٤٩٩، وابن ماجه، حديث ٤٢٥١، وأبو يعلى والحاكم وغيرهم.

توبة من أي ذنب يقعون فيه.

ثانياً: قد كان في هذا الذنب الذي ارتكبه أبو اليسر خير للمسلمين؛ إذ أنزل الله بسبب ذلك هذه الآية التي تتلى آناء الليل وأطراف النهار، وقد فتحت الأمل برحمة الله أمام المذنبين؛ لئلا يياسوا من رحمة الله.

\*\*\*

## كعب بن عمرو رضي الله عنه

### حياته:

هو كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن سواد، وقيل في نسبه غير ذلك، يكنى بـ (أبي اليَسْرِ) الأنصاري السلمي، ويعدُّ من أعيان الأنصار. أمه: نسيبة بنت الأزهر بن مري من بني سلمة أيضاً.

شهد (بيعة العقبة) وعمره عشرون سنة<sup>(١)</sup>، وغزوة بدر وقد أبلى فيها بلاءاً حسناً، وفعل الأفاعيل بالمشركين، وقيل: هو الذي قتل (منبه بن الحجاج السهمي)، وهو الذي أسر (العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ)، وجاء به إلى الرسول الكريم فقال له: (كيف أسرتَ العباس يا أبا اليسر؟)؛ فقال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيتهُ قبل ولا بعد، هيئتهُ كذا وهيئته كذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم»<sup>(٢)</sup>.

وتحدّث أبو اليسر (كعب بن عمرو) كيف غشّى الله النعاسَ على المؤمنين في غزوة بدر فقال:

(لقد رأيتهُ يؤمئذ في أربعة عشر رجلاً من قومي إلى جنب رسول الله ﷺ، وقد أصابنا النعاسُ أمانةً منه، ما منهم أحدٌ إلّا يغطُّ غطيّاً، حتى إنّ الحجف

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٣٧.

(٢) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٤/ ١١، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٨١.



(وهو ميلان رأس الرجل إلى الآخر) لتتناطح، ولقد رأيتُ سيفَ بشر بن البراء بن معرور سقط من يده، وما يشعر، حتى أخذه بعدما تثلَّم، وإن المشركين لتحتنا<sup>(١)</sup>.  
وفي هذه الغزوة - غزوة بدر - استطاع كعب أن ينتزع راية المشركين - وكانت بيد أبي عزيز بن عمير - (وهو أخو مصعب بن عمير).

وفي غزوة خيبر كان كعب بن عمرو صاحب المغنم كما ذكر ذلك (ابن فتحون) في (الذيل على كتاب الاستيعاب)<sup>(٢)</sup>. وتحدث رضي الله عنه عن هذه الغزوة فقال: والله إننا لمع رسول الله ﷺ بخيبر عشيةً إذ أقبلتُ غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن مُحاصِرُوهم، إذ قال رسول الله ﷺ: «من رجل يُطعمنا من هذه الغنم؟» قال أبو اليسر: فقلت: أنا يا رسول الله، قال (فافعل)، فخرجت أشتدُّ مثل الظليم (وهو الذكر من النعام)، فلما نظر إليَّ رسول الله ﷺ مولياً قال: «اللهم أمتعنا به»، قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أوائلها الحصن؛ فأخذتُ شاتين من أخراها، فاحتضنتُهما تحت يدي، ثم أقبلتُ بهما أشتدُّ كأنه ليس معي شيء، حتى ألقيتُهما عند رسول الله ﷺ؛ فذبحوهما، فأكلوهما، فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ هلاكاً، فكان إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم يقول: أمتعوا بي، لعمري كنتُ آخرهم<sup>(٣)</sup>.

لقد سمع رضي الله عنه وهو يدعو المسلمين إلى إنظار المعسر أو الوضع عنه

---

(١) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى ٤/ ٢٠٤-٢٠٥، وإمتاع الأسماع لتقى

الدين أحمد بن على المقرئى ١/ ١٧٠، بتحقيق: محمد عبد المجيد النميسى.

(٢) إمتاع الإسماع ٩/ ٢٩٤.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده، حديث ١٥٥٢٥، ٢٤/ ٢٨٤.

فطبق ذلك، فروى الإمام مسلم عن أبي اليسر قال: كان لي على فلان بن فلان الحرامي مال، فأتيته أهله فسلمتُ فقلت: ثمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج عليّ ابن له جفر (وهو الذي قارب البلوغ، وقيل ابن خمس سنوات)، فقلتُ له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل أريكة أُمِّي، فقلت: اخرج إليّ فقد علمتُ أين أنت، فخرج فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أُحدِّثك، ثم لا أكذبك، خشيتُ والله أن أُحدِّثك فأكذبك، وأن أَعِدك فأُخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ، وكنتُ والله معسراً، قال: قلت: الله؟ قال الله، قال: قال الله؟ قال الله، قال قلت: الله قال: الله، قال فأُتي بصحيفته فمحاها بيده، قال: فإن وجدتَ قضاءً فاقضني، وإلا أنت في حلٍّ، فأشهدُ بصرُ عينيَّ هاتين - ووضعُ أصبعيه على عينيه، وسَمِعُ أذنيَّ هاتين، ووعاه قلبي هذا وأشار إلى مناط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: «مَنْ أَنْظَرَ مَعْسِراً، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»<sup>(١)</sup>.

ظل يجاهد مع رسول الله ﷺ، فشهد المشاهد كلها معه إلى أن انتقل رسول الله إلى جوار ربه. ولما وقعت الفتنة بين المسلمين كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه معه في (معركة صفين).

روى عن رسول الله ﷺ أَحَدَ عَشَرَ حَدِيثاً<sup>(٢)</sup>، ومن الأحاديث التي رواها في أمر الخشوع في الصلاة:

«منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف، والثالث،

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر)، حديث ٧٥١٢، ص

.١٢٩٩

(٢) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم الأندلسي ص ١٥٣.

والربع، حتى بلغ العشر»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي اليسر قال: قلتُ: يا رسول الله، دُئني على عمل يدخلني الجنة. قال: «أمسكُ عليك هذا - وأشار إلى لسانه -» فأعادها عليه فقال: «ثكلتك أمك! وهل يكب الناس على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم»<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي رواها في العطف على العبيد «أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون»<sup>(٣)</sup>.

انتقل إلى جوار ربه بالمدينة سنة خمس وخمسين وقيل: هو آخر من مات من الصحابة في المدينة من أهل بدر.



---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، حديث ١٥٥٢٢، ٢٤/٢٨٠، وإسناده على شرط مسلم، والنسائي في السنن الكبرى، حديث ٦١٣/١، ١/٢١٢.

(٢) جامع المسانيد والسنن لابن كثير، حديث ١٢٥٤٤، ١٤/٤٤٧١. وروي مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ رواه معاذ بن جبل، وهو الحديث التاسع والعشرون من أحاديث الأربعين النووية للإمام النووي.

(٣) رواه مسلم في كتاب الزهد (باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر)، حديث ٧٥١٣، ص ١٢٩٩.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن  
أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ  
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٤﴾ [هود: ١١٣ - ١١٤].

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله العليم الخبير في الآيتين السابقتين لهذه الآية: وجوب الاستقامة على  
المسلم، ونهى عن الركون إلى الذين ظلموا. وفي هذه الآية خصَّ الله إقامة الصلاة  
في أوقاتها، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وعبادة لا تعدلها منزلة أية عبادة  
أخرى؛ ليستعين بها المسلم على الاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا.

التفسير:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ  
ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ ﴾.

الحياة في ظل الاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا ليست من الأمور  
السهلة اليسيرة؛ فلا بد من الاستعانة بما يُعين عليها. ويأتي الأمر بالاستعانة  
بأعظم العبادات عليها: وهي إقامة الصلاة كما بيّنها رسول الله ﷺ، وبخاصة في  
المواقف الصعبة التي تخور فيها عزائم كثير من الناس الأشداء.

(وأقم الصلاة) يتدئ الخطاب الإلهي موجهاً إلى رسوله الكريم محمد ﷺ  
يأمره فيه بإقامة الصلاة. والأمر هنا يفيد الوجوب، وهو - وإن توجه إلى رسولنا

الكريم - يشمل كل مسلم مكلف في كل زمان وفي كل مكان. وجاء الأمر بإقامة الصلاة هنا مجملاً، فلم تعين الآية كيف تكون الصلاة من حيث عدد ركعاتها ولا طريقة أدائها، وجاءت السنة النبوية مبيّنة ذلك. ومثل هذه الآية في الإجمال قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

والمراد بالصلاة: الصلاة المفروضة، وهي صلة بين العبد وربّه، وتعدُّ الركن الثاني من أركان الإسلام، ومنها يستمد المسلم الزاد لمواصلة الطريق؛ لأن فيها شحنات مستمرة، تمدُّه بالقوة بعد القوة، وتدرّبه على الصبر، وتعينه على التغلب على مشكلات الحياة. والمحافظة عليها بشروطها وأركانها وسننها والخشوع فيها تجعل المسلم في راحة نفسية، وتبعث فيه القوة بعد القوة ليخالف أهواء نفسه.. ويبدو أثرها واضحاً في الصلاة التي يستجمع صاحبها قلبه فيها. فحين يقف بين يدي الله ويبدأ صلاته بقوله: (الله أكبر)، فإنه يجعل الدنيا كلها خلف ظهره، فلا يفكر إلا في الآيات التي يتلوها في صلاته، مستذكراً معانيها، ومبتعداً عن الخواطر الشيطانية التي تريد صرفه عن الخشوع فيها: فكلما أراد الشيطان صرفه عن الخشوع فيها بتذكيره بأمور دنيوية تهمة، فسرعان ما يتذكر أنه في الصلاة، وقد وقف بين يدي الله، وأنه عز وجل هو أكبر من المشكلات التي تقف أمامه، وهو سبحانه أكبر من المال الذي ربحه أو خسره، وأكبر من الشيطان الذي يريد أن يضلّه، وأكبر من كل شيء. ونقرأ القرآن، فنجد ثناء الله تعالى على الخاشعين في صلاتهم والمحافظين عليها قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

وقال:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

وقال:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

أما رسول الله ﷺ، فقد بين في أحاديثه أن الصلاة تنظف صاحبها مما علق به من أدران وأوساخ، فقال:

«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا»<sup>(١)</sup>.

وقال:

«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر»<sup>(٢)</sup>.

وقال:

«إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا)، حديث ١٥٢٢، ص ٢٧٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة...)، حديث ٥٥٢، ص ١١٧.

(٣) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٣٥٠٣، ٣٨/٤٨٩-٤٩٠.

وقال:

«ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يتوضأ فيصلّي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له»<sup>(١)</sup>.

وحين يقدم المسلم على أداء الصلاة بنية خالصة لله، وبخشوع قلب فيها، ويداوم على ذلك، يجد سعادته الكبرى فيها؛ لذلك كانت قرّة عين رسول الله ﷺ في الصلاة، وكان يقول لبلال: «أرحنا بها يا بلال»، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾

إقامة الصلاة: أداؤها على أكمل وجه كإقامة البنيان المرصوص.

وطرفا النهار: أوّل النهار وآخره؛ لأنّ طرف الشيء منتهاه.

والنهار: ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وسُمّي النهار نهاراً؛ لأنّ الضياء ينهر فيه: أي يبرز كما يبرز النهر.

أما قوله: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فالزلف جمع زلفة: وهي الطائفة من أول ساعات الليل، فتكون في مقدمة الزلف: صلاة المغرب، وبعد ذلك يدخل وقت صلاة العشاء.

ويأتي تعليل إقامة الصلاة في الأوقات الخمسة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٧، ٢١٩/١، وأبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: في الاستغفار)،

حديث ١٥٢١، ص ٢٦١، وقد رواه غيرهما.

## السَّيِّئَاتُ ﴿٤﴾

والحسنيات: هي الأعمال الصالحة كلها، والسيئات: هي الأعمال القبيحة. وابتداءً اللفظ القرآني بالأداة (إِنَّ) التي تفيد التوكيد للاهتمام بما ذكر... هذه الحسنيات تقوم بدور عظيم عظيم: وهو تكفير السيئات. والمعنى: أن الأعمال الصالحة تذهب بالأعمال السيئة وتزيلها، فلا يؤاخذ مرتكبها بها، والسيئات: هي الذنوب الصغيرة لقول الله تعالى:

﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقوله:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

ومما هو معروف أن الكبائر لا تكفرها إلا التوبة الصادقة، وهذه نعمة عظيمة من نعم الله لعباده، إذ لو لم تَمْحُ الحسنيات السيئات، لأصاب الناس اليأس من دخول الجنة، لكثرة ما يرتكب الإنسان من ذنوب في الحياة.

وهكذا تكون أول أعمال المسلم بصلاة الصبح، وآخر أعماله بصلاة العشاء، فإذا اقترف سيئات بين صلاة الصبح وصلاة العشاء، تأتي الحسنيات فتمحوها؛ لذلك وردت كراهة الحديث بعد صلاة العشاء إلا في حالات خاصة: كطلب العلم، أو كان في شأن مهم من شؤون المسلمين، أو كان في الحديث مع الأهل؛ ذلك لأن السَّمَرَ كثيراً ما يكون مضيعةً للوقت الذي هو رأس مال المسلم. فعن



ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جَدَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّمْرَ بَعْدَ الْعِشَاءِ»<sup>(١)</sup>.  
أي : ذمه وعابه.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدعو الناس في خلافته إلى  
الذهاب إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء ويقول لهم: «قوموا لعلَّ الله يرزقكم صلاة»،  
وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها إذا سمعت من أهلها من يتحدث بعد  
العشاء فتقول: «أرئحوا كُتَّابِكُمْ» أي الملائكة الذين يكتبون ما تقولون.

ويأتي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾، ليشير إلى أن تلك الوصايا التي  
تقدمت من الاستقامة، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، وإقامة الصلاة في  
أوقاتها.. كل ذلك عظة للمتعظين بأوامر الله ونواهيه، تذكُّرٌ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا.

\*\*\*

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٣٨٩٤، ٧/٩-١٠، وابن ماجه في كتاب الصلاة (باب: النهي عن  
النوم قبل صلاة العشاء، وعن الحديث بعدها، حديث ٧٠٣، ص ٩٩.

## الوصية بالوالدين

قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

اتفق جمهور علماء التفسير والحديث على أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فروى مسلم عن سعد قال: «حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بالديك، فأنا أمك، وأنا أمرك بهذا».

قال: مكثت ثلاثاً حتى عُثِيَ عليها من الجهد؛ فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها؛ فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وروى الترمذي أن سعد بن أبي وقاص قال: «أنزلت في أربع آيات - فذكر قصته - وقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: في فضل سعد بن أبي وقاص)، حديث ٦٢٣٨ ص

شرباً حتى أموت أو تكفر. قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاهَا؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا...﴾<sup>(١)</sup> [العنكبوت: ٨].

وقال الواحدي رواية عن سعد: «كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد، ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت؛ فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أمه؛ فإني لا أدع ديني هذا لشيء. قال فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحتُ قد جهدت. قال: فمكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد اشتدَّ جهدها. قال: فلما رأيتُ ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء؛ إن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأيتُ ذلك أكلت؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَأِنْ جَاهَدَاكَ...﴾<sup>(٢)</sup> [العنكبوت: ٨].

\*\*\*

---

(١) رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن (باب: ومن سورة العنكبوت)، حديث ٣١٨٩، ص ٧٢٤.

(٢) صحيح أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٩٠، هذبه: يوسف عمر مبيّض، راجعه وقدم له: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٣، منار للنشر، دمشق.

## سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (١)

### فارس الإسلام:

هو أبو إسحق سعد بن أبي وقاص - وأبو وقاص كنية أبيه - فهو سعد بن مالك بن أهيب - ويقال وهيب - بن عبد مناف القرشي الزهري، أحد السابقين إلى الانضواء تحت لواء الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو فارس الإسلام، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من أراق دماً في سبيل الله، وهو واحد من الستة الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو على فراش الموت بعد أن طعن من المجوسي أبي لؤلؤة فيروز - ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين، وكانت له صلوات وجولات في حروب القادسية، وفتح المدائن، وإطفاء نار المجوس، وكان - مع هذا - على جانب كبير من التواضع والصدق والزهد والورع والشجاعة والشهامة وحب النبي ﷺ واتباع سنته، وكان مجاب الدعوة بفضل دعاء النبي ﷺ له، وهو - قبل ذلك وبعده - خال رسول الله ﷺ، وكان يفخر به النبي الكريم، وقد تحلى بصفات قيادية عالية، وكان له جهاده المميز في غزوات (بدر) و (أحد) و (الخندق) و (فتح مكة) و (حنين) وكان صلوات الله وسلامه عليه يستشيره، وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده.

(١) مقتطفات من كتابنا ستة مبشرون بالجنة.

## إسلامه:

ولد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مكة قبل أن يكرم الله نبيه محمداً ﷺ بالرسالة بسبع عشرة سنة. وأسلم وعمره سبع عشرة سنة، وكان ذلك في الأيام الأولى من السنة الأولى لبعثة النبي ﷺ، ويذكر أنه ثالث من دخل في الإسلام ولم يدخل قبله إلا اثنان فيقول: (لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام)<sup>(١)</sup> وكان إسلامه على يد (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه فجاء إلى النبي الكريم وأعلن شهادة الحق أمامه فأسلم، وكانت سابقته في الإسلام سبباً من أسباب إمامه بفهم هذا الدين: عقيدة وشريعة وأخلاقاً...، فكان يتلقى السور القرآنية والآيات الكريمة من الرسول ﷺ مباشرة، ويوم أسلم لم تكن الصلوات الخمس قد فرضت على المسلمين بعد، بل كان فرض الصلاة في أيام الإسلام الأولى ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، وظل المسلمون يؤدون هذه الصلاة حتى فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج.

## الفقر الذي أصاب المسلمين في مكة:

أصاب المسلمين في مكة فقر مدقع، وقد عانوا من الشدة والمشقة، وتحملوا ذلك صابرين محتسبين، ولم يتنازلوا عن عقيدة التوحيد، على الرغم من المغريات التي عرضت عليهم، بل ظلوا ثابتين ثبات الشم الراسيات على هذا الدين، فلم يغيروا ولم يبدلوا، وكان سعد واحداً ممن أصابته الشدة والجهد والجوع. ويوضح

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (باب: مناقب سعد بن أبي وقاص) حديث

٣٧٢٦، ص ٩٤٤، طبعة دار المعرفة.

لنا حقيقة هذه الحياة القاسية القاحلة فيقول: (رأيتني سابع سبعة مع النبي ﷺ، ما لنا طعاماً إلا ورق الحبلية، حتى يضع أحدنا ما تضع الشاة...) (١).

وورق الحبلية: ورق صحراوي له شوك، وأوراقه صغيرة، وكانت فضلات الطعام تخرج منهم جافة يابسة كما تضع الشاة البعر.

وهناك أمثلة كثيرة على ما لاقاه الصحابة من الجوع، ولنذكر ما قاله سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

(كنا قوماً يصيينا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك، ومرنا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، خرجت من الليل أبول وإذا أنا أسمع بقعقة شيءٍ تحت بولي فإذا قطعة جلد بعير فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم استنقها وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً) (٢).

هذا لون من ألوان ما أصاب الصحابة في فجر الإسلام بمكة، وهو يغني عن أي تعليق كان.

ولم يكن الجوع الذي أصاب المسلمين في العهد المكي وحده، بل أصابهم أيضاً في العهد المدني في غزوات النبي ﷺ وسراياه. روى الإمام مسلم عن خالد ابن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأطعمة (باب: ما كان النبي وأصحابه يأكلون) حديث ٥٤١٢ ص

. ١٣٨٥

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٩٣/١، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٨ بيروت.

بعد: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر، حتى قرحتُ أشداقنا، فالتقطتُ برُدةً فشققتها بيني وبين سعد بن مالك (أي سعد بن أبي وقاص)، فأتزرتُ بنصفها وأتزر سعدٌ بنصفها...) (١).

## بين سعد وأمه:

هناك الكثير من المواقف الإيمانية التي وقفها سعد بن أبي وقاص منذ أن أسلم إلى أن لقي الله تعالى. ومن تلك المواقف: موقفه من أمه التي امتنعت عن الطعام والشراب، وهددت أنها ستظل كذلك إلى أن تموت إن لم يرجع سعد عن الإسلام. وكان هذا وسيلة من وسائل الضغط عليه بغية أن يترك دينه الجديد.

لقد كان سعد باراً بأمه، لكن عقيدة التوحيد لا يُقدّم عليها شيء أبداً لقد كان الإيمان العميق قد تمكن في قلب سعد، فلم يلتفت إلى ذلك التهديد، لقد كانت أمه معادية للإسلام، كارهة لرسول الله ﷺ، وقد فاجأها خبر إسلام ثلاثة من أبنائها وهم سعد وعامر وعمير، ونزلت آيات كريمة تتحدث عن موقف سعد المؤمن من أمه الكافرة.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق حديث ٢٩٦٧، ٤ / ٢٢٧٩.

## في غزوة بدر:

قاتل سعد في غزوة بدر قتالاً شديداً قلَّ نظيره، وقد نظر إليه الصحابة فأعجبوا بقتاله وشهدوا له بذلك. ومن أعجب بقتاله وثباته وشجاعته عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، فقد قال: (كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل)<sup>(١)</sup>.

وهذا يعني أن سعداً لم تكن له فرس يقاتل عليها فهو يقاتل ماشياً على قدميه، ومع ذلك فقد كانت شجاعته وبسالته وإقدامه وفتكه بالكفار بسهامه، فكان هذا الجهد يساوي جهد الفارس الذي يقاتل على فرسه، فكأنه قاتل راجلاً وراكباً الفرس، وكان رضي الله عنه يرمي بسهامه ويدعو الله عليهم، والنبى الكريم يؤمّن على دعائه.

## في غزوة أحد:

في هذه الغزوة أبلى سعد بلاءً حسناً، فقد كان ذا مهارة فائقة، فاستعملها فيها خاصة وفي غزواته الأخرى أيضاً. ففي هذه الغزوة قتل ثلاثة من الكفار بسهم واحد رمى بالسهم المشركين فأصاب أحدهم فقتله، فرد المشركون السهم فلم يصبه، فتناوله ورمى به مرة ثانية، فأصاب أحدهم فقتله، فرده عليه المشركون فلم يصبه، فرمى به سعد مرة ثالثة فأصاب أحدهم فقتله! فتعجب المسلمون من

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ١٠٩/٦ تحقيق: عبد الله

محمد الدرويش حديث ٩٩٨٤، ١٤٢٦-٢٠٠٥، دار الفكر بيروت.



فعله ودقته فقال أنبلنيه رسول الله ﷺ، فهو الذي ناولني إياه<sup>(١)</sup>. ومن قتل سعد في هذه الغزوة (حبان بن العرقه) وقد آذى المسلمين بسهامه، فرماه بسهم أصابه في ثغرة نحره ووقع مستلقياً على ظهره، كما قتل رامياً من أمهر رماة قريش هو مالك بن زهير الجشمي، ولما رأى النبي ﷺ ما يفعله سعد بالمشركين فداه بأبيه وأمه، فقال سعد: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين (أي أثنى فيهم القتل) فقال النبي ﷺ مخاطباً سعداً: «إرم فداك أبي وأمي»<sup>(٢)</sup>.

واشترك سعد في غزوة الخندق، وحصار بني قريظة، وفي سرية ذات السلاسل وفتح مكة والطائف، ففي فتح مكة مثلاً عقد النبي ثلاث رايات واحدة مع سعد بن أبي وقاص، وراية مع علي بن أبي طالب، وراية مع الزبير بن العوام رضي الله عنهم.

### سعد بعد وفاة النبي ﷺ:

وتمضي الأيام، وينتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه، ويظل سعد ذلك الجندي الذي وقف نفسه لخدمة المسلمين ونصرة الإسلام، ويوليه الخلفاء مهام عظيمة فيقوم بها خير قيام. وعند التفكير في فتح بلاد فارس، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حريصاً على اختيار القائد من ذوي الكفاية، فلم يجد أفضل من سعد بن أبي وقاص لهذه المهمة، فأمره على قيادة معركة القادسية، وقاد المعركة مع مرضه

(١) حياة الصحابة تأليف: محمد يوسف الكاندهلوي ٢/١٠٨-١٠٩، تحقيق محمد سيد، دار الفجر للتراث، القاهرة.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: في فضل سعد بن أبي وقاص) حديث ٢٤١٢، ١٨٧٦/٤.

الشديد وانتصر فيها، ثم تولى بعد ذلك فتح المدائن عاصمة الفرس، وصلّى فيها صلاة الجمعة في إيوان كسرى وكان أول حاكم على العراق، ونظر سعد إلى النعيم الذي كان عليه الفرس وكيف أذهم الله بعد أن انحرفوا عن نهجه القويم وصراطه المستقيم، فكان يسير ويتلو قوله تعالى:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

### وفاة سعد:

ظل سعد على موقفه في اعتزال الفتنة، حتى بعد أن تنازل الحسن لمعاوية ووقف سفك الدماء، وكان محباً لسيدنا علي ولا يسكت على من يسيء إليه حتى أدركه الموت سنة خمس وخمسين من الهجرة وعمره خمس وثمانون سنة، وكان آخر المهاجرين وفاة. وقد أوصى قبل أن يفارق الحياة بوصيتين.

الأولى: أن يكفن بجبته الصوف البالية التي قاتل فيها في غزوة بدر، فقد كان يعتز بها، واحتفظ بها إلى آخر عمره. فقال: لأهله: (كفوني فيها، فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما كنت أخبأها لهذا اليوم)<sup>(١)</sup>.

الثانية: أن يدفن كما دفن النبي ﷺ بأن يلحد له في قبره.

مات سعد وهو مستبشر بلقاء الله، يحسن الظن به تعالى، ويوقن بأنه من أهل الجنة لبشارة النبي ﷺ له بذلك، غادر الحياة ورأسه في حجر ابنه مصعب، وقد

(١) رواه الحاكم في كتابه المستدرک، حديث ٦١٠٠، ٥٦٧/٣

غسلوه وكفنوه بجبة الصوف البالية كما أوصى، ونقل إلى المدينة، فصلى عليه في المسجد النبوي واليها مروان بن الحكم. وبعد أن صلى عليه الرجال طلبت أمهات المؤمنين أن يمرّوا بجنائزته عليهن للصلاة عليه. وهكذا صلّت أمهات المؤمنين عليه. ولما وضعت الجنازة أمام أم سلمة لتصلي عليه بكت وقالت: بقية أصحاب رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> وبعد الصلاة دفنوه في مقبرة البقيع.

هكذا فارق سعد الحياة بعد أن جاهد ذلك الجهاد وتوفي النبي ﷺ وهو عنه راضٍ كما أن الله تعالى رضي عنه أيضاً فقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

\*\*\*

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/١٢٣.

قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَكُمُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

المتأمل بالقرآن يرى أنه فصلٌ كثيراً في العلاقات الاجتماعية بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبين المسلمين والمشركين. فقد أراد الله جل جلاله أن يكون بناء الأسرة على لبنات سليمة؛ لئلا تتصدع ثم تنهار؛ فجاءت وصية الله للأبناء بالوالدين:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾. ولفظ (وصى) يجري مجرى الأمر في المعنى، فكأن القرآن يأمر الإنسان بحسن معاملة والديه، بل هو أمر من رب العالمين. وأما (الإنسان)، فهو لفظ يطلق على الذكر والأنثى من بني آدم.. جاءت تلك الوصية بالوالدين؛ لأنها كانا سبباً في وجوده، فهما أقرب الأقرباء له، وحقها عليه في كل لحظة من لحظات حياته منذ أن كان جنيناً في بطن أمه ثم خرج طفلاً إلى الدنيا، فإذا شبَّ وكبر ازدادت معاناة الوالدين في تربيته وتوجيهه حتى يصير رجلاً. وتمضي الحياة فيصيب الوالدين الهزال والضعف فيصيران بحاجة إليه. لذلك كثرت وصايا القرآن الكريم بالحسن والإحسان إلى الوالدين، وكثرت أيضاً أحاديث رسول الله ﷺ في هذا، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وقال:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ  
وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ  
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي  
إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وغير ذلك من الآيات.

ومن أحاديث رسول الله ﷺ: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:  
سألت النبي ﷺ: أي العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت:  
ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» متفق  
عليه<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا  
رسول الله، من أحقُّ بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك،  
قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك» متفق عليه<sup>(٢)</sup>.

وقال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة (باب: فضل الصلاة لوقتها)، حديث ٥٢٧، ص ٩٠،  
ومسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال)، حديث ٢٥٢، ص  
٥٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: من أحقُّ الناس بحسن الصحبة)، حديث ٥٩٧١، ص  
١٠٤٥، ومسلم في كتاب البر والصلة (باب: برّ الوالدين وأيهما أحقُّ به)، حديث ٦٥٠٠، ص  
١١١٧.

«رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه»، قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»<sup>(١)</sup>.

ومع تلك الوصايا بالحسن والإحسان إلى الوالدين، فقد يُبتلى الولد بأبوين مشركين يدعوانه إلى الشرك بالله، مفضّلين ما كان عليه الآباء من ضلال بعيد، شأن المشركين في قولهم - كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

ولم يقف الأمر عن هذا الحد، فقد يفرطان في بذل جهودهما يحضانه على الشرك بالله، بل ليحملاه عليه! وهذا - بلا شك - ابتلاء من الله للولد المسلم بأبويه، وما أمر بطاعتها، والصبر على هذه المحنة حين يأمرانه باعتناق هذه العقيدة الفاسدة التي لا يُقرُّها عقل ويأبأها الشرع. وهنا تأتي الآية الكريمة تطلب من الولد المسلم أن يقف موقفاً حاسماً، فلا يطيعهما إذا أراداه أن يشرك بالله، ومع ذلك يظل يحسن معاملتهما ولا يسيء إلى واحد منهما.

على أن عدم طاعة الأبوين لا تقتصر على الشرك بالله وحده، بل يلحق بهذا كل معصية لله يأمرانه بها، وقد قال رسول الله ﷺ:

«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب: رغم من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة) حديث ٦٥١١، ص ١١١٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية)، حديث ٤٧٦٣، ص

وقال:

«لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك، فهو يتلطف معهما بالقول، ويتدرج بإسداء النصيحة لهما بالحكمة لينقذهما من ذلك الانحراف في العقيدة الذي كانا عليه، وقد خاطب الله سيدنا موسى عليه السلام، طالباً منه أن يذهب مع أخيه (هارون) إلى أشقى الأشقياء (فرعون)، وأمرهما أن يخاطباه باللين في القول فقال تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾<sup>(٤٣)</sup> فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وإذا أردنا أن نعرف كيف كانت دعوة رسول الله ﷺ صحابته إلى بر الوالدين الكافرين أو أحدهما بالتطبيق العملي، نظرنا إلى هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول (رأس المنافقين) وهو في ظل أجمة<sup>(٢)</sup> فقال: قد غبرَّ علينا ابن أبي كبشة (يريد الانتقاص من رسول الله ﷺ) فقال ابنه عبد الله بن عبد الله: والذي أكرمك، والذي أنزل عليك الكتاب، لئن شئت لآتينك برأسه! فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكن برَّ أباك، وأحسنُ صحبته»<sup>(٣)</sup>.

وتأتي الجملة القرآنية ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ تبييناً للواقع. وهذا القيد لا

(١) رواه مسلم في كتاب الإمامة (باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، حديث ٤٧٦٥، ص

٨٢٦.

(٢) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، حديث ٤٢٨، ٢/ ١٧٠-١٧١.

مفهوم له، لأن الكون ليس فيه إله يستحق العبادة سوى الله الواحد الأحد، فوق  
أن عقيدة الشرك لم تستند إلى دليل عقلي ولا شرعي.

أما تذييل الآية الكريمة: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فقد  
جاءت لتذكّر باليوم الآخر.. ذلك اليوم الذي يجتمع فيه الناس - كل الناس - إلى  
الله جلّ وعلا - سواء كانوا من المؤمنين أو المشركين، وسواء من كان باراً بوالديه  
ومن كان عاقاً لهما، وهناك تُجزى كل نفس بما عملت على رؤوس الأشهاد. إنه  
تحذير من العلي القدير.

\*\*\*



## من أعراف الجاهلية

قال الله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة - مولى رسول الله ﷺ - قال: ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾<sup>(١)</sup> [الأحزاب: ٥].

وقال الواحدي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ... ﴾ [الأحزاب: ٤] نزلت في زيد بن حارثة، كان عبداً لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه قبل الوحي، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها! فأنزل الله تعالى هذه الآيات<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: أدعوه لآبائهم هو أقسط عند الله) حديث ٤٧٨٢، ص ٨٤٠.

(٢) صحيح أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص ٩٢.

## زيد بن حارثة رضي الله عنه

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى الكلبى .

كنيته: أبو أسامة .

أمه: سعدى بنت ثعلبة من بني معن من طي .

وهو من أصول عربية، وقد عُرِفَتْ قبيلة (كلب) بصلابتها وحزمها في

الحروب ..

### زيد في الأسر:

اشتقت أم زيد لأهلها، فخرجت لزيارتهم ومعها ولدها زيد، فقامت خيول (لبنى القين بن جسر) بالإغارة على قبيلة أهلها، فأخذوا ما كان معهم من مال، وأخذوا الصبيان، وكان زيد واحداً ممن أخذوه، فوقع بالسبي وعمره ثمان سنوات - وقيل ست - وجاءوا به إلى مكة فباعوه بسوق عكاظ؛ فاشتراه (حكيم ابن حزام) لعمته (خديجة بنت خويلد) بأربعمائة درهم، وهكذا كان الإنسان يباع ويشترى! فلما تزوج رسول الله ﷺ من (خديجة) وهبت (زيداً) له، كل ذلك قبل أن يُكرمَ اللهُ محمداً ﷺ برسالة الإسلام. ولم يسكت والد زيد عن ابنه، فكان يسأل عنه هنا وهناك، حتى علم أنه بمكة، فانطلق مع أخيه (فقدما مكة، فسألاً عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا

عندك، فأمنن علينا، وأحسنن في فدائه، فإننا سندفع لك.

قال: (وما ذاك؟) قالوا: زيد بن حارثة. فقال: (أو غير ذلك؟ ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء) قالوا: زدتنا على النصف. فدعاه فقال: (هل تعرف هؤلاء؟) قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي. قال: (فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما)، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد، أنتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟! قال: نعم إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، أخرجه إلى (الحجر) فقال: (اشهدوا أن زيدا ابني، أرثه ويرثني). فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا؛ فدعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام<sup>(١)</sup>.

لقد تبنى الرسول الكريم زيدا، ودعاه ابنه، وكان ذلك أمراً طبيعياً عند العرب قبل أن يُبعث رسول الله ﷺ، فيتبنى الرجل مولاه أو غيره، فيصير ابناً له يوارثه وينتسب إليه. وظل هذا النظام قائماً بعد البعثة النبوية في العهد المكي كله، إلى أن نزل قول الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [الأحزاب: ٥] فألغت الآية نظام التبني، فصار (زيد) ينسب إلى أبيه الحقيقي: زيد بن حارثة.

### حب رسول الله لزيد:

ولما أشرقت شمس الإسلام على الوجود كان زيد أول من أسلم من الموالي،

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ٤/ ٨٢-٨٣.

وقد حظي بحب رسول الله ﷺ له، وقد قال له يوماً:

«... وأما أنت يا زيد، فمولاي ومني وإليّ وأحبُّ الناس إليّ»<sup>(١)</sup>.

وقال:

«... وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحبِّ الناس إليّ...»<sup>(٢)</sup>.

وقال:

«دخلت الجنة فاستقبلتني جارية شابة، فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن

حارثة»<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان صحابة رسول الله رضي الله عنهم يحبون زيداً لمحبة الرسول الكريم له. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فرض لأُسامة بن زيد أكثر مما فرض لعبد الله بن عمر، كلّمه عبد الله في ذلك فأجابه عمر:

(إنه - أي أُسامة - كان أحبَّ إلى رسول الله منك، وإنَّ أباه كان أحبَّ إلى

رسول الله ﷺ من أبيك)<sup>(٤)</sup>.

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢١٧٧٧، ٣٦/١١٠، والحاكم حديث ٤٩٥٧، ٣/٢٤٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (باب: مناقب زيد بن حارثة) حديث ٣٧٣٠، ص ٦٢٨، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل زيد بن حارثة)، حديث ٦٢٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٢٣٠، وقال: إسناده حسن.

(٤) سير أعلام النبلاء ١/٢٢٩.

## من فضائل زيد:

من فضائل زيد: أن الله سبحانه وتعالى لم يسم في القرآن أحداً من أصحاب النبي ﷺ وأصحاب غيره من الأنبياء إلا زيد بن حارثة<sup>(١)</sup>.

ومن فضائله: أنه كان يملك فرساً يقال لها (سَبَل) - وكان يحبها - فلما نزل قول الله تعالى: ﴿لَنْ نَأْتُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، جاء زيد بفرسه تلك فقال: هذا يا رسول الله في سبيل الله. فقال رسول الله لأسماء: خُذْهَا. قال: فكأنه وجد في نفسه؛ فقال له رسول الله ﷺ: «قد قبلها الله منك»<sup>(٢)</sup>.

## زيد ذلك المجاهد:

ما إن بدأ القتال في المدينة بين جبهة الإيمان وجبهة الكفر، حتى كان زيد يخوض غمار تلك الحروب، فقد كان رامياً من خير الرماة، مع ما يتمتع به من شجاعة قل نظيرها، فقد شهد غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية وخيبر وغير ذلك، حتى قال سلمة بن الأكوع:

غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات، كان يؤمره رسول الله ﷺ علينا<sup>(٣)</sup>.

أما السرايا التي أرسله رسول الله ﷺ فيها فكثيرة، فكان لا يرسله في سرية إلا أمره عليها، وقد خرج أميراً في سبع سرايا<sup>(٤)</sup>.

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢/ ٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣/ ٧٠٤، وتفسير الطبري ٦/ ٥٩٢.

(٣) رواه الحاكم، حديث ٤٩٦١، ٣/ ٢٤١.

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٢٠٠ - ٢٠١.

ولحكمة زيد وحسن إدارته استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة لما خرج إلى غزوة المريسيع) المسماة (بغزوة بني المصطلق).

### استشهاده:

بعث رسول الله ﷺ (الحارث بن عمير الأزدي) بكتاب إلى ملك الروم أو بصرى، فلما وصل إلى (مؤتة) عرض له (شرحبيل بن عمرو الغساني) أحد عمال الروم على الشام وسأله: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رُسُلِ محمد؟ قال: نعم، فأوثقه وضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره؛ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ؛ فبعث البعوث، واستعمل عليهم (زيد بن حارثة) وقال: «إن قُتِلَ زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا قدّم رسول الله ﷺ في الإمرة زيدا على ابن عمه جعفر بن أبي طالب مع محبته الشديدة لجعفر.

ولما بدأ جيش رسول الله ﷺ بالسير، ودّعهم المسلمون بهذا الدعاء: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلى أهليكم!

سار جيش رسول الله ﷺ، حتى وصل إلى (معان) بشرفي الأردن، وهناك علموا أن الروم أعدوا لهم مائة ألف مقاتل، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب، أما جيش رسول الله ﷺ، فكان تعداده ثلاثة آلاف من الصحابة...

ونشب القتال، وقُتِلَ القادة الثلاثة: زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة. وقد نعى رسول الله ﷺ زيدا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: غزوة مؤتة من أرض الشام)، حديث ٤٢٦١ ص ٧٢٢.

استشهادهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان وقع استشهاد زيد ومن معه كبيراً على قلب رسول الله ﷺ، وقد روى الإمام الذهبي قال:

(لما أُصيب زيد بن حارثة أتاهم النبي ﷺ قال: فجهشت بنت زيد في وجهه، فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب؛ فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذا شوق الحبيب إلى حبيبه)<sup>(٢)</sup>.

انتقل زيد إلى جوار ربه شهيداً في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة، وعمره خمس وخمسون سنة. وكان له من الأولاد: أسامة، وأمه بركة بنت الحصين، المكناة بأُم أيمن، ورقية، أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

ذكر ابن حزم أن زيدا روى عن رسول الله ﷺ أربعة أحاديث<sup>(٣)</sup>.

وأما ابن كثير، فذكر أن له ثمانية أحاديث<sup>(٤)</sup>.

ومن الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ:

«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بنورِ يومِ الْقِيَامَةِ ساطع»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه)، حديث ١٢٤٦، ص ٢٠٠.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٢٠١، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ٢٤٥.

(٤) جامع المسانيد والسنن لابن كثير ٤/ ١١٠٥-١١٠٧.

(٥) جامع المسانيد والسنن ٤/ ١١٠٦.

قال الله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّبِيِّ تَطْبَهُرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥].

صلة الآيتين بما قبلهما:

خاطبت الآية الأولى والثانية من سورة الأحزاب نبي الله محمدًا ﷺ - وهو خطاب لكل مسلم - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١ - ٢].

فجاء هنا نهي بين أمرين:

الأول: يدعو إلى إتباع الحق في أجلى مظاهره، والثاني: ينهى عن الباطل في أجلى صورته، والصراع بين الإيمان والكفر محله القلب، فهو الذي يتخذ منهج الله أو يتخذ منهج الكافرين والمنافقين، فلا يجتمع الإيمان والكفر في قلب إنسان أبداً.

فجاء النص القرآني: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ مشيراً إلى ذلك.



## التفسير:

تتحدث هاتان الآيتان فيما أوحاه الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ من تشريع يخلّص به المجتمع من أعراف سيئة سادت في المجتمع الجاهلي، وقد ظلّم فيها من ظلّم بسبب شيوعها، حتى صارت نظاماً متعارفاً عليه بين الناس.. فجاء القرآن الحكيم لينقّض تلك الأعراف، ويغيّرُها بأحكام تحقق معالي الأمور ومقاصدها، لا ما أُصقت بالمجتمع من أعراف لا تتفق والعقل السليم ولا التشريع الذي يحقق العدل بين الناس<sup>(١)</sup>. فليس للإنسان قلبان يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، وإنما هو قلب واحد، يؤمن به أو يكفر: فإما أن يتبع منهج الله عز وجل، وإما أن يتبع منهج الكفر والضلال. فكما أنّ الإنسان ليس في صدره قلبان، فكذلك لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب واحد أيضاً.

ونتأملُ بالجملة القرآنية، فنراها أتت تمهيداً لإبطال تشريعين اثنين سارت على نهجها الجاهلية، الأول: مفهوم الجاهلية للظهار، والثاني: ما جرى عليه عرف الجاهلية في مسألة التبني.

أما الظهار، فقد كان الرجل إذا قال لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمي حرمت عليه، فصار حكمها - في عرفهم - حكمَ الأم النسبية في التحريم. وقيل: تكون المرأة - عند ذلك - معلقة، فلا هي بزوجة تعيش مع زوجها، ولا هي بمطلقة تستطيع أن تتزوج بعد الطلاق. وكان هذا جانباً من جوانب مأساة المرأة، وما

---

(١) جاءت الآية بقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وهي

تمهيد للرد على المشركين في الجاهلية الأولى في أمر الظهار والتبني.

تعاني من هضم حقوقها وإساءة معاملتها. ولم يترك الله الرحيم المرأة تتقلب على جمر الغضب، فشرع كفارة الظهر، لتتخلص من ذلك الظلم والحيف والافتئات، فإما أن تكون زوجة لها حقوق الزوجية، وإما أن يُطَلَّقَ سراحها فتذهب تشق طريقها في الحياة، فلا تكون المرأة التي ظاهرَ منها زوجها أما له حتى يصير له أُمَّان؛ فَإِنَّ الأُمَّ هِيَ الأُم، والزوجة هي الزوجة وكل واحدة منهما لها حقوقها وعليها واجباتها، وأما قول المظاهر: أَنْتِ عَلَيَّ كظهر أُمِّي، فلا يغيّر الحقيقة الواقعة: حقيقة الأمومة من جانب، والزوجية من جانب آخر: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

أما عن قضية التبني، فقد كان العرب يلحقون بأنسابهم من شأؤوا من الناس عن طريق التبني، فيختار الواحد منهم من يعجبه ممن لا يُعرف له أب فيتبناه، ويَعُدُّه ابنه، ويلحقه بنسبه، فيكون حكمه كحكم الولد الصلبي في التوارث والنسب. وهناك من الناس مَنْ لهم آباء معروفون، فكان الرجل إذا أُعجب بواحد منهم يتبناه ويلحقه بنسبه، فيدعى بابن مَنْ تبناه، وكانوا يعلنون ذلك أمام الناس.. وهكذا يكون المتبني واحداً من أسرة من تبناه، له ما على الأسرة من حقوق، وعليه ما عليها من الواجبات، وقد شاع وانتشر التبني قبل شروق شمس الإسلام على الوجود، وكان من أشهر المتبنيين في عهد الجاهلية: زيد ابن حارثة، تبناه النبي ﷺ، وعامر بن ربيعة، تبناه الخطاب أبو عمر بن الخطاب، وسالم تبناه أبو حذيفة، والمقداد بن عمرو، تبناه الأسود بن عبد يغوث، فكان كل

واحد من هؤلاء الأربعة يُدعى ابناً للذي تبناه<sup>(١)</sup>.

لقد أشرق شمس الإسلام على الوجود والتبني نظام قائم في المجتمع العربي وفي غيره من المجتمعات، حتى إن رسول الله ﷺ تبني زيد بن حارثة، فصار يدعى زيد بن محمد، إلى أن جاء تحريم التبني في القرآن الكريم..

لقد جاء هذا الدين، ووضع كل شيء في مكانه المناسب، فإن المتبني غريب عن أسرة من تبناه، فليست زوجة من تبناه بأمه، ولا بناته بأخواته... فمن الظلم أن يرث الدعيُّ من ميراث من ادَّعاه. وهكذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

والأدعياء: هم أولاد الذين يُدعون أبناءً لغير أبيهم، ونزلت الآية الكريمة لتنصَّ على أن الظهار والتبني في المفهوم الجاهلي إنما هو قولٌ باللسان ليس إلا، وليس فيه شيء يؤيده الواقع: فلا يُجعلُ الغريبُ قريباً، ولا الدعيُّ ولداً، فلا يجري دم المتبني في عروق من تبناه، ولا يرث خصائصه. فكما أن أيَّ إنسان لا يكون له قلبان في صدره، فكذلك لا تصير الزوجة التي ظاهر منها زوجها أمماً، ولا يصير الولد المتبني ابناً حقيقياً لمن تبناه: فالولد الحقيقي هو الذي ولد من صلبِ أبيه، وليس كذلك الولد المتبني؛ فإنه إصاق عارض بالتسمية ليس إلا.

﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

أجل إن ما تعارفتُم عليه من الظهار والتبني هي أقوال تتحدثون بها

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور ٢١/١٨٦، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ، بيروت.

بأفواهكم، وليس لها رصيد في الواقع الحقيقي، ومثل هذه الآية قوله تعالى على لسان الكافرين والظالمين والمسرفين على أنفسهم: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، فلا يرجعون إلى الدنيا، ولا يتحقق مضمون هذه الكلمة في الخارج.

وهكذا ألغت الآية الكريمة الآثار التي تترتب على نظام الظهر والتبني.

قال ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾:

(هذا القول وهو قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، وادعائه ابنه، إنما هو قولكم بأفواهكم لا حقيقة له، لا يثبت بهذه الدعوى نسب الذي ادّعت بُنُوته، ولا تصير الزوجة أمًا بقول الرجل لها: أنت عليّ كظهر أمي)<sup>(١)</sup>.

ثم جاءت زيادة بيان الحكم بطريقة معاملة الأدياء فقال تعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

وهذا الأمر من رب العالمين يحمل على الوجوب فيجب أن ينسب الأدياء إلى آبائهم في النسب إذا عرفوا، ولا يجوز أن يُنسبوا إلى غيرهم، ولا يجوز أيضاً أن تجرى عليهم أحكام آبائكم في النسب، فهذا الحكم أقسط عند الله، والأقسط: هو الأعدل. ولفظ (أقسط): اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، ف (لم يقصد بها) (بأقسط) التفضيل، وإنما قصد بها المبالغة في الوصف؛ حثاً على

(١) تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٩/٢٢، تحقيق: مكتب التبيان للدراسات

الإسلامية وتحقيق التراث/ حسن بن عبد الحفيظ أبو الخير وجماعته، الطبعة الأولى ١٤٣٠-

٢٠٠٩، دار ابن الجوزي، القاهرة.

التمسك بالحكم<sup>(١)</sup>. والمعنى: أن حكم الله عدلٌ كُلُّهُ، وحكم غيره جور على الآباء الحقيقيين وعلى الأعداء.

ولقد كانت الغزوات والحروب قائمة في الجزيرة العربية بين القبائل، وكان من يقع بالأسر يصير عبداً، ولا ينجو من يقع بالأسر من العبودية حتى الأطفال، فكانوا يباعون كما تباع السلع في الأسواق. وقد يكون الطفل صغيراً لا يُعرف من أبوه؛ فنزلت الآية الكريمة ترشد إلى الطريقة التي يجب أن يتبعها الذين يقومون بالتبني مع الأعداء في حالة عدم معرفتهم بأسماء آبائهم: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾.

والمراد بالموالي: الأولياء: أي فنادوهم بقولكم: يا أخي، ويا مولاي، فلا يجوز لكم أن تنسبوا هؤلاء إلى غير آبائهم الشرعيين. أما المتبني وغيره إذا عرف أباه، فيحرم عليه أن ينتسب إلى غيره، وقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك أشدَّ التحذير فقال:

«من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»<sup>(٢)</sup>.

وقال:

«ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر...»<sup>(٣)</sup>.

وهذان الحديثان فيهما ما فيهما من التهديد والوعيد ممن تبرأ من نسبه الصحيح.

(١) أولى ما قيل في آيات التنزيل لأستاذنا الشيخ رشيد الخطيب الموصلي ٤٧/٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الفرائض (باب: من ادعى إلى غير أبيه)، حديث ٦٧٦٦، ص ١١٦٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان من قال لأخيه المسلم: يا كافر)، حديث ٢١٧، ص ٤٧.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

إنه نص صريح على أن ما يقوله الله هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، وهو السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يهدي إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة.

هكذا يأتي الخطاب الإلهي يدعو الناس إلى ترك ما تعارفوا عليه وألفوه في أمر الظهار والتبني، لأن هذا هو منهج الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه.

ولما كان رفع الحرج من خصائص التشريع الإسلامي، فقد بين القرآن الحكيم هنا أن الخطأ غير المتعمد لا يؤاخذ الله عليه: كمن نسي فنسب الولد المتبني إلى غير أبيه النسبي عن طريق الخطأ من غير قصد، فإن كان قاصداً في قوله فيصير عاصياً لله، وقد أمر الله سبحانه عباده أن يدعوه بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ

نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا من رحمة الله تعالى بنا، فلا تكون المؤاخذة ولا يكون العقاب إلا فيما يتعمد الإنسان من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم النسبيين، ورحمة الله كانت - وما زالت كذلك - واسعة لعباده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يغفر لكم ما كنتم عليه قبل نزول هاتين الآيتين، ويغفر لكم ما أخطأتم به عن سهو غير متعمد.

\*\*\*

## ثناء ووسام من السماء لأُمّوذج من الشهداء

قال الله تعالى:

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر؛ فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال:

اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال:

يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مُثِّلَ به، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب: قول الله عز وجل: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...)، حديث ٢٨٠٥، ص ٤٦٥.

## أنس بن النضر رضي عنه

هو أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي، عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وقد ولد في أسرة عريقة النسب أمًّا وأبًّا، وعُرفَ بمكانته المرموقة عند العرب، كما عُرفَ ببسالته وبطولته وإقدامه. أسلم على يدي رسول الله ﷺ، وأحبَّ رسوله الكريم من أعماقه، وأثنى عليه رسول الله ﷺ، كما أثنى عليه الله عز وجل من فوق سبع سمواته. وتتلخص قصةُ ثناء الرسول الكريم عليه بالحادثة الآتية:

كان لأنس بن النضر أخت عاقلة حصيفة، لها منزلة مرموقة في قومها اسمها (الرَّبِيع بنت النضر)، وحدث أن وقع شجار بينها وبين جارية في المدينة، وقد لطمت الربيع تلك الجارية فكسرت ثنيتها، وندمت على ما كان منها، وتألّمت عائلة الربيع لما وقع، وأرادوا أن يُرضوا أهل الجارية فأبوا، ثم طلبوا منهم العفو فأبوا أيضاً إلاَّ أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينها.

ولما مثَّل الطرفان أمام الرسول الكريم أمرَ بأن تكسر ثنية الربيع. وعزَّ على أنس أن تكسر ثنية أخته فقال للرسول الكريم: أتكسر ثنية الربيع؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها! ويلتفت الرسول الكريم إلى أنس فيقول له: «يا أنس، كتابُ الله القصاص». وهنا أراد الله عز وجل أن يُبرِّقَ أنس، فقذف في نفوس أهل الجارية أن يَعْفُوا عنها أو يرضوا بالدية، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد



الله من لو أقسم على الله لأبره»<sup>(١)</sup>.

أما عن ثناء الله على أنس، فيتمثل فيما صنعه من بطولة في (غزوة أحد)، فقد كانت الجولة الأولى في هذه الغزوة في صالح المسلمين، لكن انقلب نصرهم إلى هزيمة لما خالف قسم من الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ على الجبل، وأمرهم أن لا يغادروا أماكنهم سواء كان النصر للمسلمين أو عليهم، فلما رأى قسم من الرماة في الجولة الأولى أن النصر كان حليف المسلمين، فظنوا أن القتال قد حُسم لصالحهم، فتركوا أماكنهم ليشاركوا إخوانهم في الغنائم، فانقَصَّ عليهم المشركون فقتلوا من بقي منهم على الجبل، وانحدروا يُعملون سيوفهم في رقاب المسلمين، فتضعض جانب المسلمين، ووقعت المأساة الكبرى هناك، وقُتل من المسلمين شائعة قتل رسول الله ﷺ، وهنا تتبين معادن الرجال. لقد نظر أنس إلى تلك المأساة، وتذكرَّ عهده لله (لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع)، ونقذ ذلك الوعد. وتحَدَّث المقريزي عن قتال أنس رضي الله عنه فقال:

(مرَّ أنس بن النضر بنفر من المسلمين فعود فقال: ما يُتعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات)<sup>(٢)</sup>.

وقال:

(يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإنَّ ربَّ محمد لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل

---

(١) تنظر هذه الرواية في صحيح البخاري، كتاب الصلح (باب: الصلح في الدية، حديث ٢٧٠٣ ص ٤٤١).

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٦٤.

عليه محمد ﷺ<sup>(١)</sup>.

وقال أيضاً:

(إن كان رسول الله ﷺ قد قُتِل، أفلا تقاتلون عن دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء؟)<sup>(٢)</sup>.

لم يفتَّ في عضد أنس، ولم يُضعِف معنويته شائعة موت رسول الله ﷺ التي شاعت وانتشرت، فانطلق كالأسد المصور يقاتل بتلك الشجاعة التي أذهلت كل من رآه، ولربما ازداد شجاعة على شجاعته وقوة على قوته؛ إذ ما قيمة الحياة بعد موت رسول الله ﷺ؟ وإذا كان الرسول الكريم قد قتل، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.

ومن أعظم تلك المواقف في المعركة: لما استقبل أنسُ سعداً بن معاذ فقال: (يا سعد، الجنة ورب النضر، إني أجدرُ ريجها من دون أحد)<sup>(٣)</sup>.

ويتحدث سعد بن معاذ عن شجاعة أنس فيقول: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

وماذا قال أنس بن مالك (ابن أخي أنس بن النضر) وقد سُمِّي باسمه - لما

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥/٤.

(٢) دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ١٦٦/٣.

(٣) قال محمد بن يوسف الصالحي الشامي معلّقاً على قول أنس: (إني لأجدُ ريج الجنة دون أحد)، (يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة بأن يكون شمّ رائحةً طيبةً زائدة على ما يعهده؛ فعرف أنها الجنة، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين، حتى كأنَّ الغائب عنه صار محسوساً عنده. والمعنى: أنَّ الموضعَ الذي قاتل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنة).

سبل الهدى والرشاد للإمام محمد بن يوسف الصالحي ٢٤٧/٤.

انجلى المعركة؟ قال:

(فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمج، أو رمية يسهم،  
ووجدناه قد قُتل، ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه)<sup>(١)</sup>.

ويكفي أنساً من الفضل أن الله عز وجل أنزل فيه قرآناً، يتعبد المسلمون  
بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ<sup>ط</sup>  
فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ<sup>ط</sup> وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

\*\*\*

---

(١) متفق عليه.

قال الله تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بِدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

صلة الآية بما قبلها:

تحدث القرآن قبل هذه الآية في الصور السيئة التي كان عليها المنافقون.. أولئك الذين عاهدوا الله ألاَّ يُؤثُّوا الأدبار وألاَّ يفروا من الزحف، لكنهم نقضوا عهدهم..! ثم جاءت الآية التي نتحدث فيها تصف المؤمنين الصادقين، أولئك الذين تشبعت أرواحهم بالإيمان الحق، فثبتوا على عهدهم الذي عاهدوا الله عليه، واستمروا عليه ثابتين.

التفسير:

تحمل الآية الكريمة ذلك الشناء العاطر والمدح الكبير من الله العليِّ الكبير، وهو وسام عظيم لصحابة رسول الله رضي الله عنهم، وبخاصة من نزلت الآية فيهم، وأولهم أنس بن النضر، وتشمل إخوته طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.!

وقبل هذه الآية الكريمة عرض القرآن صورة ذلك الأنموذج السيء، المتمثل بالمنافقين الذين وكَّوا الأدبار ولم يوفوا بما عاهدوا عليه الله. فجاء النص الكريم في هذه الآية في مقابلة أولئك، وهو يتحدث في أنموذج وضاء يحمل الإيمان العميق في جوانحه: صورة الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وعلى

أي شيء عاهدوا الله جل جلاله؟

إنهم عاهدوه على الثبات في القتال مع رسول الله، فلا تراجع ولا هرب حتى يفوزوا بإحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.

أما (النحب) في الآية: فهو النذر أو العهد. وقضاء النحب: الالتزام بالوفاء بالنذر أو العهد وقد أُستعير للموت. وهناك من رجال الصحابة من نذروا أن يثبتوا في أي حرب يخوضها رسول الله ﷺ وألا يفروا عنه، وكان من هؤلاء أنس ابن النضر، فإنه لم يشهد (غزوة بدر) وقد شقَّ عليه ذلك، فنذر إن أشهده الله قتال المشركين ليرينَّ الله ما يصنع. وتقع غزوة أحد ويفعل أنس في أعداء الله أعاجيب من الشجاعة والبطولة، وتنزل الآية الكريمة فيه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۗ﴾. والآية الكريمة - وإن نزلت فيه - تشمل أيضاً كثيراً من الصحابة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، وأبلوا مع الرسول الكريم ذلك البلاء الحسن.. هؤلاء الصحابة ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ ﴿فوفى بما عاهد عليه الله حتى استشهد كأنس بن النضر وحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير... وغيرهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ﴾ الشهادة في سبيل الله، فهو مستمر على الوفاء بعهده، ومن هؤلاء: طلحة بن عبيد الله الذي وقف يحمي رسول الله لما اقترب منه المشركون، وقد وقى الرسول بنفسه، واتقى النبل عنه بيده، فُشِّلت أصابعه، وأُصيب بأربع وعشرين جراحة، وقال فيه رسول الله ﷺ آنذاك: «أوجبَ طلحة»<sup>(١)</sup> أي وجبت له الجنة.

(١) رواه الترمذي في (باب: مناقب أبي محمد طلحة بن عبيد الله)، حديث ٣٧٣٨، ص ٨٥٠.

وروى موسى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وعزى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾؛ فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلت وعليّ ثوبان أخضران حضرميان فقال: «أيها السائل: هذا منهم»<sup>(١)</sup>.

ولما انجلت غزوة أحد، وقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير حين دفن وهو يتلو قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...﴾.

لقد ظل الصحابة صادقين على الوفاء بعهدهم، إنهم لم يُعَيَّرُوا ولم يبدلوا، ولم ينقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه، فهم ليسوا كأولئك المنافقين الذين قالوا - كما حكى القرآن -: ﴿إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾<sup>(١٣)</sup> وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا<sup>(١٤)</sup> وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَذْبُرَ<sup>(١٥)</sup> [الأحزاب: ١٣ - ١٥].

ونختم بما قاله الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله في هذه الآية:

(إنَّ هذه الآية الكريمة تعتبر برقية عزاء ربانية ظاهرة، نزل بها أمين السماء، وسفير الأنبياء، وكبير أمناء وحي صاحب العظمة والكبرياء، نزل بها الروح الأمين على قلب أمين الأرض والسماء، وقد شهد الله لهؤلاء الطاهرين الطيبين في هذه الآية بثلاث خصال: شهد لهم بالإيمان، وهو العقيدة التي إذا تابشرت

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٢.

بشاشتها شغاف القلوب وتمكنت، تكاد تجعل المستحيل ممكناً، والملح الأجاج  
عذباً فراتاً سلسيلاً، كما شهد لهم بالرجولة، والرجولة عملة نادرة، وكلمة طالما  
اهتزت لها أعواد المنابر، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب، والإسلام صانع  
الرجال الذين جعلوا من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان  
في أرض الإسلام... وكما شهد الله لهم بالإيمان والرجولة شهد لهم بصدق  
العهد...<sup>(١)</sup>.



---

(١) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ٥/ ٤١٢٤-٤١٢٥.

## المساواة في الثواب والجزاء بين الرجال والنساء

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن أمِّ عُمارة الأنصارية رضي الله عنها: أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلاَّ للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيءٍ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥].<sup>(١)</sup>

وهناك روايات أخرى ذكرت أن السائلة لرسول ﷺ كانت (أم سلمة) رضي الله عنها.

\*\*\*

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، حديث ٣٢١١، ص ٧٢٩، والطبراني في

معجمه الكبير، حديث ٥١، ٣١/٢٥.



## أمُّ عَمَارَةَ

### نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

نحن الآن أمام امرأة لم تدهش المسلمين وحدهم - بجهادها في سبيل الله، وشجاعته التي سارت بذكرها الركبان في معارك الحروب، وصليل السيوف تصطك منه الأسعاع، ورؤوس الناس تتساقط من هنا وهناك، بل أدهشت كل من قرأ سيرتها في دفاعها عن الإسلام، منذ أن شرفها الله بهذا الدين إلى أن لقيت ربها عز وجل. فهي صحابية كبيرة الهمة، وذات إيمان راسخ رسوخ الجبال، وقد جمع الله لها الفضائل من أطرافها، فكانت العابدة الصائمة القائمة، وكانت الأمّ الرؤوم التي ربّت أولادها على مكارم الأخلاق وجميل الخلال، وكانت الزوجة التي تعرف حق زوجها عليها، وكملت سجاياها الطيبة بمكانتها في قلب رسول الله ﷺ وفي قلوب أصحابه.

وتسألني من هذه الصحابية التي ذكرت من خصالها الرائعة ما ذكرت، فقد صرت في شوق إلى سماع سيرتها؟

إنها نسيبة بنت كعب النجارية الأنصارية التي عرفت بـ (أمّ عمارة) باسمها وكنيتها معاً.

### إسلامها:

لما أشرقت شمس الإسلام على الوجود، وأرسل الله خاتم أنبيائه ورسوله

محمدًا ﷺ رسولاً للعالمين، ظل يدعو قومه إلى توحيد الله، وعبادته - سبحانه - وحده دون سواه، لكنَّ قومه كانوا يصدون عنه صدوداً، فلم يؤمن بدعوته - وهو يدعوهم - فيما يقرب من ثلاث عشرة سنة إلا قليلاً. ولم يكتف المشركون بصددهم عن هذا الدين، بل عدّوا على من آمن بالله ورسوله يسومونهم سوء العذاب<sup>(١)</sup> فاضطُّروا إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة. ويشاء الله النصرَ لدينه، ففتح قلوب عدد قليل من أبناء المدينة التي كانت تسمى (يثرب) فأسلموا، وبايعهم رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى، وأرسل سفيره إلى المدينة (مصعباً بن عمير)، فأسلم على يديه من أسلم من أهلها، وكانت (أم عُمارة) ممن أسلمت على يديه. كما أسلم أيضاً أخوها عبدُ الله بن كعب المازني، الذي شهد غزوة بدر فيما بعد، وأخوها عبد الرحمن، وكان من البكائين، وزوجها زيد بن عاصم وولداها حبيب وعبد الله ابنا زيد بن عاصم، بايعت (أم عُمارة) رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية، وشهدت (غزوة أحد) و (الحديبية) و (يوم حنين) و (يوم اليمامة).

### بيعة العقبة الثانية:

وبعد بيعة العقبة الأولى بسنة جاء إلى رسول الله ﷺ ركب من (يثرب) التي سماها رسول الله ﷺ بعد هجرته إليها (المدينة)، قوامه اثنان وستون رجلاً وامرأتان؛ ليبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية. فأما المرأتان فهما: (أمُّ عُمارة نسبية بنت كعب) والثانية أُختُها: (أسماء بنت كعب) - وقيل أمُّ منيع أسماء بنت عمرو - رضي الله عنهما، وقد بايعتا النبي ﷺ وكان لا يصافح النساء، بل كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: «اذهبن»... (وكان معها زوجها زيد بن عاصم،

(١) لزيادة الإطلاع بنظر كتابنا: من روائع القصص في توضيحات الصحابة.

وابناها منه: حبيب الذي قتله مسيلمة الكذاب فيما بعد، وعبد الله وهو راوي حديث الوُضوء...<sup>(١)</sup>.

هكذا بايعت هاتان المرأتان بيعة العقبة الثانية؛ ليسجل التاريخ لهما مكرمةً مدى الدهر. فقد عاهدت (أم عمارة) رسول الله ﷺ في بيعتها النصر لرسول الله ﷺ ووفت بما عاهدت عليه، فكانت أول امرأة في الإسلام حملت السلاح وقاتلت في سبيل الله.

### في غزوة أحد:

خرجت (أم عمارة) إلى (غزوة أحد) لما خرج رسول الله ﷺ إليها، لتسقي المسلمين المجاهدين الماء، ولتصنع لهم الطعام، ولتعضب جروح المصابين في القتال، فلم تخرج رضي الله عنها لتقاتل، وما كان المسلمون في عهد رسول الله ﷺ يُخرجون نساءهم ليقاتلوا، وكانت قد أعدت عصائب لتشد جراح من يجرح... خرجت إلى غزوة أحد وليس معها شيء من أدوات الحرب: لا سيفاً ولا نبلاً ولا رمحاً ولا قوساً.

ولما بدأت المعركة، نظرت (أم عمارة) إلى النصر الذي أحرزه المسلمون وجه النهار فسرها ذلك وتاهت به فرحاً، لكن أصابها الكرب بعد الكرب والغم بعد الغم، لما دارت الدائرة على المسلمين، فانقلب نصرهم إلى هزيمة، وصارت سيوف المشركين تعمل في رقاب المسلمين، فقتل من صحابة رسول الله ﷺ من قتل - وممن قتل زوجها (زيد بن عاصم) - وقد راعها حقاً وكادت تفقد صوابها حين أتته

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٤/٢٤٣.

المشركون إلى رسول الله ﷺ يريدون قتله، ولم يكن مع الرسول الكريم إلا عدد قليل لا يجاوزون عشرة من الصحابة يدافعون عنه...! عند ذاك دخلت (أمُّ عُمارة) التاريخ من أوسع أبوابه لما انحازت إلى رسول الله ﷺ تردُّ عنه عادية الأعادي مع من بقي معه من الصحابة. ولم يرع صحابة رسول الله ﷺ إلا (ابن قميئة) متجهاً إلى رسول الله ﷺ - وهو فارس معروف بقوته القتالية - وهو يصيح: (دُلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ فَلَا نَجْوَتْ إِنْ نَجَا، فاعترض له (مصعبُ بنُ عمير) وناس معه - تقول أمُّ عُمارة - فكنْتُ فيهم فضرِبني ابن قميئةَ ضربةً فاجرة - ولقد ضربتُه على ذلك ضربات، ولكنَّ عدوَّ الله كان عليه درعان)<sup>(١)</sup>.

ومن ذكريات هذه الغزوة ما قالته (أمُّ عُمارة): (... ورأني رسول الله ولا ترسَ معي، فرأى رجلاً مولياً ومعه ترس فقال: ألق ترسك إلى من يُقاتل؛ فألقاه فأخذته فجعلتُ أترسُ به عن رسول الله ﷺ)<sup>(٢)</sup>.

إن المواقف التي وقفتها (أمُّ عُمارة) في (غزوة أُحد) مع ولديها قلَّ مثلها: فهذا ولدها عبد الله جرحاً جرحاً غائراً، وصارَ دمه ينزف من غير انقطاع، ويراه رسول الله ﷺ على هذه الحالة فيقول له: اعصبْ جرحك)، وبصُرْتُ به والدته وكان معها عصائب قد أعدتها للجرحى ووضعتها في معقد إزارها، فجاءت فربطت جرحه، والرسول الكريم واقف ينظر، وما إن انتهت من ربط جرح ابنها حتى قالت له: (أَيُّ بُنْيٍّ، قم فضارب القوم). وقد أعجب رسول الله ﷺ بهذه الشجاعة فخطبها قائلاً: (من يُطيق ما تطيقين يا أمُّ عُمارة؟ وما هي إلا فترة

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ١٠ / ٣٨٤.

(٢) كتاب الطبقات الكبير ١٠ / ٣٨٤-٣٨٥.

وجيزة حتى أقبل ضاربُ ابنها؛ فقال لها رسول الله ﷺ: هذا ضارب ابنك؛ فأقبلت إليه وضربت ساقه فبرك؛ وبيتسم رسول الله ﷺ بعد الذي رأى ويخاطبها قائلاً: «استقدتِ يا أمَّ عُمارة». وتابعت (أمَّ عُمارة) مع ابنها ضربه حتى مات، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك وأقرَّ عينك من عدوك، وأراكِ تاركِ بعينك»<sup>(١)</sup>.

وتحدّث ابنها عبد الله بن زيد بن عاصم فقال:

(شهدتُ أحداً فلما تفرَّقوا عن رسول الله ﷺ، دنوتُ منه أنا وأمي تذبُّ عنه؛ فقال: «ابن أمَّ عُمارة؟» قلت: نعم، قال: «ارم»؛ فرميتُ بين يديه رجلاً بحجر - وهو على رأس فرس - فأصبتُ عينَ الفرس؛ فاضطرب الفرس؛ فوقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة، والنبي ﷺ يبتسم، ونظر إلى جرح أُمِّي على عاتقها فقال: «أُمَّك، أُمَّك، اعصبِ جرحها اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن حقق المشركون ذلك النصر على المسلمين في غزوة أحد، تلاوموا وهم في طريقتهم إلى مكة، وقالوا: (لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم وتركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم؛ فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم)<sup>(٣)</sup>.

ولما وصل هذا الخبر إلى رسول الله ﷺ بما عزم عليه المشركون، ندب المؤمنين الذين اشتركوا في (غزوة أحد) - وكثير منهم مُتخَن بالجراح - لملاحقة المشركين، دون غيرهم ممن لم يشترك بالغزوة... أما (أمَّ عُمارة)، فكانت قد

(١) ينظر: كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ١٠ / ٣٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣ / ٤١، حديث ١٤٢٦.

جُرحت اثني عشر جُرحاً - أو ثلاثة عشر جُرحاً - وحاولتُ أن تلتحق برسول الله ﷺ، وشدتُ عليها ثيابها، لكنها لم تطق لكثرة الدماء التي كانت تنزف منها، وظلت تعالج جراحاتها حتى الصباح، وتسمى هذه الغزوة بـ (غزوة حمراء الأسد)<sup>(١)</sup>.

ولم ينس رسول الله ﷺ ما أصابها، فما إن عاد إلى المدينة، حتى أرسلَ أخاها عبد الله بن كعب ليطمئن على سلامتها، وعاد عبد الله فأخبره بسلامتها؛ فسرَّ بذلك رسول الله ﷺ، وظلت تعالج جرحها الذي أصابها من (ابن قميئة) ما يقرب من سنة!

فلا نعجبُ إذا علمنا أن رسول الله ﷺ أكثرَ من الشناء عليها فقال: «لمقام نُسبية بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «ما التفتُ يمينا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني»<sup>(٣)</sup>.  
وأثنى صلوات الله وسلامه عليه على أسرتها فقال: «رحمكم الله أهل البيت»<sup>(٤)</sup>.

وتقدّمت (نُسبية) إلى رسول الله ﷺ راجية أن تحظى منه بأمنية هي أعزُّ الأمانيّ عندها!

ولا يظنُّ أحد أنها رجت من رسول الله ﷺ جاهاً أو مالاً أو عَرَضاً من أعراض

(١) حمراء الأسد: موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٢٧٨-٢٧٩، وكتاب الطبقات الكبير لابن سعد ١٠/ ٣٨٤.

(٣) كتاب الطبقات الكبير ١٠/ ٣٨٦.

(٤) كتاب الطبقات الكبير ١٠/ ٣٨٦.

الدنيا الزائلة! لا، فما كانت الصحايات يضعن نُصَبَ أعينهنَّ شيئاً من ذلك، ولننظر ماذا رجت الرسول الكريم؟

لقد رجته أن يدعو الله لتكون مرافقته في الجنة فقالت: أَدْعُ الله أن نرافقك في الجنة. فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة». فقالت - عند ذاك - : ما أبالي ما أصابني من الدنيا<sup>(١)</sup>.

ولم تكن هذه هي الغزوة الوحيدة التي غزتها مع رسول الله ﷺ، فقد شهدت (بيعة الرضوان) و (غزوة خيبر) و (غزوة حنين)، وبعد ذلك (حرب اليمامة) في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فقد بايعت رسول الله ﷺ (بيعة الرضوان): تلك البيعة التي نصَّ الله تعالى فيها على رضوانه على كل من بايعه تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم من إخلاص وصدق لله عز وجل فقال تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وأثنى سبحانه وتعالى على المبايعين مرة أخرى فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وكانت نسيبة ممن حضرت هذه البيعة، وبايعت رسول الله ﷺ مع عدد من

(١) كتاب الطبقات الكبير ١٠/٣٨٦.

المؤمنات اللاتي أردن تقديم ما يستطعن تقديمه لجيش رسول الله ﷺ.

وشهدت (أم عمارة) غزوة خيبر مع الرسول الكريم ومعها عشرون من النساء المؤمنات اللاتي التمسن من رسول الله الخروج معه لمداواة الجرحى، وإعانة المسلمين، وكانت (أم عمارة) الموجهة للنساء - آنذاك - . وأصاب المسلمون في هذه الغزوة خرزاً من (حصن الصعب بن معاذ) أحد حصون خيبر، وكان مدفوناً في باطن الأرض. فقسم رسول الله ﷺ الخرز بين من كان معه من النساء، وكان عددهن عشرين امرأة، وأعطى كل واحدة منهن من الفياء: قطيفة، وبرداً يمانياً، وعشرين ديناراً.

وشهدت رضي الله عنها (غزوة حُنين) فقالت:

(لما كان يؤمئذ، والناس منهزمون في كل وجه، وأنا وأربع نسوة في يدي سيفٌ لي صارم، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها - وهي يؤمئذ حامل بعد الله بن أبي طلحة - وأم سليط وأم الحارث. فجعلت (أم عمارة) تسلُّ سيفها وتصيح بالأنصار: أية عادة هذه ما لكم وللفرار؟! قالت: وأنظرُ إلى رجل من هوازن على جمل أورق، معه لواء، يُوضَعُ جملة في أثر المسلمين، فأعترضُ له فأضربُ عرقوب الجمل... فوقع على عجزه، وأشدُّ عليه، فلم أزل أضربه حتى أثبتته (أي قتلته)، وأخذتُ سيفاً له، وتركت الجمل يخرخر: يتصفق ظهراً لبطن...) (١).

(١) كتاب المغازي لمحمد بن عمر الواقدي ٢/ ٣١٥.



## في حرب اليمامة:

قبيل أن ينتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ظهرت حركة المتنبئين الكذبة - ومنهم مسيلمة الكذاب - وقد تبعته أعدادٌ غير قليلة من قومه، اتّباعاً للعصبية الجاهلية، وقد أرسل رسول الله ﷺ (حبيباً بن زيد) وهو (ولدُ أم عُمارة) برسالة إلى مسيلمة الكذاب. ويحمل حبيبُ الرسالة، فلما تسلّم مسيلمة الرسالة سأل حبيباً: أتشهدُ أنّ محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، وسأله مرة أخرى أتشهدُ أنّي رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع... فعل ذلك مراراً وجواب حبيب هو الجواب: أنا أصمُّ لا أسمع، فقطعه مسيلمة عضواً عضواً<sup>(١)</sup>. فعل مسيلمة ذلك مع أنّ العُرفَ الشائع أنّ الرسل لا تقتل.

وبلغ أمّ عُمارة قتل مسيلمة ولدها، فرضيت بقضاء الله وقدره وصبرت، وكم كانت تمنى أن تقوم هي بقتل مسيلمة. ولما عزم أبو بكر على قتال مسيلمة الكذاب - كذاب بني حنيفة - استأذنت (أم عُمارة) أن تذهب مع جيش المسلمين، لعل الله يقرّ عينها فتقوم بقتله. وانطلق الجيش الإسلامي على بركة الله، وسارت معه، وكانت قد أسنّت، ووهنَ جسمها واشتعل رأسها شيباً، لكنها كانت تحمل فؤاداً في عنفوان فتوته، وأوصى بها أبو بكر خالد بن الوليد، فكان يتعاهدا في المعركة فقاتلت. قتال الأبطال متنكرة بزى المقاتلين.

لقد كانت رضي الله عنها تمنى نفسها بقتل مسيلمة، فلما قربت منه وجدت ولدها عبد الله بن زيد ووحشياً قد اشتركا في قتل مسيلمة: رماه وحشي بالحرية،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٧٨.

وضربه عبد الله بالسيف فقتله.

وفي هذه المعركة أصيبت (أم عُمارة) بأحد عشر جرحاً، وقُطعت يدها. وبعد أن عادت إلى المدينة كان أبو بكر - وهو خليفة - يأتيها يسأل عنها<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أتى رضي الله عنه بمروط<sup>(٢)</sup>، فيها مرط جيد، فبعث به إلى (أم عُمارة)<sup>(٣)</sup>.

### وحان وقت الرحيل:

وبعد تلك التضحيات والجهاد في سبيل الله، أتاه أمر الله الذي لا مردَّ له، فنامت على فراش الموت، بعد أن فازت برضوان الله؛ لترافق رسول الله ﷺ في الجنة التي أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين: «... ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»<sup>(٤)</sup>.



---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨١.

(٢) المروط: جمع مرط: وهو الكساء من صوف أو خز.

(٣) كتاب الطبقات الكبير ١٠/ ٣٨٦، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨١.

(٤) حديث قدسي رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: صفة الجنة)، حديث

٧١٣٢، ص ١٢٢٨.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ  
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ  
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ  
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا  
عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

صلة الآية بما قبلها:

أثنت الآياتُ السابقاتُ لهذه الآية على أزواج النبي الطاهرات رضي الله  
عنهن، ودعتهن إلى ما يحفظ عليهن مقامهنَّ العظيم ومكانتهنَّ العالية عند الله،  
ومنزلتهنَّ الرفيعة في نفوس المسلمين، وسَمَّتْ بمقام المرأة بعد أن ضاعت  
حقوقها في المجتمع الجاهلي. وجاءت الآية الكريمة لتتصَّ على أن الله تعالى يُثيبهنَّ  
في العالم الآخر كما يُثيب الرجال في التكليف سواء بسواء.

التفسير:

مقدمة:

تضمنت الآية الكريمة عشرًا من الصفات العظيمة القدر، الجليلة المعنى،  
ويكون مَنْ حَقَّقَهَا في نفسه من الذكور والإناث قد استحق وعد الله بالمغفرة  
والأجر العظيم في الآخرة، وصار لُبنة صالحة في الدنيا، يُسعدُ بها المجتمع، وهل  
تُبنى المجتمعات إلاَّ بهذه النماذج المتصفة بهذه الصفات الفاضلات التي تجعل مَنْ  
يعيش في أكنافها وفي ظلالها من الناس في أَمْنٍ وأمان وسلامة واطمئنان، وهناك

يجد الإنسان كرامته وحريته، وما أسعد من وفقه الله للاتصاف بهذه الصفات  
الفاضلات، ويكفي أن الله تعالى رضي عنه، ومن رضي الله عنه أدخله جنته وهذه  
الصفات هي:

١. الإسلام ٢. الإيمان ٣. القنوت لله ٤. التصديق ٥. الصبر ٦. الخشوع  
٧. الصدق ٨. الصوم ٩. حفظ الفرج ١٠. ذكر الله كثيراً.

واستوى في هذه الصفات في الآية الرجال والنساء؛ للنص على المساواة  
بينهما، وتبيان مكانة المرأة. والآية بشرى لكل من اتصف بهذه الصفات.

### مسألة التغليب في اللغة والبلاغة<sup>(١)</sup>:

مما لا شك فيه أن الله تعالى لو ذكر في الآية المسلمين والمؤمنين والقانتين...  
وحدهم ولم يذكر المسلمات والمؤمنات والقانتات... لكانت النساء داخلاتٍ في  
المتصفين بهذه الصفات، وذلك من باب تغليب الذكور على الإناث، وقد أقرت  
لغة القرآن هذا، وعلى سبيل المثال: لو جاء إلى أية دائرة كانت من الدوائر خمسون  
موظفاً من موظفيها وموظفة واحدة فقط لَصَحَّ أن نقول جاء الموظفون - والموظفة  
داخلة فيهم - وذلك من باب تغليب الذكور على الإناث، ولكن لماذا نصت الآية  
على الذكور والإناث من المسلمين والمسلمات؟

---

(١) التغليب: هو إعطاء الشيء حكم غيره، وهو أنواع، منها: التغليب بالثنوية، من ذلك قولنا:  
(الأبوان) للأب والأم، و (العمران) لأبي بكر وعمر، ومن ذلك خطاب القرآن الكريم: (يا أيها  
الذين آمنوا)، فإنه يشمل الرجال والنساء.  
ويعدُّ التغليب من المجاز، لأنَّ اللفظ لم يُستعمل فيها وُضع له.

السبب في ذلك - والله أعلم - أن المرأة في المجتمع الجاهلي أصابها ما أصابها من العَبْن والحيف والظلم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينصَّ على تشریفها في هذه الآية، ويبيِّن أنها كالرجل في التكليف سواء بسواء، فهي مدعوة إلى الاتصاف بكل صفة من هذه الصفات المذكورة في الآية، وهي كالرجل في هذا!

ونظر في القرآن الكريم، فنراه قد نصَّ في آيات أخرى على ذكر الذكور والإناث معاً، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. فتنبَّص الآية الكريمة على مسألة مساواة الذكر والأنثى في التكليف.

ومن القواعد الثابتة أن المرأة الطائعة لله هي أفضل من آلاف الرجال العاصين له جلَّ جلاله.

## ١. الإسلام: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾

الإسلام: هو الانقياد والخضوع والاستسلام لأمر الأمر ونهيه بلا اعتراض. فالمسلم مَنْ يُسَلِّمُ أمره لله، وينقاد إلى اتباع أوامره والانتهاز عن نواهيه، متبَعاً منهجه جَلَّ جلاله، ملتزماً بكل ما فيه بلا اعتراض. ويدخل الإنسان بالإسلام حين يقرُّ بالشهادتين، ويصدق بما فرضه الله عليه من فرائض الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج... فكلُّ مَنْ أقرَّ بذلك مع النية الصادقة صار مسلماً. وقد بيَّن رسول الله ﷺ المراد بالإسلام لما سأله جبريل بحضور عدد من الصحابة الكرام؛ فأجابه صلوات الله وسلامه عليه:

«الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة

وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً<sup>(١)</sup>.

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»<sup>(٢)</sup>.

ويبدو من هذين الحديثين وغيرهما: أن عناصر الإسلام هذه الصفات الخمس، فمن توافرت فيه مع صدق نيته في كل واحدة منها، صار مستجمعاً لصفة الإسلام.

وجاء ذكر (المسلمات) في الآية تشريفاً لهن، وإن كُنَّ داخلات مع المسلمين من باب التغليب، وصدّرت الآية بأداة النصب (إنّ) - وهي تفيد التوكيد - لتبيان أهمية هذه الصفات التي يستوي فيها في التكليف: الرجال والنساء.

## ٢. الإيـمان: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

الإيمان: هو التصديق القلبي القاطع الجازم بوجود الله، والإذعان القلبي لكل ما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل، مع اطمئنان القلب في ذلك. ولا يعتبر هذا التصديق إلا مع التلفظ بالشهادتين لمن يقدر على ذلك، وقد بيّن رسول الله ﷺ معنى الإيمان فقال:

«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان)، حديث ٩٣، ص ٢٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب: دعاؤكم إيمانكم)، حديث ٨، ص ٥.

وشره<sup>(١)</sup>.

وفي رواية البيهقي في شعب الإيمان:

«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(٢)</sup>.

ونتأمل آيات القرآن، فنجد لكل من الإسلام والإيمان مفهوماً يختلف عن المفهوم الآخر، فيكون من اتَّصَفَ بالإيمان قد حاز على مرتبة أعلى من مرتبة الإسلام، قال تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فلم يكن هؤلاء الأعراب من المنافقين، بل كانوا من المسلمين، لكنهم ادَّعَوْا لأنفسهم منزلة أعلى من المنزلة التي كانوا عليها - فبيَّن القرآن أن الإسلام مقدمة توصل إلى الإيمان. وعلى هذا يكون كل مؤمن مسلماً، وليس كل مسلم مؤمناً، وحين يسمو المسلم بدينه يثمر ثمرته المرجوة: وهو الإيمان، فيكون الإيمان أخصَّ من الإسلام.

٣. القنوت: ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾

القنوت: هو الخضوع والطاعة، وقنتَ لله: أي أطاع الله، وخضع له، وأقرَّ بالعبودية له، فهو لزوم الطاعة، فليس قانتاً لله من داوم على الطاعة عدداً من

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: الإيمان والإسلام والإحسان)، حديث ٩٣، ص ٢٥.

(٢) شعب الإيمان للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، حديث ٢٧٨، ٢٥٧/١.

الأشهر والسنوات، ثم تحبو طاعته لله عز وجل، وقد سئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «أدومُّها وإنَّ قلَّ»<sup>(١)</sup>.

ولا يتصف الإنسان بصفة القنوت إلاَّ بعد أن يتصف بصفة الإسلام والإيمان: فهو صفة ناشئة عنهما. ومما يتصف به القانت: رضاؤه القلبي بكل ما أمر الله به والانتهاؤ عن كل ما نهى عنه، ولا يكون القانت لله قانتاً حقاً إلاَّ إذا كان مختاراً في قنوته غير مُكرهٍ على الخضوع والطاعة، وقد كثر لفظ (القنوت) في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ ﴾  
[الزمر: ٩].

وقوله عز وجل أمراً عباده:

﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وغير ذلك من الآيات.

٤. الصدق: ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾.

الصدق: هو الإخبار بالحق الذي يعلمه الإنسان ولا يعلم غيره، وقد

وصف الله سبحانه نفسه بهذه الصفة فقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

[النساء: ٨٧]، ووصف به الرسل الذين أرسلهم للعالمين فقال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق (باب: القصد والمداومة على العمل)، حديث ٦٤٦٥، ص



﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

ومدح الله سبحانه سيدنا إسماعيل عليه السلام، فقال:

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤].

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«إن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً...»<sup>(١)</sup>.

ويكون الصدق في القول والعمل والنية، فلا يكون في حديثه إلا صادقا، ولا يكون في عمله إلا مخلصاً، ولا يكون في نيته إلا صادقا، فإذا وقف بين يدي الله في الصلاة وقال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض...»، فعليه أن يجمع همته فيها، فلا يكون صادقا إذا كان منشغلا في صلاته بالدنيا.

ويجد القارئ للقرآن ارتباطاً وثيقاً بين صدق القول وصدق العمل، فإذا انفصلت الأقوال عن الأفعال، فقد حلَّ الكذب، وقد قال الله تعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ [الصف: ٢ - ٣].

ومن الصدق: صدق الوعد: فلا يخلفه مع الله ولا مع الناس، وقد مدح الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: قول الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾) وكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴿ [التوبة: ١١٩]، حديث ٦٠٩٤، ص ١٠٦٣ ومسلم في كتاب البرِّ والصلة

(باب: قبح الكذب وحسن الصدق)، حديث ٦٦٣٧، ص ١١٣٨.

الذين عاهدوه أن يجاهدوا حقَّ الجهاد فقال:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وما أروع ما قاله ابن قيم الجوزية في حديثه عن الصدق:

(وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيَّان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلاَّ قطعته، ولا واجهه باطلاً إلاَّ أَرَداه وصرعه، من صال به لم تُردَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين)<sup>(١)</sup>.

## ٥. الصبر: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾

الصبر: هو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل، فهو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق، وحبسها عن الشهوات المحرمة، وحملها على طاعة الله واجتناب معصيته، وهو من الفضائل الخُلُقِيَّة التي تبعث على راحة الإنسان وسكنته واطمئنانه، ولولاه لصارت الحياة قطعة من العذاب، وقد كثرت الآيات التي أثنى الله فيها على الصابرين حتى وصلت إلى أكثر من سبعين آية، ولم تذكر الفضائل الأخرى في القرآن كما ذكرت فضيلة الصبر، وقد وصف الله الصابرين

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢/١٩٩، ضبطه وصححه: عبد الغني محمد علي الفاسي،

الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

بأوصاف عظيمة: فوصفهم بالإيمان، والصدق، والتقوى، والصلاح، والهداية،  
والمقام الكريم... قال تعالى:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾  
[السجدة: ٢٤].

والصبر لون من ألوان امتحان الله لعباده على ما يصيبهم من الخوف والفقر  
والجوع والمرض وفقد الأهل والأحباب قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ  
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾  
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:  
١٥٥-١٥٧].

أما جزاء الصابرين، فهو أجر عظيم قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال:

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:  
٩٦].

ويكفي ما جمعه الله للصابرين من الخيرات فقال:

﴿أَوْلَيْتِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

[البقرة: ١٥٧].

ومن أحاديث رسول الله ﷺ قوله:

«وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»<sup>(١)</sup>.

وقوله:

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»<sup>(٢)</sup>. أي أن أصعب الصبر عند الصدمة

الأولى، وما بعده أيسر.

وقال الحسن البصري:

(الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عنده)<sup>(٣)</sup>.

٦. الخشوع: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾

الخشوع: هو الانخفاض والسكون والخضوع والذل والخوف، تقول:

خشع فلان أي استكان، وهو عمل قلبي، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: الاستغناء عن المسألة)، حديث ١٤٦٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الجنائز (باب: زيارة القبور)، حديث ١٢٨٣، ص ٢٠٥،  
ومسلم في كتاب الجنائز (باب: في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى) حديث ٢١٤٠، ص  
٣٧٢.

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص ٣٣٤، بتحقيق زهير الشاويش، الطبعة  
التاسعة ١٤٢١-٢٠٠٠ المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق.

وهو يعني استشعار هيبة الله وعظمته وجلاله، ومراقبته والانقياد له انقياداً باطنياً وظاهرياً، وقد قال رسول الله ﷺ في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>. ولا ينغرس الخشوع في قلب المسلم إلا بعد أن يمتلئ قلبه بعظمة الله، ولا يمتلئ قلبه بتلك العظمة إلا إذا عرف الله جل جلاله حق معرفته، وكلما ارتقى إيمان المؤمن بمعرفة الله أكثر، خشع قلبه أكثر.

ولقد دعا رسول الله ﷺ أمته إلى الخشوع في الصلاة ورغبهم فيها فقال:

«ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»<sup>(٢)</sup>.

وقال:

«... من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٣)</sup>.

ورأى النبي ﷺ رجلاً يعث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»<sup>(٤)</sup>.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: «يا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، حديث ٩٣، ص ٢٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه)، حديث ٥٤٣، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: الوضوء ثلاثاً ثلاثاً)، حديث ١٥٩، ص ٣٢.

(٤) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١/ ٣٨٨.

صاحب الرقبة، ارفع رقبتك؛ ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»<sup>(١)</sup>.  
لذلك اهتم سلفنا الصالح بخشوعهم في الصلاة، فكان عبد الله بن الزبير  
إذا قام إلى الصلاة كأنه عود، وإذا ركع أطال الركوع، وكان إذا سجد يطوّل في  
سجوده، حتى تنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلاّ جذم حائط<sup>(٢)</sup>.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه وعن أبيه وعن جده، إذا توضّأ اصفرّ  
لونه؛ فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من  
أريد أن أقوم؟!<sup>(٣)</sup>.

ولقد حذر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه من خشوع النفاق فقال: (إياكم  
وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً  
والقلب ليس بخاشع)<sup>(٤)</sup>.

ومثّل بعض السلف الصلاة التي لا خشوع فيها فقال: (الصلاة كجارية  
تُهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يُهدي إليه جارية شلاء، أو عوراء، أو  
عمياء، أو مقطوعة اليد والرجل، أو مريضة، أو دميمة أو قبيحة حتى يُهدى إليه  
جارية ميتة بلا روح... فكيف بالصلاة التي يهديها العبد، ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟  
والله طيب لا يقبل إلاّ طيباً، وليس من العمل الطيب صلاة لا روح فيها)<sup>(٥)</sup>.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٨٨.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٧٦٥، ومعنى جذم حائط: أي بقية حائط، أو قطعة من حائط.

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، ص ٣٨.

(٤) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٣٩٢.

## ٧. التصدق: ﴿وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ﴾.

المصدقون: هم الذين يخرجون زكاة أموالهم، وقيل: الذين يخرجون من أموالهم من غير الزكاة للفقراء ذوي الحاجة. ولقد دعا الله سبحانه إلى المسارعة إلى الجنة التي أعدها لعباده المتقين، وكانت الصفة الأولى لهؤلاء المتقين: الذين ينفقون في السراء والضراء، قال تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

ودعا الله عز وجل الناس إلى إنفاق المال في سبيل الله ورغبهم به فقال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

أما رسول الله ﷺ فقد اتبع أساليب عدة لترغيب الناس في الإنفاق من أموالهم فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَتُدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الترمذي في السنن (باب: ما جاء في فضل الصدقة)، حديث ٦٦٤، ص ١٦٧.

وقال:

«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»<sup>(١)</sup>.

واقْتداءً بآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ، نجد صحابة رسول الله يُسارعون بالإنفاق، حتى الفقراء منهم كانوا ينفقون بما يستطيعون إنفاقه ولو كانوا في حاجة إلى تلك النفقة؛ لذلك أثنى الله عز وجل على الأنصار فقال:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ونجد الآية الكريمة التي نتحدث فيها ذكرت مع المتصدقين المتصدقات، وذكر المتصدقات هنا يدل على أن للمرأة ملكيتها الخاصة بها: فلها الحرية في التصرف بها في وجوه البر والإحسان كما تشاء، من غير أن تأخذ إذن زوجها، فلا ولاية لأحد عليها في مالها.

ولقد ضرب الصحابة المثل الأعلى في التصدق بالمال، قالت سعاد بنت عوف المريّة زوجة طلحة بن عبيد الله: (دخلت على طلحة ذات يوم فقلت: مالي أراك حزينا، أرباك شيء من أهلك فنعتب (أي: نترضاك)؟ قال: نعم حليّة المرء أنت؛ ولكن عندي مال قد أهتمني، قالت: اقسمه؛ فدعا جاريتته فقال: أدخلي عليّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب: مثل المتصدق والبخيل)، حديث ١٤٤٢، ص ٤٠٢، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: في المنفق والممسك)، حديث ١٠١٠، ص ٤٠٨.



قومي، فأخذ يقسمه، فسألها (راوي الحديث): كم كان المال؟ فقالت أربعائة ألف<sup>(١)</sup>.

وهذا عبد الرحمن بن عوف تصدَّق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، ثم تصدَّق بعد بأربعين ألفَ دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة<sup>(٢)</sup>.

وهذا نافع - مولى ابن عمر - يقول: (ما مات ابن عمر حتى أعتق ألفَ إنسان أو زاد)<sup>(٣)</sup>.

اللهم اجعل ما عندك أحبَّ إلينا مما عندنا.

٨. الصوم: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾

الصوم في اللغة: هو الإمساك عن الفعل سواء كان مطعماً أو مشرباً أو كلاماً...

وهو في الشريعة: الامتناع عن الأكل والشرب ومعاشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو من الدعائم الخمس التي بُني عليها الإسلام.

وإذا كان لكل تكليف من التكاليف أحكامها الخاصة بها وثواب الله عليها، فإن للصوم أجره الذي يتميز به عن غيره، فلا يعرف قدر ذلك الأجر إلا الله وحده، لأنه هو الذي يتولى جزاءه يوم الدين، ويكفي أن نعلم في فضل الصيام ما

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٣/ ٢٠١، طبعة الخانجي.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٦/ ٥٤٥، والحلية لأبي نُعيم ١/ ١٤٣.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٢١٨.

قاله الله تعالى في الحديث القدسي:

«كُلُّ عَمَلٍ بَنِي آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...»<sup>(١)</sup>.

هكذا أخذ الصوم منزلة فوق كل المنازل، فسارع المؤمنون المتقون إلى الصيام فرضاً ونفلاً، والتزموا بأحكامه وآدابه، وكان من سلفنا من يفرح ذلك الفرح الغامر بقدوم شهر رمضان، ويُعزِّي بعضهم بعضاً عند رحيله، ويبيِّن الفضيل بن عياض رحمه الله سبب عدم قدرة قسم من الناس على صيام النهار وقيام الليل فقال: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم كَبَلَّتَكَ خَطِيئَتِكَ.

والصوم بعد ذلك (رياضة روحية، وتزكية للنفس، وتربية على الإخلاص، وتعويد على الصبر، وإظهار للعبودية لله تبارك وتعالى، وتحسيس للمسلم بما يحسُّ به أخوه المسلم الجائع الذي لا يجد ما يسدُّ به جوعته، مع فوائد طبية غير منكورة أثبتها الطب والأطباء)<sup>(٢)</sup>.

وفي الصوم يتدرب المسلم على مقاومة الأهواء والشهوات، ويتعلم فيه الصبرَ عند الشدائد التي قد تقف في طريقه، ويتعلم الأمانة كيف تكون، فيمتنع عن الطعام والشراب والجماع إذا كان صائماً، والطعام الشهوي الذي تفوح منه الروائح أمام عينيه، وتنقذف في نفس الصائم الرحمة حين يحسُّ بالجوع، ويشعر بما يلاقه الفقراء، فيقوم ببرِّهم والإحسان إليهم ومساعدتهم، فتقوى أواصر

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس (باب: ما يُذكر في المسك)، حديث ٥٩٢٧، ص ١٠٤٠.

(٢) المفصل في أحكام المرأة وبيت المسلم في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان ٩/٢،

الطبعة الثالثة ١٤٢٠-٢٠٠٠، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الروابط الاجتماعية بين الناس، ومع هذا، فهو (مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها؛ إيثاراً لما عند الله من الرضى والمتاع...) (١).

وقبل ذلك وبعده، فإنَّ الصوم طاعة لله يُثابُّ عليها الصائم في العالم الآخر الثواب الأوفى، وقد تكفَّل الله بذلك، فينال الصائمين رضوان الله الذي هو ما يرجوه المسلم.

فيا سعادة الصائمين فيما أعدَّه الله لهم من الجزاء يوم الدين، ويا خسارة من زهد بالصوم وهو قادر عليه!!

## ٩. حفظ الفرج: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾

حفظ الفرج: كناية عن التعفف وعن فاحشة الزنا ونحوه، وجعل الغريزة فيما أحلَّه الله، وقد قال تعالى ما دحاَّ عباده المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

وإذا كان عدم حفظ الفروج محرماً، فإنَّ دواعيه ومقدماته وأسبابه محرمة أيضاً؛ لذلك نجد القرآن الحكيم قد دعا المؤمنين إلى الغض من أبصارهم وحفظ فروجهم، وأمر النساء بذلك أيضاً فقال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

(١) في ظلال القرآن تأليف: سيد قطب ١/١٦٧.

[النور: ٣٠ - ٣١].

ولقد قُدِّمَ في الآية غُصُّ البصر على حفظ الفرج؛ لأنَّ حفظ الفرج مُسَبَّبٌ عن غض البصر. وقد روى (بهز) عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك). قلت: يا رسول الله، فإذا كان القومُ بعضُهم في بعض؟ قال: (إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها)، قلت: فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: «فاللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه»<sup>(١)</sup>.

وكما حرَّم الله نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية، حرَّم أيضاً نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي؛ فأمر المؤمنات بما أمر به المؤمن من الغض من البصر؛ خشية أن يتعرضن للفتنة.

وكرث أحاديث رسول الله ﷺ في هذا: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدُّ؛ نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟. قال: «غُصُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٠٠٣٤، ٢٣٣/٢٣٥، وإسناده حسن، وأبو داؤد في سننه في كتاب الحمام (باب: ما جاء في التعرِّي)، حديث ٤٠١٧، والترمذي في كتاب الأدب (باب: ما جاء في العورة)، حديث ٢٧٦٩، وابن ماجه في كتاب النكاح (باب: التستر عند الجماع)، حديث ١٩٢٠، ص ٢٧٥.

(٢) متفق عليه.

ومن عظمة القرآن الكريم: مراعاته مسألة ستر المرأة وحيائها: فحين تحدّث القرآن عن الرجال قال: (والحافظين فروجهم)، ولكن حين تحدّث عن النساء اكتفى بقوله: (والحافظات)، فلم يذكر لفظ (فروجهن)؛ وذلك من أجل صيانة حياء النساء والستر عليهن حتى في اختيار الألفاظ.

١٠ ذكر الله كثيراً: ﴿وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ﴾

الذكر في اللغة: استحضر الشيء في القلب، فهو ضد النسيان.

وفي الاصطلاح: تمجيد العبد لربه، والثناء عليه، وتعظيمه والشكر له.

ومن نعمة الله على عبده أن يسر له ذكره سبحانه، ليثيبه عليه يوم القيامة. فهو يقرب المسلم من ربه، سواء كان بالقلب أو اللسان، ويكفر عنه الذنوب الصغائر ويحط عنه الخطايا.

ولقد دعا الله تعالى عباده المسلمين والمسلمات إلى ذكره فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي

أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

وَرَعَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذِكْرِ اللَّهِ فَقَالَ: «مِثْلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ

رَبَّهُ مِثْلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»<sup>(١)</sup>.

وقال صلوات الله وسلامه عليه في الحديث القدسي يقول الله عز وجل:

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب: فضل ذكر الله عز وجل)، حديث ٦٤٠٨، ص ١١١٢.

«أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتته هرولة»<sup>(١)</sup>.

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«لا يقعدُ قومٌ يذكرون الله عز وجل إلاَّ حفَّتْهم الملائكة، وغَشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»<sup>(٢)</sup>.

ويكون ذكر الله بتذكر المسلم نعم الله الكثيرة عليه، وبتحميده وتسييحه وتكبيره، وبالتهليل وبالتوبة... ومن يظل ذاكراً لله عز وجل، يصير الذكر غذاءه ودواءه. ومن الذكر: الصلاة بالليل، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»<sup>(٣)</sup>.

وللذكر فضائل كثيرة، وأفضله: تلاوة القرآن في الصلاة، ثم في غير الصلاة،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (باب: الحث على ذكر الله تعالى)، حديث ٦٨٠٥، ص ١١٦٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)، حديث ٦٨٥٥، ص ١١٧٣.

(٣) رواه ابن ماجه - واللفظ له - في كتاب إقامة الصلوات (باب: ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل)، حديث ١٣٣٥، ص ١٨٩ وأبو داؤد في كتاب الصلاة (باب: قيام الليل)، حديث ١٣٠٩.

ثم في الدعاء والاستغفار.

والذكر أيسر العبادات، فلا يجد الإنسان مشقةً فيه: فيذكر الله في أحواله في البيت والسوق، وفي حالتي صحته ومرضه، وقيامه وعوده، وسفره وإقامته.. ويُعدُّ ذكر الله من أجل العبادات.

ويعتد ذكر الله على هدوء النفس وطمأنينتها، ونبذ القلق والهموم، فهو غذاء روحي يحتاج إليه كل مسلم؛ وقد قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنَطَمَنُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ابن قيم الجوزية:

(الذكر: هو المنزلة الكبرى، وهو قوت القلوب الذي متى فارقتها صارت الأجساد قبوراً، وعمارة ديارهم إذا تعطلت عنه صارت بوراً. والذكر: رياض جنة المؤمنين التي بها يتقلبون، وهو - أي الذكر - يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر بالمدكور، بل يدع الذاكرَ مذكوراً، لقد زينَ الله ألسنة الذاكرين، كما زينَ بالنور أبصار الناظرين)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم - أيضاً - متحدثاً عن شيخه ابن تيمية: وحضرته مرة صلى الفجرَ ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ هذا الغداء سقطت قوتي...

(١) الصفوة من صفة الصفوة للأستاذ عدنان سعد الدين، ص ٣٩ الطبعة الأولى ١٤١٣-١٩٩٣، مطابع الشمس، عمان، الأردن.

وقال: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإيراحتها؛ لأستعدّ بتلك الراحة.

وقال أيضاً - وكان مسجوناً - : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى،  
والمأسور: من أسره هواه، والذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال  
السمك إذا فارق الماء؟!!

وُحُتِمَت الآية الكريمة بما أعدّه الله للذاكرين الله كثيراً والذاكرات بسبب ما  
اتصفوا به من هذه الصفات الرائعات: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.  
وتشمل هذه المغفرة كل من تحلى بصفة من هذه الصفات المذكورة في الآية؛  
لأنَّ حرف الواو يفيد التغيير، فكأنَّ معنى الآية: أعدَّ الله للمسلمين أجراً عظيماً،  
وأعدَّ الله للمسلمات أجراً عظيماً، وهكذا في المؤمنين والمؤمنات، والقانتين  
والقانتات...

وجاء اللفظ القرآني هنا (لهم) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ من باب التغليب، والنساء  
داخلات فيه.

وقُدِّمَ لفظ (المغفرة) على (الأجر)؛ لأنه سبحانه يغفر ما اقترفته أيدي  
الذاكرين الله والذاكرات من صغائر الذنوب، ثم يتولى إعطاءهم الأجر.  
ووصفَ الأجرُ بالعظيم، ليدلَّ على المكانة العالية التي أعدّها الله لمن اتصف  
بهذه الصفات.

فيا سعادة من ذكرَ الله كثيراً! وما أشقى من أهتته الدنيا فَنسي ذكرَ الله!.

\*\*\*



## زواج من فوق سبع سموات

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦-٣٧].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريد لها لزيد، فظنت أنه يريد لها لنفسه، فلما علمت أنه يريد لها لزيد أبت؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فرضيت وسلّمت<sup>(١)</sup>.

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً؛ فأنزل الله تعالى:

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير، حديث ١٢٤، ٤٥/٢٤. قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح، مجمع الزوائد للهيتمي حديث ١١٢٧٥، ١٤٩/٧، بتحقيق محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠١، دار الكتب العلمية، بيروت.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾  
[الأحزاب: ٣٦] (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا  
اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] نزلت في شأن زينب ابنة جحش وزيد بن حارثة (٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل  
النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك»، قال أنس: لو كان رسول الله  
ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه. قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول:  
زوجكن أهاليكنّ وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات (٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما انقضت عدة زينب قال رسول  
الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تُحَمَّرُ عَجِينَهَا،  
قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها (٤) أن رسول الله  
ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصتُ على عقبي فقلت: يا زينب، أرسل رسول  
الله ﷺ يذكرك؛ قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي؛ فقامت إلى مسجدها،  
ونزل القرآن...» (٥).

(١) صحيح أسباب النزول لإبراهيم محمد العلي ص ١٨٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: وتخفي في نفسك ما الله مبديه...)، حديث ٤٧٨٧، ص  
٨٤١.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: وكان عرشه على الماء)، حديث ٧٤٢٠، ص ١٢٧٧.

(٤) أي من أجل أن رسول الله ﷺ ذكرها.

(٥) رواه مسلم في كتاب النكاح (باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب..)، حديث  
٣٥٠٢، ص ٦٠٢.

## زينب بنت جحش رضي الله عنها

نحن الآن مع واحدة من أمهات المؤمنين التي أنزل الله فيها قرآناً يتعبد المسلمون بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار. تزوّجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة - وقيل سنة خمس - وزواجها من رسول الله يختلف عن أيّ زواج كان، فإن النساء يتولى تزويجهنّ الأولياء، أما زينب بنت جحش، فإنّ الله عز وجل هو الذي زوّج رسوله منها، فقد جاء زواجها من فوق سبع سموات، وأبطل زواجها ما تعارف عليه المجتمع الجاهلي، من عادة التبني التي عدّها ديناً يدينون به - آنذاك - . فمن هي زينب؟

إنها زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر الأسديّة أم المؤمنين زوج رسول

الله ﷺ .

أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمّة رسول الله ﷺ . أخوها عبد الله ابن جحش، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهو صاحب الهجرتين، وأول من أمره رسول الله ﷺ على سرية، المجدع في الله، الذي استشهد في (غزوة أحد).

خطب رسول الله ﷺ (زينب) لزيد بن حارثة، فامتنعت أول الأمر؛ إذ كيف تتزوّج - وهي الحسيبة النسبية - من رجل كان عبداً ثم حرّره رسول الله ﷺ، فصار يدعى زيداً بن محمد، فقد كان المجتمع - آنذاك - لا تزال عقابيل الجاهلية تعمل عملها فيه، فكان الناس ينظرون إلى أنّ منزلة الموالي - وهم الرقيق الذين

حُرُّرُوا - دون منزلة الأحرار، فكانت الفوارق الطبقيّة الموروثة قد تمكنت في ذلك المجتمع، فلم تتمكن زينب من التخلص من عقابيل المفاهيم الجاهلية - آنذاك - ولكن سرعان ما فاءت ورضيت بذلك الزواج وأذعنت لحكم الله ورضيت لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهكذا تم زواج زيد من زينب، ودفع صداقها رسول الله ﷺ. ولكن هذا الزواج لم يكتب له الدوام، فلم تنسجم زينب مع زوجها زيد حتى وقع الطلاق بينهما لأمر أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى.

لقد كان من المفاهيم الجاهلية تحريم الزواج بزوجة مَنْ تَبَنَّاهُ، فأراد الله أَنْ يبطل هذا المفهوم، فأمر رسوله أَنْ يتزوج من زينب لِيُبْطِلَهُ ولو تعارف عليه الناس آنذاك. كانت عدة زينب قد انقضت بعد نزول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهكذا خطب رسول الله ﷺ (زينب) وتزوجها وكانت رضي الله عنها تفخر بهذا الزواج أمام رسول الله ﷺ فتقول:

(يا رسول الله، إني والله ما أنا كأحدٍ من نسائك، ليست امرأة من نسائك إلاَّ زَوْجَهَا أَبُوهَا أو أَخُوهَا أو أَهْلُهَا غَيْرِي، زَوْجِيكَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ)<sup>(١)</sup>.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٣/٤١٩.

وكانت تفخر بذلك على أزواج النبي ﷺ أيضاً وتقول لهن: (زوّجكنّ أهاليكنّ، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات)<sup>(١)</sup>.

ولقد شهد الله عز وجل لها بالإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. والمراد بالمؤمنة هنا: هي (زينب) رضي الله عنها.

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال:

انطلق الرسول ﷺ يخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش - ابنة عمته - فخطبها فقالت: لست بناكحته، فقال لها: (فانكحيه) فقالت: يا رسول الله، أوامر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية؛ فقالت (زينب): أرضيته لي يا رسول الله؟ قال: (نعم) قالت: إذن لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي<sup>(٢)</sup>.

ولما تزوجها رسول الله ﷺ بأمر ربه، نزلت آية الحجاب بسببها، روى أنس ابن مالك قال: أنا أعلم الناس بهذه الآية - آية الحجاب - : لما أهديت زينب بنت جحش رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت، صنع طعاماً ودعا القوم؛ ففعدوا يتحدثون؛ فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: وكان عرشه على الماء)، حديث ٧٤٢٠، ص ١٢٧٧.

(٢) تفسير الطبري - تقريب وتهذيب - لابن جرير الطبري ٦ / ٢٠٢.

مُسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِيءُ  
مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴿ [الأحزاب: ٥٣]؛  
فضرب الحجاب، وقام القوم<sup>(١)</sup>.

هكذا كان زواجها السبب في نزول آية الحجاب.

روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أسر عكنَّ لحاقاً  
بي أطولكنَّ يداً»<sup>(٢)</sup>.

قالت: (فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا  
في الجدار نتناول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت  
امرأة قصيرة، ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد  
بالصدقة...)<sup>(٣)</sup>.

وقد عُرفت رضي الله عنها بالجود والكرم ومساعدة الفقراء والمساكين،  
فكانت تنفق المال من عمل يدها وما كان يأتيها من عطاء، وهذا مثال على ذلك:

عن برزة بنت رافع قالت: (لما خرج العطاء، أرسل عمر إلى زينب بنت  
جحش بالذي لها، فلما أُدخلَ عليها قالت: غفرَ الله لعمر، غيري من أخواتي كان  
أقوى على قسم هذا مني).

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، (باب: قوله تعالى: [لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى  
طعام]، حديث ٤٧٩٢، ص ٨٤٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل زينب أم المؤمنين)، حديث ٦٣١٦،  
ص ١٠٧٩.

(٣) الإصابة ١٣/٢٢٠-٢٢١.

قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب وقالت: صُبُّوه  
واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني  
فلان وبني فلان من أهل رحمها وأيتامها، حتى بقيت بقية تحت الثوب؛ فقالت لها  
برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين! والله لقد كان لنا في هذا حق؛ فقالت:  
فلکم ما تحت الثوب. فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً. ثم رفعت يدها إلى السماء  
فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، فماتت... فكانت أول أزواج  
النبي ﷺ لحوقاً به<sup>(١)</sup>.

وأثنت عليها أم المؤمنين عائشة فقالت: (ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من  
زينب وأتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشدَّ ابتداءً  
لنفسها في العمل الذي تصدَّق به، وتقرَّب إلى الله تعالى...)<sup>(٢)</sup>.

وأثنت عليها أيضاً فقالت: (يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف  
الذي لا يبلغه شرف؛ إن الله زوّجها، ونطق به القرآن، وإنَّ رسول الله ﷺ قال لنا:  
«أسرعكُنَّ بي لحوقاً أطولكنَّ باعاً»؛ فبشَّرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في  
الجنة)<sup>(٣)</sup>.

وأثنت عليها أم المؤمنين أم سلمة فقالت: (كانت صالحة، صوامة قوامة

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ١٠٦/١٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: في فضائل عائشة أم المؤمنين) حديث ٦٢٩٠، ص  
١٠٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٥٣٩.

صناعاً، تَصَدَّقْ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى الْمَسَاكِينِ<sup>(١)</sup>.

ولما حضرتها الوفاة قالت: إني قد أعددتُ كفني، وإنَّ عُمَرَ سَبِعَتْ إِلَيَّ بكفن؛ فَتَصَدَّقُوا بِأَحَدِهِمَا، وَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَصَدَّقُوا بِحِقْوِي (أَي بِإِزَارِي) فافعلوا<sup>(٢)</sup>.

توفيت رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وهي بنت خمسين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه!

وهذه صورة من صور حب نساء النبي رضي الله عنهن لأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ زَيْنَبَ، يرويها لنا ابن سعد فيقول:

لما توفيت زينب بنت جحش - وكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقاً به - فلما حُمِلَتْ إِلَى قَبْرِهَا قَامَ عُمَرُ إِلَى قَبْرِهَا فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي أُرْسَلْتُ إِلَى النِّسْوَةِ - يَعْنِي أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ - حِينَ مَرَضَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنْ مَنْ يُمَرِّضُهَا وَيَقُومُ عَلَيْهَا؟ فَأُرْسَلْنَ: نَحْنُ، فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَا، ثُمَّ أُرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ حِينَ قُبِضَتْ: مَنْ يُغَسِّلُهَا وَيَحْنِطُهَا وَيَكْفِنُهَا؟ فَأُرْسَلْنَ: نَحْنُ؛ فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَا، ثُمَّ أُرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ، مَنْ يُدْخِلُهَا قَبْرِهَا؟ فَأُرْسَلْنَ: مَنْ كَانَ يَحُلُّ لَهُ الْوَلُوجَ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا. فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَا؛ فَاعْتَزَلُوا أَيُّهَا النَّاسُ! فَنَحَّاهُمْ عَنْ قَبْرِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَهَا رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهَا<sup>(٣)</sup>.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٣/٤١٩.

(٢) الإصابة ١٣/٤٢١.

(٣) الطبقات الكبير ١٠/١٠٧.



لها أحد عشر حديثاً اتفق البخاري ومسلم على حديثين منها<sup>(١)</sup>، وأحاديثها في الكتب الستة. وقال ابن حزم: إنها من أصحاب الأحد عشر حديثاً<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي روتها قالت: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «لا يجلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحُدَّ على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»<sup>(٣)</sup>.

وروت أيضاً: «استيقظ النبي ﷺ من نوم وهو محمَّرٌ وجهُهُ وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرِّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رذم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلَّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ: «نعم، إذا كثر الخبث»<sup>(٤)</sup>.

### مع الآيتين الكريمتين:

تتحدث هاتان الآيتان في زواج (زيد بن حارثة) من (زينب بنت جحش) وطلاقها منه، ثم زواج رسول الله ﷺ منها بعد انقضاء عدتها، وذلك ليطلق الله عز وجل عادة من عادات الجاهلية اتخذوها ديناً لهم، وكانت قد استحكمت في ذلك المجتمع: إنها (عادة التبني).

وصورته أن يعمد الرجل إلى عبد من عبيده لا يعرف نسبه فيجعله ابناً له، أو أن يتخذ ولداً يعرف نسبه فيجعله ابناً له. وكل واحد من هذين الصنفين يصير

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٨.

(٢) أسماء الصحابة الرواة ص ١٥٣.

(٣) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٦٧٥٤، ٤٤/ ٣٣٥-٣٣٦.

(٤) رواه الإمام أحمد، حديث ٧٤١٣، ٤٥/ ٤٠٣.

له حقوق كالولد الصلبي في الميراث والنسب سواء بسواء، ومما اعتاده الناس - آنذاك - أن الرجل المتبني يحرم عليه أن يتزوج امرأة من تبناه، وتكون حرمة الزواج منها كحرمة الزواج من امرأة ولده الصلبي. وأراد الحكيم الخبير الله عز وجل أن يبطل هذه العادة التي تُصّر بالمجتمع والأفراد، فقام رسول الله ﷺ بخطبة ابنة عمته (زينب بنت جحش) إلى (زيد بن حارثة) الذي كان مولاه فتبناه، وكان يدعى (زيد بن محمد)، ويصعب الأمر عليها وعلى أخيها (عبد الله بن جحش)؛ إذ كيف تتزوج - وهي الحسيبة النسبية - من رجل كان عبداً فحرره رسول الله ﷺ؟! فلا ترضى المرأة القرشية أن تقترن بهذا مهما كانت منزلته الاجتماعية؛ لأنّ هذا الزواج خروج عما اعتاده وألفه الناس - آنذاك - من الأعراف.

على أنّ المرأة - فوق ذلك - إذا تزوّجها واحد من الموالى ثم طلقها لا يقدم أحدٌ له شرف على الزواج منها؛ فأراد الله سبحانه أن يبطل هذه العادة الجاهلية، فأوحى إلى رسوله محمد ﷺ أن يزوّج (زينب) من (زيد) ليلغي الفوارق بالنسب. وبينما كان الأخذ والرد بين رسول الله ﷺ و (زينب) في أمر الزواج من (زيد)، وإذ بسيدنا جبريل عليه السلام ينزل إلى رسول الله ﷺ بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وما إن نزلت الآية الكريمة، حتى استجابت (زينب) وأذعنت لحكم الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦ - ٣٧].

مناسبة الآيتين لما قبلهما:

تحدثت الآية التي سبقت هاتين الآيتين في صفات كريمة اتَّصَفَ بها المسلمون والمسلمات، والمؤمنون والمؤمنات... وقد مدحهم الله وأثنى عليهم، ذاكراً ما أعدَّ لهم من مغفرة وأجر عظيم، وجاء التعقيب القرآني - بعد ذلك - مبيناً أنّ طاعة الله وطاعة رسوله أمر واجب لا تجوز مخالفته، والرجال والنساء في هذا الوجوب على السواء؛ فما كان لمؤمن أن يختار غير ما اختاره الله ورسوله.

التفسير:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

نتأمل بهذه الآية فنجد لفظتي (مؤمن) و(مؤمنة) وقعتا في سياق النفي فيفيدان العموم، فتشمل كل مؤمن ومؤمنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن الآية عامة - مرة أخرى - تشمل - أيضاً - كل حكم حكمَ به الله وحكمَ به رسوله؛ فإنَّ حكمَ الله هو الحكم، وقضائه هو القضاء، وقوله هو القول، وكذا ما حكمَ به رسول الله ﷺ، فليس لأحد كائناً من كان أن يختار شيئاً غير ما اختاره الله ورسوله.

وقد يتجرأ من أنصاف المثقفين على أحكام الله ورسوله فيقول: ألا يُعدُّ هذا كِبْتاً للحرية الشخصية؟!

والجواب: أن من حق الإنسان أن يختار نمط الحياة الذي يناسبه فيختار البلد الذي يقيم فيه، والدار التي يريد، والزوجة التي يقترن بها... ولكن ليس من حقه أن ينظر إلى حكم من أحكام الله وأحكام رسوله، فيختار أن يطبقه أو لا يطبقه، ينفذه أو لا ينفذه، لأن هذا يتناقض مع الإيمان الصحيح، فإنَّ المسلم دخل الإسلام بمحض اختياره، لم يجبره عليه أحد. فما دام قد اختار الإيمان، فيجب عليه أن يلتزم بأحكامه، ومنها الاستجابة الكاملة لله ولرسوله من غير تباطؤ، ومن غير أن يشعر بأي حرج في قبول تلك الأحكام، كما قال الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وكما قال - سبحانه - أيضاً:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وكما قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون

هو اه تبعاً لما جئت به»<sup>(١)</sup>.

فلا يصح ولا يليق، وهو أمر مستبعد ممن باشر الإيمان قلبه أن يزور عنه، تاركاً ما يصدر عن الله ورسوله من حكم وقضاء وأمر، ويختار هو ما يشاء، فإن قدّم المؤمن اختياره على أمر الله ورسوله، فلا يكون هناك إيمان، ويكون - عند ذلك - قد ضلّ ضلالاً مبيناً. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ومن الأمور التي اتفق عليها العلماء: أنّ الحاكم الحقيقي الذي وجبت طاعته في كل أمر ونهي: هو الله عز وجل، وكذلك رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن الله، ومن الواجب على من يتصف بصفة الإيمان أن يكون رأيّه تابعاً لما قضاه الله ورسوله، وهذا المعنى أجمع عليه المسلمون قديماً وحديثاً، قال الإمام أبو حامد الغزالي:

(أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له)<sup>(٢)</sup>.

وجاء تنزيل الآية: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾؛ ليحذر من أية مخالفة كانت لله ولرسوله؛ فإنه - عند ذلك - يصير ضالاً، والضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الصحيح، فيصير قد نهج غير سبيل المؤمنين، والله تعالى يقول:

(١) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة، حديث ١٥، صححه النووي، وضعفه الألباني.

(٢) المستصفى في علم الأصول، للشيخ الإمام أبي حامد الغزالي ١/٥٣.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[النور: ٦٣].

بين رسول الله ﷺ وزيد:

وماذا بعد نزول الآية؟

لقد رضيت زينب بما رضيه لها رسول الله ﷺ، وأعطت جسدها لزيد، لكن لم تعطه قلبها بسبب ما ورثته من أعراف وتقاليد الجاهلية، وكلما وقع خلاف بينها لأي سبب من الأسباب تعالت عليه بحسبها ونسبها، لأنها لم تجد الكفاية النسبية قد تحققت بينهما، وظل زيد يعاني من تكبرها، ويأتي إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ما يلاقيه من تعاليها عليه، ويستأذن النبي بطلاقها، أما النبي، فكان يقدم له النصيحة، ويطلب منه أن يصبر عليها.. وقد صور القرآن ما دار بين رسول الله وزيد حين أراد أن يطلقها:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ

اللَّهَ

إن هذا الخطاب من الله، يذكرُّ به رسوله محمداً ﷺ بما كان من أمره مع زيد الذي أنعم الله عليه بالإيمان الحق، وأنعم عليه النبي ﷺ بالعِتق: أمسك عليك زوجك، فلا تطلقها، واتق الله في أمرها، وإذا كانت قد أساءت إليك فاصبر على ما بدا منها. وقد حكى القرآن الكريم هذا بعد أن اشتكى زيد إلى رسول الله ما يلاقيه من تطاولها عليه، مفتخرةً بحسبها ونسبها: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ

اللَّهَ

وفي قول رسول الله هذا لزيد موعظةٌ له، يطلب منه أن يخشى الله في زينب، فإن طلاقها يلحق بها الأذى ويؤذي قلبها... يقول الرسول الكريم هذا لزيد وهو يعلم أن الطلاق سيقع بينها لا محالة، فقد صار بيت الزوجية جحيماً لا يطاق.

ما أخفاه الرسول في نفسه:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾

ماذا أخفى رسول الله ﷺ في نفسه؟

لقد كثرت آراء المفسرين في تفسير هذه الجملة القرآنية، ولا حاجة لنا إلى ذكرها هنا، والراجع - والله أعلم - هو ما ذكره الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي، نقلاً عن شيخه الدكتور أحمد السيد الكومي، (هو أن ما أخفاه الرسول في نفسه: هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب؛ لكثرة تفاخرها عليه، وسماحه منها ما يكرهه، وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها. وما أبداه الله تعالى: هو علم الناس بحال زيد معها، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول، وتُسْمِعُهُ ما يكره، وتفخر عليه بنسبها).

(فيكون المعنى: تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه: أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرته زوجه

زينب لوجود التنافر بينهما، مع أن الله تعالى قد أظهر ذلك عن طريق كثرة شكوى زيد منها، وإعلانه أنه حريص على طلاقها<sup>(١)</sup>.

وربما كان هذا أقرب الأقوال في تفسير الآية؛ ذلك لأننا لا نجد في القرآن ولا في السنة الصحيحة نصاً صريحاً على أن الله تعالى أوحى إلى نبيه أن زيداً سيطلق زينب، ويتزوجها رسول الله من بعده.

وهذا التفسير يهدم الروايات التي ذكرت في بعض كتب التفاسير على حين غفلة من أولئك المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة التي استغلها أعداء الإسلام، فصاروا يُشنعون على الرسول الكريم بسبب زواجه من زينب، وقد قال ابن خلدون:

(وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط...)<sup>(٢)</sup>.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ١١/ ٢١٤، دار السعادة.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١، اعتنى به: هيثم جمعة هلال، الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧، مؤسسة المعارف، بيروت.



خشية رسول الله ﷺ من الناس:

﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾.

الخشية: (تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل)<sup>(١)</sup>.

وتنقسم الخشية على قسمين:

الأول: الخشية من شيء تخاف أن يضرك.

الثاني: خشية استحياء.

والمراد بالخشية هنا: خشية استحياء، فقد كان رسول الله ﷺ على جانب

كبير من الحياء، وقد نصَّ القرآن على ذلك فقال تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنْ

الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ووصف أبو سعيد الخدري حياء رسول الله ﷺ فقال: «كان رسول الله ﷺ

أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه»<sup>(٢)</sup>.

وربما كان المراد بقوله: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾، ما قلت

لزيد من الحرص على زوجته وعدم طلاقها، وأنت تعلم أن هذا الزواج لا يكتب

له الديمومة والاستمرار.

إن هذا هو ما كان رسول الله ﷺ يخفيه، ويخشى من أحاديث الناس، وهو

ما أظهره الله.

(١) التعريفات للسيد الجرجاني ص ١٣٢، بتحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى

١٤١٦-١٩٩٦، عالم الكتب، لبنان.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: كثرة حياته ﷺ)، حديث ٦٠٣٢، ص ١٠٢٤.

## زواج رسول الله ﷺ من زينب:

لقد شعرت زينب على وفق الأعراف والتقاليد آنذاك بشيء من المهانة، حين تزوجت من رجل كان عبداً لرسول الله ﷺ، ثم قام الرسول بتحريره، فلو تركت بعد طلاقها، لظلت لا يتزوجها أحد من الشرفاء، ولشعرت بشيء من المهانة، فمن ذا الذي يستطيع أن يرفع قدرها، ويردّ إليها مكانتها في المجتمع غير رسول الله ﷺ؟

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

الوطر: الفراغ من الشيء على التمام، أي لم يبق لزيد في زينب رغبة فيها ولا ميل إليها.

والأدعياء: هم الذين يُدعون أبناء من غير أن يكونوا أبناءً على الحقيقة. بقي زيد مدة من الزمن مع زوجه زينب، ولم يبق له أية رغبة كانت في بقاء الزوجية معها، وصار حريصاً على مفارقتها، وهكذا تمّ الطلاق. وبعد أن انقضت عدتها، زوج الله نبيّه محمداً ﷺ من زينب، فبعث الرسول زيدا - وهو الذي طلقها - ليخطبها لرسول الله ﷺ - وهذا يدلُّ على ثقة رسول الله العلياً بزید أولاً، وبأنّ زيدا لم تكن له حاجة في زينب بعد ذلك.

ويدخل زيد عليها ويقول لها: (يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؛ قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي؛ فقامت إلى مسجدها، ونزل

القرآن...)<sup>(١)</sup>.

وإذا سأل سائل: ما العلة في كل هذا؟

ويأتيه الجواب: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> أي الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بعد أن يطلق الأعدياء أزواجهم وتنقضي عدتهن... عند ذلك لا حرج على من قاموا بتبني الأعدياء أن يتزوجوا بنسائهم، ورسول الله ﷺ هو القدوة في ذلك. قال شيخنا رشيد الخطيب الموصلي:

(إنما فعلنا ذلك؛ توسعة على المؤمنين كي لا يتأثموا أن يتزوجوا أزواج أديئائهم الذين يتبنونهم، إذا قضى الأديئاء منهن وطراً... والغرض من هذا أن لا يجري المتبني في تحريم امرأته إذا طلقها على المتبني مجرى الابن في النسب في تحريم امرأته إذا طلقها على الأب)<sup>(٣)</sup>.

لقد تحمّل رسول الله ﷺ ما تحمّل من أذى المشركين للنيل منه ومن دعوته، فكانوا يقولون: إن محمداً عدّد من المحرمات: حلائل الأبناء، وها هو يتزوَّج حليلة ابنه زيد! قال المشركون هذا ولم يلتفتوا إلى تنمة الآية: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. فحليلة الابن الصلبي هي المحرمة، وأما هؤلاء الأديئاء فهم أجنب، لأن زوجة المتبني ليست بأم للمتبني،

---

(١) رواه مسلم في كتاب النكاح (باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب...)، حديث ٣٥٠٢، ص ٦٠٢.

(٢) أولى ما قيل في آيات التنزيل تأليف شيخنا رشيد الخطيب الموصلي ٦/ ٧٠.

وهو ليس ابناً لها، و بنت المرأة ليست بأخته، وابنها ليس بأخيه، ومن تبناه ليس بوالده. فالتسمية بذلك إذن تضليل وتزوير ليس إلاً، فالابن هو الابن الصلبي، والمتبنى هو المتبنى، والفرق بين الاثنين كثير.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

فلا بد أن يحصل ما يريد الله، ولا بد أن يطبق بحذافيه.

هكذا زوج الله نبيه من زينب بها أوحاه إليه، من غير ولي ولا شهود ولا عقد. وصارت نساء الأعدياء حلالاً على الذين تبنوهم بعد الموت أو الطلاق وانقضاء العدة، وهذا بخلاف الأبناء من الصلب، فلا يجوز للأب أن يتزوج امرأة ابنه بنفس العقد عليها ولو لم يدخل بها الابن.

وأخيراً:

فقد أساءت الجاهلية إلى الأفراد والمجتمع معاً لما انتشر فيها نظام التبني، فصار الواحد الأجنبي في عرفهم واحداً من أسرة من تبناه، يحمل اسم تلك الأسرة ولو لم يكن منها.

وبعد أن بعث الله محمداً ﷺ بعدد من السنوات أبطل الله هذا النظام؛ لأنه تزوير على الأنساب، يجعل الغريب قريباً بعرفهم، ويرث المتبنى ممن تبناه كما يرث الولد الصلبي، ويحجب الأصلاء من ذوي القربى. وإبطال هذا النظام ليس بالأمر اليسير في ذلك المجتمع؛ فاختار الله تعالى رسوله محمداً ﷺ ليقوم بهذه المهمة؛ فألغى ما تعارف عليه الناس آنذاك من هذه العادة السيئة، لأن الولد

الصلبي يرث خصائص والده وصفاته حسنةً كانت أو سيئةً، والولد المتبنى كذلك.

لقد حرص الإسلام على صيانة الأنساب، فحرّم التبني الذي ترك آثاره السيئة في ذلك المجتمع.

\*\*\*

## ما أحله الله لرسوله من الزوجات

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

روى الإمام البخاري قال: «كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟! فلما نزلت: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، قلت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد)، حديث ٥١١٣،

## خولة بنت حكيم رضي الله عنها

هي خولة بنت حكيم بن حارثة بن الأوقص السُّلمية - ويقال لها خُوَيْلة بالتصغير - تكنى بأُم شريك، وقد عُرِفَت بالفضل والصلاح، تزوجها عثمان بن مظعون، وقد بايعت رسول الله ﷺ وهاجرت إلى المدينة، وهي التي خطبت عائشة بنت أبي بكر الصديق، وسودة بنت زمعة لرسول الله ﷺ. قالت عائشة:

(لَمَّا مَاتَ خَدِيجَةُ جَاءَتْ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَزَوِّجُ؟  
قال: «ومن؟» قالت: «إِنْ شِئْتَ بَكَرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا.» قال: «وَمَنْ الْبَكَرُ وَمَنْ  
الْثَيِّبُ؟» قالت أما البكر، فابنةُ أحبِّ خلقِ الله إليك، وأما الثيب، فسودة بنت  
زمعة، قد آمنت بك وأتبعتك. قال: «فاذكريهما عليّ»...<sup>(١)</sup> إلى آخر حديث زواج  
رسول الله ﷺ.

كانت خولة تحت عثمان بن مظعون. ويبدو أنه كان كثير العبادة، مهتماً  
بدعوة الناس إلى الإسلام، غير ملتفت إلى شيء من متع الحياة الدنيا، الأمر الذي  
جعل خولة لا تهتم بهيئتها، وقد دخلت يوماً على أم المؤمنين عائشة فرأتها بدَّة  
الهيئة. ولما سألتها عن سبب ذلك قالت لها: إن عثمان لا يريد النساء.

وتروي عائشة رضي الله عنها أيضاً فتقول: دخلت عليَّ خُوَيْلةُ بنت حكيم  
ابن أمية بن حارثة بن الأوقص السُّلمية - وكانت عند عثمان بن مظعون - قالت:

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ١٤٢.

فرأى رسول الله ﷺ بذادة هيئتها فقال لي: «يا عائشة، ما أبدَّ هيئة خويلة!» قالت: فقلت: يا رسول الله امرأة لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها، قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال: «يا عثمان، أرغبةً عن سستي؟» قال: فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سُنَّتَكَ أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء؛ فاتق الله يا عثمان؛ فإنَّ لأهلك عليك حقاً، وإنَّ لضيفك عليك حقاً، وإنَّ لنفسك عليك حقاً، فصمِّ وأفطر، وصلِّ ونم»<sup>(١)</sup>، ولما توفي عثمانُ عنها وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ولقد كانت رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في حصاره للطائف، وقد قالت له آنذاك: (يا رسول الله، إن فتح الله عليك الطائف، فأعطني حُلِّيَّ بادية بنت غيلان بن سلمة، أو حُلِّيَّ الفارعة ابنة عقيل، وكانت من أجمل نساء ثقيف؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خولة». فذكرت ذلك لعمر؛ فأقبل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أما أذن لك في ثقيف؟ قال: «لا...»<sup>(٢)</sup>).

ولما طال الحصار، دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف؟ قال: «لم يؤذن لنا حتى الآن فيهم، وما أظن

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٦٣٠٨، ٤٣ / ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ٣٩١، والبداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٣٧٨، وإمتاع الأسماع

للمقرئزي ٢ / ٢٥.



أن نفتحها الآن». فأقبل عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه فلقبها خارجةً من عند رسول الله ﷺ فقال: هل ذكر لك رسول الله ﷺ شيئاً بعد؟ قالت: أخبرني أنه لم يؤذن له في قتال أهل الطائف بعد<sup>(١)</sup>... الخ.

وكانت خولة بنت حكيم هي التي اقترض منها رسول الله ﷺ تمر العجوة، ودفعه إلى الأعرابي الذي اشترى منه جزوراً. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ابتاع رسول الله ﷺ من رجل من الأعراب جزوراً - أو جزائر - بوسقٍ من تمر الذُّخرة - وهو تمر العجوة - فرجع به رسول الله ﷺ إلى بيته؛ فالتمس له التمر فلم يجده؛ فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له: «يا عبدالله، إننا قد ابتعنا منك جزوراً - أو جزائر - بوسقٍ من تمر الذُّخرة فالتمسناه فلم نجده»، قال: فقال الأعرابي: واغذراه. قالت: فنهمة الناس وقالوا: قاتلك الله! أيغدر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإنَّ لصاحب الحق مقالاً». فردد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثاً، فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجل من أصحابه: «اذهب إلى خويلة بنت حكيم بن أمية، فقل لها: رسول الله ﷺ يقول لك: إن كان عندك وسق من تمر الذُّخرة فأسلفينا حتى نؤديه إليك إن شاء الله». فذهب إليها الرجل، ثم رجع الرجل فقال: قالت نعم، عندي يا رسول الله؛ فابعث من يقبضه، فقال رسول الله ﷺ للرجل: «اذهب به فأوفه الذي له». قال: فذهب به فأوفاه الذي له. قالت (عائشة): فمرَّ الأعرابي برسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه فقال: جزاك الله خيراً؛ فقد أوفيت وأطيبت. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «أولئك خيار عباد الله

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي ٢١/١٤.

عند الله يوم القيامة الموفون المطيبون»<sup>(١)</sup>.

روت رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ خمسة عشر حديثاً<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي روتها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزَلاً ثُمَّ قَالَ: [أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ]»<sup>(٣)</sup>.

وعنها رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل فقال: «ليس عليها غسل حتى تُنزل، كما أنه ليس على الرجل غسل حتى يُنزل»<sup>(٤)</sup>.

وروت عن رسول الله ﷺ قالت: قلت يا رسول الله، إنَّ لك حوضاً؟ قال: «نعم، وأحبُّ مَنْ وَرَدَهُ عَلَيَّ قَوْمِكَ»<sup>(٥)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٦٣١٢، ٤٣/٣٣٧-٣٣٩.

(٢) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ١٣٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب الدعاء (باب: في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره)، حديث ٦٨٧٨، ص ١١٧٧.

(٤) رواه الإمام أحمد، حديث ٧٣١٢، ٤٥/٢٩١، وجامع المسانيد والسنن لابن كثير ٤٦٦٨/١٥-٤٦٦٩، وابن ماجه في كتاب الطهارة (باب: في المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل)، حديث ٦٠٢، ص ٨٥.

(٥) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٧٣١٥، ٤٥/٢٩٤.

قال الله تعالى:

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ۖ آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

صلة الآية بما قبلها:

تحدثت الآيات التي قبل هذه الآية فيما خاض فيه المنافقون لما تزوج رسول الله ﷺ زوجة مولاه زيد بن حارثة، وقالوا: تزوج محمد حليمة متبناه؛ فجاءت الآية الكريمة مبينة لرسول الله من يحق له الزواج منها؛ وكذلك ما يحل له من ملك اليمين، والمرأة التي تهب نفسها له. وفي هذا قطع لدابر المنافقين والمرجفين الذين يحاولون فتنة المسلمين عن دينهم.

مقدمة:

هناك أحكام فرضت على رسول الله ﷺ ولم تفرض على أمته، وأحكام حُرِّمَتْ عليه ولم تحرم على أمته، وأحكام أُحِلَّتْ له ولم تحل لأمته، ومما أُحِلَّتْ له ولم تحل لأمته: زواجه ﷺ بأكثر من أربع نسوة، ونكاحه المرأة بلفظ الهبة...

التفسير:

تبدأ الآية بخطاب الله لنبيه: (يا أيها النبي). فلم يخاطبه باسمه كما خاطب

عدداً من أنبيائه ورسله بأسمائهم: (يا نوح)، (يا إبراهيم) (يا موسى) (يا عيسى):  
فما أعذبه وما أحلاه من نداء بأفضل صفاته صلوات الله وسلامه عليه وهي  
النبوة. وهذا الخطاب هو جانب من جوانب تكريم الله لنبِيِّه محمد ﷺ حين  
يخاطبه بصفة النبوة. وتتضمن الآية ما أباحه الله له من الزواج بأكثر من أربع  
نسوة، وملك اليمين، ونساء مؤمنات مهاجرات قريبات لرسول الله، والواهبه  
نفسها للرسول ﷺ، فهذه أربعة أصناف أحلها الله لرسوله الكريم.

### الصنف الأول:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾، أي أبحنا  
لك أزواجك اللاتي تزوجتهن بصداق من النساء الكائنات عندك... تلك  
الأزواج التي أعرضت عن زينة الحياة الدنيا وما فيها من بهارج وزخارف  
ومغريات لما خيرهن رسول الله ﷺ بين العيش معه مع الفقر والفاقة مع حب الله  
ورسوله والدار الآخرة، وبين زينة الحياة الدنيا بعد تسريحهن سراحاً جميلاً،  
فاخترن الله ورسوله على متع الحياة الدنيا<sup>(١)</sup>.

ويُستأنس لهذا المعنى بالفعل الماضي: ﴿آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾. وهذا الذي  
أحلّه الله لرسوله الكريم لا يعني إنشاء الإحلال، بل المراد إعلام الإحلال لما  
سبق. وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أنزل بعد هذه الآية

(١) قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتَن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ  
وَأُسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِن كُنْتَن تَرْضَيْنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ  
مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

بآيتين: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وكانت هذه الآية محل سرور لنسائه رضي الله عنهن؛ لأنها حرّمت عليه الزواج من النساء إلاّ من كانت عنده منهن.

ويشير التعبير القرآني: ﴿ءَأْتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يدخل بامرأة من نسائه إلاّ بعد أن أعطها مهرها كاملاً. وهذا لا يعني أنّ الرجل إذا عقد على امرأة العقد الشرعي، وسمّى لها المهر، ولم يدفع منه شيئاً لا يجوز له أن يدخل بها! لا، فإن ذلك يجوز بموافقتها، لكنها إن امتنعت إلاّ بعد أن يدفع لها المهر كاملاً أو جزءاً منه حسب ما اتفقا عليه فلها ذلك. ونجد رسول الله ﷺ قد اتخذ هنا ما هو الأفضل؛ فأتى النساء مهورهن، ثم دخل بهن. (وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشاً (نصف أوقية). فالجميع خمسمائة درهم، إلاّ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فقد أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمئة دينار، وإلاّ صفية بنت حيي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، كذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عنهن أجمعين)<sup>(١)</sup>.

### الصف الثاني:

الصف الثاني: ملك اليمين، مما أفاءه الله تعالى عليه. والفيء: ما ناله المسلمون من العدو بغير قتال، وقد يكون بقتال أيضاً. وقد تسمى الغنيمة فيئاً: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، أي أحللنا لك الإماء اللواتي سبيتهن

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢١٠-٢١١.

في الحرب، وصرن لك من الفيء. ويشمل (ملك اليمين) ما أهدي للنبي ﷺ: كهدية المقوقس لرسول الله مارية القبطية: وهي أمُّ ولده إبراهيم، فكانت هذه الهدية بمنزلة الفيء؛ ذلك لأنَّ رسول الله ﷺ لم تكن بينه وبين المقوقس صحبة سابقة ولا معرفة؛ وكأنَّ المقوقس أراد بهديته هذه المسالمة بينه وبين رسول الله. ولم يتسرَّ رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية هذه. ويشترك في هذا الحكم كل من أعطاه أميره أمةً من الفيء فإنها تحلُّ له. وقد كانت السراري يوم نزول الآية مباحات لرسول الله وللمسلمين عامة، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد ملك صفة وجويرية فأعتقهما وتزوجهما.

### الصنف الثالث:

الصنف الثالث: نساء مؤمنات مهاجرات، قريبات بالنسب من رسول الله ﷺ من جهة أبيه أو من جهة أمه: ﴿وَبَنَاتِ عِمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) العم: أخو الأب. وقد كان لرسول الله ﷺ اثنا عشر عمًّا هم:

١. الحارث ٢. أبو طالب واسمه عبد مناف ٣. الزبير ويكنى أبا الحارث ٤. حمزة ٥. أبو لهب واسمه عبد العزى ٦. الغيداق ٧. المقوم ٨. ضرار ٩. العباس ١٠. قثم ١١. عبد الكعبة ١٢. حجل ويسمى المغيرة. ينظر ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، تأليف محيي الدين أحمد بن عبد الله الطبري ص ٢٠١.

ولم يُسلم من أعمامه هؤلاء الذين أدركوا البعثة النبوية إلا حمزة والعباس، أما بنات عمه فهن:

١. ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ٢. أم حكيم بنت الزبير ٣. أم هانئ بنت أبي طالب واسمها فاختة ٤. جمانة بنت أبي طالب ٥. أم حبيبة ٦. آمنه ٧. صفية - والثلاث الأخيرة بنات العباس بن عبد المطلب ٨. أروى بنت الحارث بن عبد المطلب. ولم يتزوج رسول الله ﷺ من =

ولم تصف الآية هذا الصنف بصفة الإيوان؛ لأن هجرتهن تغني عن ذلك: فلم تهاجر واحدة منهن إلا بعد أن تَشَبَّعَ قلبها بالإيوان الحق، فأباح الله عز وجل لرسوله الكريم أن يتزوج من نساء هذا الصنف بعقد النكاح. وقد ذكر الله تعالى هذا الصنف من النساء تكريماً لهن. فهنّ قريبات من رسول الله ﷺ وهاجرن إلى المدينة. ويؤيد هذا ما رُوي عن أم هانئ رضي الله عنها قالت: (خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿...إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَأَيْتَتْ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء<sup>(١)</sup>.

وأحبُّ أن أُشير هنا إلى أنَّ هذا الحكم نزل على الرسول الكريم، وبين ظهري المجتمع الإسلامي - آنذاك - أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكان فيهم إفراط وتفريط: (فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته. فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ

= بنات أعمامه أية واحدة كانت.

أما عمات الرسول ﷺ فهن:

١. عاتكة. ٢. أميمة. ٣. البيضاء وهي أم حكيم. ٤. برة. ٥. صفية. ٦. أروى. ولم يسلم منهن إلا صفية أم الزبير. ينظر: ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، للمحب الطبري ص ٢٨٧.

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢١١.

والأخت، وهذا شنيع فظيع<sup>(١)</sup>.

الشرط في قوله: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾

يبدو من ظاهر قوله تعالى: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أن الهجرة شرط لزواج رسول الله ﷺ، فمن لم تهجر لا يحلُّ لرسول الله أن يتزوجَ منها. ودليل هذا ما قالته أم هانئ بنت أبي طالب الذي مر ذكره<sup>(٢)</sup>.

لكن هناك من العلماء من ذهب إلى أن الهجرة ليست بقيد ولا بشرط، وجاءت الآية لتبيان الأفضلية أولاً، ولشرف الهجرة بعد ذلك.

### الصنف الرابع:

الواهبة نفسها لرسول الله ﷺ.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الوهب: إعطاء الإنسان غيره شيئاً من غير مقابل، فهو ليس بيعاً ولا بدلاً، والجملة القرآنية تتحدث في المرأة المؤمنة تأتي إلى رسول الله ﷺ وتهب نفسها له من دون عوض، ومن غير مهر. وقد كان ذلك مما اعتادت عليه بعض النساء قبل الإسلام مع قادة العرب وعظمائهن، فإذا وهبت نفسها لأحد تعين عليه نكاحها، ولا يجوز له ردها. أما رسول الله ﷺ، فقد أباح الله له التزوج من الواهبة نفسها إذا شاء. وفي هذا سعة لرسول الله ﷺ؛ فيكون ردُّ النبي للواهبة نفسها مأخوذاً به،

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢١١.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢١١.



فلا يلحقها شيء من التعبير بذلك.

ونجد التعبير القرآني ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ ﴿١﴾ قد أُعيد لفظ (النبي) هنا، فأظهرَ في مقام الإضمار تفضيلاً للنبي الكريم، وذلك لاستحقاقه كل كرامة.

لا تكون الواهبة نفسها إلا لرسول الله ﷺ:

وإحلال الواهبة نفسها خاص برسول الله ﷺ وحده، فلا تحل لغيره من المؤمنين، وقد ثبت في الصحيح من الحديث أَنَّ مَنْ النِّسَاءِ مِنْ عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قال ثابت البناني (كنت عند أنس (بن مالك) وعنده ابنة له. قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك بي حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقلَّ حياءها! واسوأها! واسوأها! قال: هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها) (١).

وقد يسأل سائل: هل تزوج رسول الله ﷺ واحدة ممن وهبت نفسها له عليه الصلاة والسلام؟

والجواب - كما هو الراجح من أقوال العلماء - : أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بواحدة من الواهبات أنفسهن له، وقد قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، ولم يكن عنده امرأة بالهبة (٢).

وإذا كان الرسول الكريم لم يتزوج بواحدة من الواهبات أنفسهن له، فقد

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح)، حديث ٥١٢٠، ص ٩١٥.

(٢) تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري ٦/ ٢١١، هذبه: صلاح عبد الفتاح الخالدي.

كان يقوم بتزويجهن لغيره من الصحابة. ويدل على ذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت أهبُّ لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعد النظر فيها وصوره، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست؛ فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن لم تكن لك بها حاجة فزوّجنيها، فقال: «وهل عندك من شيء؟» قال: لا والله يا رسول الله، فقال: «اذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئاً؟»، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً؛ فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتماً من حديد»، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارِي - قال سهل: ما له رداء - فلها نصفه؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما تصنع بإزارِك إن لبستَهُ لم يكن عليها منه شيء، وإن لبستَهُ لم يكن عليك منه شيء»، فجلس الرجل، حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله ﷺ مُؤَلِّياً فأمرَ به فدُعي، فلما جاء قال: «ماذا معك من القرآن؟» قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عدّها، فقال: «تقرؤون عن ظهر قلبك؟» قال: نعم، قال: «اذهب، فقد ملّكتكها بما معك من القرآن»<sup>(١)</sup>.

### مَن التي وهبت نفسها لرسول الله؟

ذكر العلماء أنّ الواهبات أنفسهن لرسول الله ﷺ ثلاثة: خولة بنت حكيم التي نزلت الآية بسببها، وأمُّ شريك بنت جابر، وليلي بنت الحطيم، وربما كانت الواهبات أكثر من ذلك، بدليل ما رواه البخاري عن عائشة قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهبُّ المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: تزويج المعسر..)، حديث ٥٠٨٧، ص ٩١٠.

تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١]، قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك<sup>(١)</sup>.

### الحكمة مما تقدم من أحكام:

هكذا خصَّ الله نبيه محمداً ﷺ بأحكام خاصة به؛ وذلك لعظم مهمته في تبليغ شريعة الله إلى الناس ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيْ أَرْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، فهو تعالى يوسع في أحكامه إذا اقتضت الحكمة ذلك. وليس هذا بالنسبة للرسول الكريم عن ميل جنسي، فقد بقي مكثفياً بزوجة واحدة هي خديجة ولما انتقلت إلى جوار ربها لم يتزوج، وظل هكذا إلى أن هاجر إلى المدينة، فكان زواجه (الحكم) ومصالح اجتماعية أو إدارية أو سياسية تتعلق بنشر الدعوة أو بالمجتمع الحاضر أو بالعائلة التي يتزوج منها، أو بشخص الزوجة التي يضمها إلى عصمته وكفالتها<sup>(٢)</sup>.

### خاتمة الآية:

وجاءت خاتمة الآية مذيلة ببيان سعة مغفرة الله ورحمته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. أجل، كانت مغفرته ورحمته لعباده المؤمنين ولا تزال كذلك.



---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: قوله: تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ...)، حديث ٤٧٨٨، ص ٨٤١-٨٤٢.

(٢) أولى ما قيل في آيات التنزيل تأليف شيخنا رشيد الخطيب الموصل ٧٨/٦.

## نافذة على التوبة

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ  
الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اجتمعنا للهجرة اتعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل الميضاة - ميضاة بني غفار - فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحبا، فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة، نزلنا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمه - حتى قدما علينا المدينة، فكلّمها فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمسّ رأسها مشطاً حتى تراك؛ فرقّ لها؛ فقلت له: يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك؛ فاحذرهم، فوالله لو قد أذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حرّ مكة - أحسبه قال - لاستظلت. قال: أبرّ قسم أمي، وإن لي هناك مالاً، فأخذه، قال: قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي، ولا تذهب معها، فأبى إلا أن يخرج معها؛ فقلت له: لما أبى عليّ: أما إذ فعلت؛ فخذ ناقتي هذه؛ فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم، ريب، فانج

عليها؛ فخرجَ معها عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال: بلى؛ فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استتوا بالأرض، عدّيا عليه وأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن، قال: فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افْتِنَ صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزلَ فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال عمر: فكتبتها في صحيفة، وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلم أزل أقرؤها بزدي طوى أضعدها بها فيه حتى فهمتها، قال: فألقي في نفسي إنما نزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا؛ فرجعتُ، فجلستُ على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) الاستيعاب في بيان الأسباب تأليف: سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر ٣/ ١٧٣ - ١٧٤، وقال فيه: حديث صحيح، وقد أخذنا ذلك عن ابن هشام من سيرته نقلاً عن ابن اسحق، والطبري في تفسيره؛ والحاكم في مستدركه، والبزار في مسنده، والبيهقي في شعب الإيمان، وفي غير ذلك. ينظر: الاستيعاب في بيان الأسباب ٣/ ١٧٣ - ١٧٤، الطبعة الثالثة ١٤٣٤، دار ابن الجوزي، السعودية وبيروت، والقاهرة.

## عياش بن أبي ربيعة

هو عياش بن أبي ربيعة - واسم أبي ربيعة عمرو ويلقب بذي الرحمين - بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وابن عمه خالد بن الوليد.

كنيته: أبو عبد الرحمن - وقيل: أبو عبد الله - .

وهو أخو أبي جهل عمرو بن هشام لأُمِّه، وأخو عبد الله بن ربيعة.

أُمه: أسماء بنت مُحَرَّبَة بن جندل.

سمع عياش بدعوة رسول الله ﷺ، وتأمَّل بما يدعو إليه، فدخل الإيمان الحق قلبه، فكان من أوائل من سَعَدَ بالانضواء تحت لواء الإسلام، وذلك قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم. ولما صار المشركون يضطهدون من آمن بالله الواحد الأحد، كان عياش واحداً ممن أصابه الأذى من المشركين؛ فاضطرَّ أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها، وكان معه زوجته أسماء بنت سلمة التميمية، وهناك في الحبشة ولد له ولد سماه (عبد الله)، ولما عاد قسمٌ من مهاجري الحبشة إلى مكة، كان عياش واحداً منهم، وما إن أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة حتى كان عياش ممن هاجر بصحبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعلى هذا يكون عياش من أصحاب الهجرتين.

ووصل عمر وعياش إلى المدينة فنزلوا في (بني عمرو بن عوف)، وعزَّ على أبي جهل عمرو بن هشام والحارث بن هشام - وكان عياش ابن عمهما وأخاهما

لأُمِّهَا - أَنْ يَخْرُجَ عِيَاشٌ مِنْ مَكَّةَ، وَدَبَّرَا حِيلَةً لِإِعَادَتِهِ إِلَى مَكَّةَ لِيَحْبِسُوهُ وَيَفْتَنُوهُ  
عَنْ دِينِهِ، وَهَكَذَا كَانَ، فَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَلَطَّفَا مَعَهُ فِي  
الْحَدِيثِ قَائِلِينَ لَهُ: إِنَّ أُمَّكَ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مَشْطٌ حَتَّى تَرَكَ... فَرَقَّ  
لِوَالِدَتِهِ.

كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مَعَ عِيَاشٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ؛  
لِيَخْرُجُوا بِهِ إِلَى مَكَّةَ وَيُقَيِّدُوهُ وَيَفْتَنُوهُ عَنْ دِينِهِ.. وَانْطَلَّتِ الْخَدِيعَةُ عَلَى عِيَاشٍ،  
فَقَرَّرَ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَكَّةَ.

وَعَلِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ عِيَاشٌ - وَكَانَ رَجُلًا لَوْ ذَعِيًّا يَعْرِفُ  
أَسَالِيبَ الْمُشْرِكِينَ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ - فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: يَا عِيَاشُ، كُنْ حَذِرًا  
مِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَإِنَّهُمَا يَرِيدَانِ بِكَ شَرًّا، وَمَا يَرِيدَانِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا صَدَّكَ عَنْ هَذَا  
الدِّينِ.

وَيَقْصُّ عِيَاشٌ عَلَى عُمَرَ مَا تَحَدَّثَا بِهِ بِشَأْنِ وَالِدَتِهِ، فَقَدَّمَ لَهُ النَّصِيحَةَ بَعْدَ  
النَّصِيحَةِ، وَمَا قَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَوْ آذَى أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطْتُ، وَلَوْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرٌّ  
مَكَّةَ لَاسْتِظَلْتُ، لَكِنَّ عِيَاشًا رَقَّ لِأُمَّهُ فَقَالَ: أَبْرُ قَسَمَ أُمِّي، وَإِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا  
فَأَخَذَهُ.

وَيُظَلُّ عُمَرُ يَقْدِّمُ لَهُ النَّصِيحَةَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ خَشْيَةً أَنْ يُجْدَعَ، وَلَكِنْ بَدُونَ  
جَدْوَى، وَلَمَّا تَعَلَّلَ بِهَا الَّذِي بِمَكَّةَ قَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قَرِيشِ  
مَالًا، فَلِكِ نِصْفِ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهَا، أَمَا عِيَاشُ، فَقَدَّرَ قَرَارًا لَا رَجْعَةَ بَعْدَهُ  
أَنْ يَذْهَبَ مَعَهَا إِلَى مَكَّةَ وَمَعَ هَذَا لَمْ يَتْرِكْ ابْنَ الْخَطَّابِ صَاحِبَهُ فَاسْتَمَرَ بِالْحَدِيثِ  
مَعَهُ، وَقَالَ لَهُ - فِيمَا قَالَ - لِمَا رَأَى عَزَمَهُ عَلَى الذَّهَابِ مَعَهَا إِلَى مَكَّةَ: فَإِذَا أَبَيْتَ إِلَّا

الخروج معها، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة ذلول، فإذا رابك شيء منها تستطيع أن تنجو بنفسك عليها.

وأخيراً خرج عياش معها، وفي الطريق احتالا عليه؛ فقال له أبو جهل: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ واستجاب عياش فأناخ ناقته وأناخا ليتحول أبو جهل عليها، ولكن ما إن استتوا بالأرض حتى قاما عليه فأوثقاه، ثم دخلا به مكة مقيداً وفتناه عن دينه.

لقد تحمّل عياش ما تحمّل من قبل من أذى المشركين، ولم يعطهم من الكلام ما يريدون، فكيف يُفتن عن دينه؟  
ويبدو أن العذاب الذي أصابه، جعله يتقلب على جمر الغضب فأعطاهم من لسانه ما يريدون.

ونظر إلى ابن الخطاب حين يمرُّ بخاطره ما فعله أبو جهل والحارث بعياش فيصيبه من الغم والههم والحزن ما يصيبه، ويتساءل عمر - وهو سؤال جمع من الصحابة -: هل لمن يُفتن عن دينه توبة؟

ثم يعود عمر ومن معه فيقولون: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم!  
ويشاء الله أن يأذن لنبيه محمد ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وهناك في المدينة أنزل الله تعالى في عياش وأمثاله من المسلمين المستضعفين قوله تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ  
الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].



وما أعظم فرحة المسلمين حين نزل سيدنا جبريل على رسول الله بهذه الآية الكريمة! وقد كان الرسول الكريم يقنت في صلاته يدعو لعياش وإخوانه من المسلمين المستضعفين في مكة، ويسمي في قنوته عياشاً وإخوته فيقول:

«اللهم نجّ عياش بن أبي ربيعة، اللهم نجّ سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد ابن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين...»<sup>(١)</sup>.

أما ابن الخطاب، فلم ينسَ عياشاً وإخوانه، فما إن نزلت الآية الكريمة حتى كتبها في صحيفة، وبعث بها إلى عدد من المسلمين المستضعفين، في مكة، فسارع من سارع منهم إلى اللحاق بالمسلمين في المدينة المنورة، ومنهم عياش بن أبي ربيعة.

وكم كانت فرحة المسلمين غامرة حين عاد عياش إلى المدينة، وقصَّ على المسلمين ما حدث له، وما لاقاه من أذى المشركين!

ظل عياش ثابتاً على إسلامه، مجاهداً في سبيل الله، وقد استشهد في يوم اليرموك كما قال الحافظ الذهبي<sup>(٢)</sup>، وقيل استشهد باليامة، وقيل مات بمكة.

وقد عدّه ابن حزم ممن روى حديثين عن النبي ﷺ. ومن الأحاديث التي رواها:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب: [فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم]) حديث ٤٥٩٨، ص ٧٨٥.

(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي ٢/٩٠، حققه وضبطه وعلق عليه: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٣) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ٣٣١، وجامع المسانيد والسنن لابن كثير ١٠/٢٧٨٨.

«لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة - يعني الكعبة والحرم - حق تعظيمها، فإذا تركوها وضيعوها هلكوا»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ:

«يخرج بين يدي الساعة ريح يقبض فيها روح كل مؤمن»<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه الإمام أحمد برقم ١٩٠٤٩، ٣١/٣٩٥ والحديث ضعيف، ورواه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان، حديث ١١٠٠٩، ٧/٤٦٥.

(٢) رواه أبو نعيم الأصبهاني في كتابه معرفة الصحابة، حديث ٥٥٨٢، ٤/٥٩.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله تعالى في الآيتين قبل هذه الآية الموقف الصعب الذي يلاقه الذين  
ظلموا أنفسهم بالشرك وتكذيب أنبياء الله ورسله يوم القيامة، حتى إن أحدهم لو  
كان له ما في الأرض جميعاً لهان عليه أن يبذل ذلك كله ليخلص نفسه مما يلاقه  
من سوء العذاب يوم القيامة.

وبعد هذا الوعيد الذي تصطك من هوله الركب، جاء ذكر مغفرة الله  
للتائبين الذين أسرفوا على أنفسهم وجنوا عليها بارتكاب الذنوب، مبيّنة أن رحمة  
الله واسعة، تبعث الأمل في نفوس من أسرف على نفسه بالذنوب والآثام إذا تاب؛  
كي لا يقنط الإنسان من رحمة الله.

بين يدي الآية:

خلق الله الإنسان في هذه الحياة وجعله مختاراً، بعد أن ركب فيه الغرائز  
والشهوات، فصار يُقدّم على اعتناق العقيدة السليمة وغير السليمة باختياره،  
وكذلك يُقدّم على أعمال الخير وأعمال الشرّ باختياره أيضاً، من غير أن يحمله أحدٌ  
على سلوك هذا الطريق أو ذلك. فلما كانت طبيعة الإنسان كذلك، فلا بد أن تقع  
منه ذنوب ومعاصٍ صغيرة كانت أو كبيرة؛ لأن كل بني آدم خطاء. ولكن الله عز  
وجل لم يدع عباده تعبت بهم شياطين الإنس والجن، ففتح أمامهم باب التوبة،

مبيئاً لهم أن هذا الباب مفتوح لا يغلق في الليل ولا في النهار، فالليل كله للتوبة، والنهار كله للتوبة، وقد بين الله عز وجل لهم هذا؛ كي لا يقنط من رحمة الله أحد ولو عظمت ذنوبه، ولا شك أن هذه نعمة من أجل النعم، تدل على سعة رحمة الله بعباده العاصين؛ لأنه تعالى لا يريد عذابهم، بل يريد أن يأخذ بأيديهم ليدخلهم جنته، فما أعظم سعة رحمة الله بعباده!

هكذا جاءت الآية الكريمة تفتح الأمل للخارجين عن طاعة الله من الكافرين والعاصين من المسلمين معاً، تدعوهم إلى أن لا ييأسوا من رحمة الله، فهو يغفر الذنوب - كل الذنوب - وهو الغفور الرحيم.

### التفسير:

الخطاب في الآية الكريمة وجهه الله تعالى لرسوله محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي يبلغ رسالته إلى الناس، يأمره بقوله: قل يا محمد لعبادي الذين جنوا على أنفسهم فارتكبوا السيئات والمعاصي والموبقات: أن رحمة الله تعالى واسعة، ومغفرته عامة وشاملة لكل من ارتكب الشرور والآثام مهما عظمت. وليس هذا الخطاب من الله الغفور الرحيم خاصاً بالمدنيين من المسلمين، بل يشمل الكافرين والمشركين أيضاً بعد التوبة الخالصة لله، فلم يخصها بأحد، ولم يقيدها بذنوب، وإن كان المراد من الخطاب المشركين، وسبب النزول يدل عليه، والآية الكريمة دعوة من الله إلى الناس كافة مسلمين وكافرين، يدعوهم الله عز وجل فيها إلى التوبة مما اجترحته أيديهم وألستهم من ذنوب ولو عظمت. فهي أرجى آية في القرآن، ترفع معنويات المسرفين على أنفسهم.

ويكفي الإنسان التائب فخراً حين أُضيف لفظ العباد إلى الله ﴿قُلْ يَعْبادِي...﴾ لتشريف العباد وتكريمهم في هذا الخطاب.

ويأتي في الآية لفظ (الإسراف): ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو تجاوز الحد في كل شيء، وأكثر ما يُستعمل في الإنفاق والمراد بالإسراف هنا: اقتراف الموبقات والمعاصي والسيئات.

أما القنوط: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ فهو اليأس من الخير. وقد كثرت آيات القرآن في النهي عن القنوط، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فيقال لمن يئس من أمر من الأمور، ولا يكون له أمل في تحقيق ما يريد: قانط.. هكذا جاءت الآية لتقول للمذنبين: لا تقنطوا فتظنوا أن الله لا يغفر لكم ولا يقبل توبتكم، فإن رحمة الله وسعت كل شيء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وجاء التعليل القرآني هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾؛ لبيّن أن الله يتجاوز عن الذنوب ويمحوها من الصحائف كلها. فهو يمحو ذنوب من تاب من العصاة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. والغفور صيغة مبالغة، فهي تشمل مغفرة الله للذنوب كلها.. حتى يغفر للمشركين والكافرين إذا تابوا من شركهم وكفرهم ودخلوا في الإسلام عن إيمان صحيح؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

ونظر إلى رسول الله ﷺ لما أنزل الله عليه هذه الآية، ففرى الفرح الشديد قد غمره من كل جانب حتى قال:

«ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ  
أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ﴾»<sup>(١)</sup>.

ولقد كثر ترغيب رسول الله ﷺ بالتوبة، وكان يضرب الأمثلة بفرح الله  
حين يتوبُ العبدُ إلى ربه فيقول:

«للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته  
بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة  
فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فيينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده؛  
فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من  
شدة الفرح»<sup>(٢)</sup>.

لقد ضرب لنا رسول الله هذا المثل ليعلمنا أن رحمة الله واسعة وأنه لا يريد  
عذابنا، ولا يريد منا إلا التوبة ليدخلنا جنته.

وقال ﷺ مرَّغباً بالتوبة:

«إنَّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار  
ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٢٣٦٢، ٣٧/٤٥، وضعف سنده محققوه.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: في الحَصِّ على التوبة والفرح بها)، حديث ٦٩٦٠،  
ص ١١٩١.

(٣) رواه مسلم في كتاب التوبة (باب: قبول التوبة من الذنوب)، حديث ٦٩٨٩، ص ١١٩٦.

والمعاد ببسط اليد: قبول التوبة.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه جعل باب التوبة مفتوحاً لا يغلق في الليل ولا في النهار حتى تطلع الشمس من مغربها فقال ﷺ:

«من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»<sup>(١)</sup>.

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعُ على عصاً له فقال: يا رسول الله، إن لي غدراً وفجراً، فهل يُغفر لي؟ قال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، قال: «قد غُفِرَ لك غدراتك وفجراتك»<sup>(٢)</sup>.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:

«يا بن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا بن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يؤكدون على جانب سعة رحمة الله، ويدعون من يُدَّكرون الناس بهذا، ومثال على ذلك ما كان من عبد الله بن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: استحباب الاستغفار)، حديث ٦٨٦١، ص ١١٧٤.

(٢) رواه الإمام أحمد برقم ١٩٤٣٢، ٣٢/١٧١، والحديث صحيح بشواهده.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (باب: الحديث القدسي يا بن آدم إنك ما دعوتني)، حديث

٣٥٤٠، ص ٨٠٧، والإمام أحمد برقم ٢١٤٧٢، ٣٥/٣٧٥.

مسعود رضي الله عنه، فقد مرَّ على قاصٍ وهو يُذكَرُ الناس فقال: يا مذكَرُ، لم تُقنطِ  
الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن  
رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾<sup>(١)</sup>.

ويروي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ  
يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ...﴾ فيقول: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من  
زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله،  
ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة  
يقول الله تعالى هؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ  
رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء من  
قال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ  
غَيْرِي﴾<sup>(٢)</sup> [القصص: ٣٨].

ونختم بما قاله الشوكاني في تفسير هذه الآية:

(واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه: أي لاشتغالها على  
أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشریفهم، ومزيد تبشيرهم،  
ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي.. ثم عقَّب على ذلك بالنهي عن القنوط من  
الرحمة.. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال:

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٦١.



﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ...﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ كَائِنًا مَا كَانَ، إِلَّا مَا أَخْرَجَهُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ وَهُوَ الشِّرْكَ.. ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله (جميعاً)، فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين... وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلاً: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ٤/٦١٦-٦١٧، بتحقيق عبد الرحمن عميرة، الطبعة الثالثة

١٤٢٦-٢٠٠٥، دار ابن حزم، بيروت.

## الشك الافتراضي لإقامة الحجّة

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم؛ فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه»، قال: فأسكتوا ما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم، ثم ثلث فلم يُجبه أحد فقال: «أبيتم! فوالله، إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، أمتتم أو كذبتم».

ثم انصرف وأنا معه، حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجلاً أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أهلك قبلك، ولا من جدك قبل أهلك. قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونّه في التوراة.

قالوا: كذبت. ثم ردّوا عليه قوله، وقالوا فيه شرّاً، قال رسول الله ﷺ: «كذبتُم لَنُ يقبل قولكم: أمّا أنفأ، فتشون عليه من الخير ما أنثيتُم، ولما آمن أكذبتُموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يُقبل قولكم».

قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِءَ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> [الأحقاف: ١٠]. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعتُ النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِءَ﴾<sup>(٢)</sup> [الأحقاف: ١٠].

\*\*\*

---

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٣٩٨٤، ٣٩/٤٠٩-٤١٠. قال محققه: صحيح على شرط مسلم، والطبري في تفسيره ١٣٤/٢٤-١٣٥، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، حديث ٧١٦٢، ١١٩/١٦، والمعجم الكبير للطبراني ٤٧/١٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه)، حديث ٣٨١٢، ص ٦٤٠.

## عبد الله بن سلام رضي الله عنه

قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة التي كانت تسمى بـ (يثرب)، ظهر فيها حبر من أحبار اليهود، أحبّه الناس من صميم قلوبهم، وقد حظي بحب اليهود وإجلالهم وتعظيمهم له. وإذا كان لليهود حبرٌ يفخرون به ويتفاخرون، فهو (الحصين بن سلام) لما عرفوه عنه من الاستقامة والصدق والصلاح والأخلاق العالية والسجايا الناصعة. ومما حبّبه إلى اليهود أيضاً: أن والده كان حبراً من أحبار اليهود، وكذلك كان جده أيضاً، وكان كثيراً ما يدخل الكنيس اليهودي فيعظ الناس ويُرشدهم إلى ما ينفعهم، ويؤدي العبادة فيه، وكان أنيسه التوراة يقرؤها ليتفقه بها في الدين.

ولم تكن التوراة - آنذاك - قد حذفت منها التبشير الواضح بظهور رسول يختم الله به رسالات الأنبياء، فكان يقرأ أوصاف النبي المرتقب، مؤملاً أن يمتدّ به العُمر لينعم بالإيمان به ويتشرف بصحبته...

وعلم الله منه صدق ما يصبو إليه، فلم يمتّ حتى تكحّلت عيناه برؤية رسول الله ﷺ والإيمان به.

ونظر إلى اليهود - آنذاك - فنراهم مستبشرين ببعثة ذلك النبي الذي يجدون أوصافه في التوراة وقد حانت بعثته، لأنهم كانوا يظنون أن الرسول المرتقب سيكون من بني إسرائيل، ظانين أن الأنبياء والرسول لا تكون إلاّ منهم؛ لذلك

صاروا يتعالون على الناس، ويسمون أنفسهم أبناء الله وأحباءه... ولما علموا أنّ الله ابتعث نبيّه من العرب، عزّ عليهم أن تنتقل النبوة عن بني إسرائيل إلى العرب، وتواصلوا بينهم أن يكيدوا بالنبيّ وبهذا الدين الجديد. وقد شدّد عن اليهود واحد من كبار أحبارهم، فأمن برسالة محمد ﷺ، وأقام عليهم الحجّة بعد الحجّة بأنّ محمداً بن عبد الله رسولٌ من الله، وصفاته في التوراة واضحة لا تخفى على من يتلوها...

فمن ذلك الخبرُ اليهودي الذي كشف زيفَ اليهود وكذبهم، وتركهم يتقلبون على جمر الغضى؟

إنه عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي من (بني قينقاع) ثم الأنصاري، وهو من ذرية نبيّ الله يوسف عليه السلام.

كان اسمه قبل أن يُسلم (الحصين) فغيّره رسول الله ﷺ إلى عبد الله. لقد أسلمَ أوّلَ قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة. ويتحدث عن دخوله في الإسلام فيقول:

لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة انجفلَ الناسُ عليه، فكنت فيمن انجفل. فلما تبينتُ وجههُ عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أوّلَ شيء سمعته منه: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا الناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»<sup>(١)</sup>.

ولندع هذا الخبرَ عبد الله بن سلام يروي لنا كيف هداه الله للإسلام فيقول:

(١) رواه الإمام أحمد، حديث ٢٣٧٨٤، ٣٩/٢٠١، وغيره.

(لما سمعتُ برسول الله ﷺ عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف (نترقب ونتوقع) له، فكنتُ مُسراً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبرَ بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبرَ بقدم رسول الله ﷺ كبرتُ؛ فقالت لي عمتي حين سمعتُ تكبيرِي: خيِّبك الله! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادماً ما زدتَ؛ فقلتُ لها: أي عمّة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعثَ بما بُعثَ به؛ فقالت: أي ابن أخي: أهو النبي الذي كنا نُخبرُ أنّه يُبعثُ مع نفس الساعة؟ فقلتُ لها: نعم؛ فقالت: فذاك إذا؛ ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا<sup>(١)</sup>).

وقبل أن يُسلم عبد الله بن سلام التقى الرسولَ الكريمَ وسأله الأسئلة الآتية: فقال: إني سائلُكَ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيٌّ قال: ما أوّلُ أشراف الساعة؟ وما أوّلُ طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيّ شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أيّ شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبرني بهنّ آنفاً جبريل»، فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: «أما أوّلُ أشراف الساعة، فنارٌ تحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أوّلُ طعامٍ يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها» قال: أشهدُ أنّك رسول الله<sup>(٢)</sup>.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (باب: خلق آدم وذريته)، حديث ٣٣٢٩، ص ٥٥٣.

ولقد أعطانا عبد الله بن سلام صورةً عمليةً واضحةً على كذب اليهود، وإصرارهم على عدم الإيمان برسول الله ﷺ عن عمد، فبعد أن أعلن ابنُ سلام إسلامه، قال للرسول الكريم: يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بُهت: إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت؛ فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ رجلٍ فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمنا وابنُ أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلمَ عبد الله؟» قالوا: أعاده الله من ذلك؛ فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه<sup>(١)</sup>.

نترك اليهود بحقدهم على هذا الدين، ونتَّجه إلى سيرة عبد الله بن سلام... فقد بدأ حياة جديدة في ظلال الإسلام. فما إن شرفه الله بالانضواء تحت لواء هذا الدين، حتى صار جندياً من جنوده، واتَّجه إلى تلاوة القرآن وطلب العلم، وأحبَّ الرسول الكريم من أعماقه، فكان يحضر مجالسه، ويسمعُ توجيهاته، حتى صار رضي الله عنه - فيما بعد - عالماً من علماء الصحابة، وشهد له رسول الله ﷺ «أنه عاشرُ عشرةٍ في الجنة».

فعن يزيد بن عميرة قال: لما حضر معاذ بن جبل الموت، قيل له: يا أبا عبد الرحمن، أوصنا. قال: أجلسوني، فقال: إنَّ العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدَّهما - يقول ذلك ثلاث مرات - والتمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عاشر

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (باب: خلق آدم وذريته)، حديث ٣٣٢٩، ص ٥٥٣.

عشرة في الجنة»<sup>(١)</sup>.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى بقصعة من ثريد فأكل، ففضل منه فضلة فقال: «يدخل من هذا الفج رجل من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة». قال سعد: وقد كنت تركت أخي عمير بن أبي وقاص يتهاى لأن يأتي النبي ﷺ، فطمعت أن يكون هو، فجاء عبد الله بن سلام فأكلها»<sup>(٢)</sup>.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]<sup>(٣)</sup>.

وروى الإمام البخاري أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمنَ بنبيه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدَّى حق الله تعالى وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»<sup>(٤)</sup>.

ولا ريب أن عبد الله بن سلام واحد من نص النبي ﷺ على أن له أجرين: فقد آمنَ بنبيه موسى عليه السلام أولاً، ثم آمنَ برسول الله محمد ﷺ بعد بعثته.

---

(١) رواه البخاري في كتابه (التاريخ الصغير) ٩٨/١، والترمذي في كتاب المناقب (باب: مناقب عبد الله بن سلام)، حديث ٣٨٠٤، ص ٨٦٣.

(٢) رواه الإمام أحمد بسند حسن، حديث ١٥٩١، ٣/١٥١.

(٣) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار (باب: مناقب عبد الله بن سلام)، حديث ٣٨١٢، ص ٦٤٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: تعليم الرجل أمته وأهله)، حديث ٩٧، ص ٢٢.



وبعد أن انتقل رسولُ الله ﷺ إلى جوار ربه، ظل ابن سلام ثابتاً على عقيدة الإيمان، داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان ناصحاً أميناً، وقد شهد (فتح نهاوند) في خلافة عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>.

ولما توفي أمير المؤمنين عمر، عدَّ ابن سلام موتهُ رُزءاً كبيراً رُزئ به المسلمون. قال ابن سعد: جاء عبد الله بن سلام وقد صُلِّيَ على عمر فقال: والله لئن كنتم سبقتُموني بالصلاة عليه، لا تسبقوني بالثناء عليه، فقام عند سريره فقال: (نعمَ أخو الإسلام كنتَ يا عمر: جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضى، وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً)<sup>(٢)</sup>.

ولما أراد أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يخرج إلى العراق نصحه ابن سلام طالباً منه عدم الخروج قائلاً له: (الزم منبرَ رسول الله ﷺ، فإن تركته لا تراه أبداً). وكان علي يعرف مكانة عبد الله وإخلاصه في النصيح فقال: إنه رجل صالح منا<sup>(٣)</sup>.

توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وأربعين في المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، بعد أن أدى ما عليه من واجبات، وقدم ما قدم من خدمة لهذا الدين.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٢.

(٢) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ٣/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٦/ ١٩٢، نقلاً عن معجم الصحابة للبغوي، حديث ١٦٣٨.

روى عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرين حديثاً كما قال ابن حزم<sup>(١)</sup>.  
وروى عنه ابنه يوسف ومحمد، ومن الصحابة: أبو هريرة، وعبد الله بن  
مغفل، وأنس بن مالك، وعبد الله بن حنظلة بن غسيل الملائكة وغيرهم.

ومن الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ:

- «لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال حبة خردلٍ من كِبْرٍ»<sup>(٢)</sup>.

- «مَنْ حَدَّثَ حَدِيثًا لَا يَجِبُ أَنْ يُفْشَى عَلَيْهِ، فَهُوَ أَمَانَةٌ وَإِنْ لَمْ يَسْتَكْتَمْهُ

صاحبه»<sup>(٣)</sup>.

- «أنا سيّدُ ولدِ آدم يوم القيامة ولا فخر، وأوّلُ من تنشقُّ عنه الأرضُ ولا

فخر، وأوّلُ شافعٍ ومُشفّعٍ، لوأى الحمد بيدي يوم القيامة، تحتي آدم فمن دونه»<sup>(٤)</sup>.

- «مَنْ صَلَّى صَلَاةً، ثُمَّ انتظر الأخرى، كان في صلاة حتى يفرغ منها»<sup>(٥)</sup>.

- قال عبد الله بن سلام: قلنا: يا رسول الله، أنحن أخير أم مَنْ بَعَدَنَا؟ فقال:

«لو أنّ لأحدكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ينفقه في سبيل الله، ما بلغ مُدًّا أحَدِكُمْ ولا

نصيْفَه»<sup>(٦)</sup>.

---

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص ١١٠.

(٢) جامع المسانيد والسنن لابن كثير، حديث ٥٦٤٧، ٨/٢٠٧٤.

(٣) رواه الطبراني، حديث ٤٠٤، ١٤/١٢٢، وجامع المسانيد والسنن، حديث ٥٦٥٠، ٨/٢٠٧٥.

(٤) رواه الطبراني، حديث ٣٩٩، ١٤/١٢١، وجامع المسانيد والسنن، حديث ٢٠٧٠، ٨/٢٠٧٠.

(٥) رواه الطبراني، حديث ٤١٠، ١٤/١٢٤.

(٦) رواه الطبراني، حديث ٣٧٤، ١٤/١١١، وجامع المسانيد والسنن، حديث ٥٦٦٥، ٨/٢٠٨٠.

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

صلة الآية بما قبلها:

لم يؤمن أهل الكتاب بالقرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، وقالوا فيه - فيما قالوا - : إنه سحر مفترى، وجاء الردُّ عليهم من الله تعالى يأمر رسوله أن يقول لهم: أنا لستُ بأولِ رسولٍ يستنكرُ الكافرون رسالته، ولا أستطيع أن أقول على الله ما لم يقل، وما أنا إلاّ متبعٌ ما يوحيه الله إليّ، ومهمتي هي الإنذار المبين ليس إلاّ.. ثم جاءت الآية التي نتحدث فيها، مُقيمةً الدليل العقلي على العقلاء من أهل الكتاب على خطأ موقفهم من القرآن الكريم: فقد أخبرت الكتب السماوية المتقدمة بمثل ما أخبر به القرآن.

التفسير:

أقام الله تعالى الحجة بعد الحجة، على أن هذا القرآن هو من كلام الله عز وجل، أنزله على رسوله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فلم يأت الرسول به ولا بشيء منه من عند نفسه، وأنه ﷺ رسول كسائر الرسل الذين أرسلهم الله لهداية الناس. ولم يكن رسول الله محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه بدعاً من الرسل، فقد أرسل الله قبله كثيراً من الأنبياء والرسل، وجاؤوا بعقيدة لا تختلف عما جاء به رسول الله محمد ﷺ. وكان بنو إسرائيل يعرفون كثيراً من أنبياء الرسل.

نتأمل بالآية الكريمة، فراها قد ابتدأت بهذا الاستفهام التقريري الذي فيه توبيخ لمن لا يؤمن بهذا القرآن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾. إنه خطاب للعقلاء من أهل الكتاب لعلهم يثوبون إلى رُشدِهم، ويقنعون عن عنادهم وَلَدَدِهِمْ واستكبارهم، ويؤمنون بأنَّ محمداً ﷺ رسولٌ من رب العالمين، وأنَّ القرآن كلام الله، وقد جاء بأحكام تُشبه ما في التوراة الصحيحة من التوحيد والوعد والوعيد والمعاني الموافقة لما جاء به القرآن.

ونقف هنا أمام الشك الافتراضي في الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾؛ إذ الرسول الكريم يؤمن تمام الإيمان أنَّ هذا القرآن من عند الله، لم يخالجه في هذا أي شك أو ريب، وقد أمره سبحانه - أن يقول هذا لأهل الكتاب لينظرهم مناظرة عقلية مفترضة، وهو لون من ألوان استدراجهم؛ لعلهم يؤمنون بالله الإيمان الحق. وأسلوب الشك الافتراضي قد استعمله القرآن، من ذلك ما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ أن يقول في مناظرته للمشركين: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

ومن هذا الأسلوب أيضاً ما أمر الله به رسوله أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وهذا الأسلوب من الشك الافتراضي مع أهل الكتاب، قد يزعزع العناد واللَّدَدَ والخصومة فيهم، ويثير الخوف في نفوسهم؛ إذ القرآن قد يكون كلام الله، فإذا تحقق هذا، فماذا يكون مصيرُ المكذبين به في موقف الحساب الذي يؤمن به

أهل الكتاب؟ ألم يكن من الخير لهم أن يخطوا في موقفهم من القرآن؛ لئلا يحل بهم عذاب الجحيم؟.

وزاد من إقامة الحجة عليهم أن هذا القرآن الذي تكذبونه قد شهد بأنه مُنَزَّلٌ من الله عَلمٌ كبير من أعلام بني إسرائيل وحبْرٌ من أحبارهم فأسرع إلى الإيذان به من غير تردد ولا تباطؤ، وأما أنتم، فقد ظللتُم على استكباركم وعنادكم فلم تؤمنوا بهذا القرآن! فمن أضلُّ ممن هذه صفته؟!.

لقد سارع الشاهد - وهو عبد الله بن سلام - إلى الإيذان بالقرآن وبرسول الله ﷺ. وتفهّم هذه المسارعة من القرآن نفسه حين استعمل لفظ (فآمن)؛ فإنَّ حرفَ الفاء يدل على أنَّ المشارَ إليه - وهو الشاهد - سارع إلى الإيذان بالقرآن، بعد أن علم أنه من جنس وحي الله إلى رسله. فلا عذر لكم - يا أهل الكتاب - إن لم تؤمنوا بعد أن آمن الشاهد الذي هو حبر كبير من أحباركم.

وتقوم الآية بتذكيرهم بموقف من مواقف يوم الحساب فتقول لهم: ما تظنون أن الله فاعل بكم إذا كان هذا القرآن الذي جاءكم به رسول الله ﷺ هو من عند الله، قد أنزله ليبلغ رسالة الله إلى الناس، ولكنكم كفرتم به وكذبتُم، فكيف يكون مصيركم يوم الحساب، وأنتم تؤمنون بوجود بعث وحساب يوم القيامة؟!.

أما خاتمة الآية، فكانت بهذا التعليل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهو تذييل - في الوقت نفسه - أي: ضللتُم ضلالاً بعيداً، وقد صرتم باستكباركم ظالمين لأنفسكم، والله تعالى لا يوفق إلى سلوك صراطه المستقيم من ظلم نفسه

حين أسخط عليه الله، واستحبَّ العمى على الهدى. ومثلُ هذه الآية قول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

\*\*\*

## من أحكام الظهار

قال الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ۗ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة ابنة ثعلبة ويخفي علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك قال: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وفي رواية عنها رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه

الأصوات، إنَّ خولة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، فيخفى عليَّ أحياناً بعض ما تقول، قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوِرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].<sup>(١)</sup>

وعن خويلة بنت ثعلبة رضي الله عنها - وكانت عند أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت رضي الله عنه - قالت: دخل عليَّ ذات يوم فكلمني بشيء وهو فيه كالضَّجِر، فرددته؛ فغضب، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، ثم خرج، فجلس في نادي قومه، ثم رجع فأرادني على نفسي، فامتنعتُ منه، فشادني فشاددته، فغلبته بما تغلبُ به المرأة الرجلَ الضعيف، فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تصل إليها حتى يحكم الله فيَّ وفيك حكمه، ثم أتيتُ النبيَّ ﷺ أشكو ما لقيتُ منه، فقال رسول الله ﷺ: «زوجك وابنُ عمِّك، فاتقي الله وأحسني صحبته». قالت: فما برحت حتى نزل القرآن:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...﴾ [المجادلة: ١] حتى انتهى إلى الكفَّارة، ثم قال النبي ﷺ: «مُريه فليعتق رقبة»، قلت: والله يا نبيَّ الله، ما عنده من رقبة يعتقها، قال: «مريه فليصم شهرين متتابعين»، قلت: يا رسول الله، شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكيناً»،

(١) الاستيعاب في بيان الأسباب وذكر مؤلفا الكتاب أن الحديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، ووصله الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى، وابن ماجه، وعبد بن حميد في مسنده، وأبو يعلى في مسنده، والدارمي في (الرد على بشر المريسي)، ورواه غير هؤلاء كثير.

ينظر: الاستيعاب في بيان الأسباب ٣/ ٣٢٨.



قلت: يا نبيَّ الله، ما عنده ما يُطعم، قال: «سنعينه بعرق من تمر» - والعرق: مِكتل يسع ثلاثين صاعاً - قلت: وأنا أعيُّنه بعرق آخر، قال: «قد أحسنت فليصدق به»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الاستيعاب في بيان الأسباب ٣/ ٣٢٩، قال مؤلفنا الكتاب، أخرجه أحمد في المسند وأبو داؤد رقم ٢٢١٤ و٢٢١٥، وابن حبان في صحيحه ١٠/ ١٠٨، ١٠٧، رقم ٤٢٧٩، وابن الجارود في المنتقى ٣/ ٦٥-٦٧ رقم ٧٤٦، ورواه غير هؤلاء كثير.

## خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها

اِخْتُلِفَ بِاسْمِ أَبِيهَا، فَقِيلَ: خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ، وَقِيلَ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَقِيلَ: بِنْتُ حَكِيمٍ، وَقِيلَ: غَيْرَ ذَلِكَ، وَهِيَ تَنْتَمِي إِلَى بَيْتِ كَرِيمٍ هُوَ بَيْتُ (عَمْرُو ابْنِ عَوْفٍ) مِنْ سَادَةِ يَثْرِبَ، عُرِفَ بِالشَّهَامَةِ وَالضِّيَافَةِ وَالْفَضْلِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ كَثِيرًا مَا يَنْزِلُونَ بِهَذَا الْبَيْتِ أَوَّلَ قَدُومِهِمْ إِلَيْهَا.

أما زوجها، فهو أوس بن الصامت بن قيس الخزرجي الأنصاري، وهو أخو الصحابي عبادة بن الصامت، وأحد أبناء عمومة زوجته خولة، وقد شهد بدرًا وأُحُدًا وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ.

ولما تقدّم بأوس العمر، وصار شيخاً كبيراً تغيّر وضعه فصار حادّ الطبع، سريع الغضب، عصبياً المزاج، وهذا حال كثير من كبار السن، فيصير كثير الضجر، لكنّ أوساً كان - في الوقت نفسه - سريع الفئته، فما هي إلاّ دقائق حتى يذهب عنه الغضب ويعود إلى ما كان عليه.

خرج أوس من داره، ثم عاد إليها - وكان ضجراً - فكلم زوجته بشيء، فلم يرق ذلك الكلام لها فردّته، فغضب عليها وقال لها في سورة الغضب: أنتِ عليّ كظهر أمي، وكان هذا الكلام يعني طلاقها، استمرّاراً لما كانت عليه الجاهلية. وبعد أن أطلق كلمته هذه خرج من داره فجلس في نادي قومه، ثم عاد إلى داره، وطلب من زوجته ما يريده الرجل من امرأته فامتنعت منه قائلة له: كلاّ والذي

نفسي بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا.

وحاول أوس أن يُرغمها على ما يريد فامتنعت، وحاول أن يجبرها على ذلك فوثبها - وكانت أصغر منه سنًا - فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقته عنها، ولم تلبث أن خرجت إلى بعض جاراتها فاستعارت منها ثياباً، وجاءت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، وقصّت عليه ما لقيت من أوس!

ويسمع رسول الله ﷺ إلى ما تتحدث به خولة وهو الرؤوف الرحيم، فيطلب منها أن تتقي الله في أوس، فهو ابن عمك أولاً، وهو شيخ كبير بعد ذلك. وظلت خولة تجادل رسول الله ﷺ في أمرها قائلة له: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم أشكو إليك.

وبينما كان الحديث يدور بينها وبين رسول الله ﷺ هكذا، وإذا بأمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام، ينزل على رسول الله ﷺ بآيات، يبطل بها ما تعارفت عليه الجاهلية في أمر الظهار، وأوجد حكماً هو مخرج لمن يريد أن يعود إلى زوجه التي ظاهر منها، فقال تعالى:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ ۝٢ ۝٣ ﴾

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَمُ تَوْعُظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَتَمَاسًّا ۖ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ  
اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

وما إن نزلت هذه الآيات الكريهات حتى قال رسول الله ﷺ لخولة:  
«مُريه فليُعتق رقبة». وتنظر خولة فيما قاله رسول الله وهي تعلم أن زوجها لا  
يملك عتق رقبة فتقول له: والله يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. فيقول لها:  
«فليصم شهرين متتابعين». وتتأمل الضعف الذي أصاب زوجها فلا يقدر  
على الصوم فتقول: والله إنه لشيخ كبير ما به من طاقة، فيقول رسول الله:  
«فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر». لقد كانت خولة تعلم أن زوجها أوساً  
لا يملك ذلك، فتقول للرسول الكريم: لا يملك أوس ذلك! ولم يترك  
الرسول الرحيم هذه المشكلة، فأوجد الحلَّ قائلاً لها: «فإننا سنعيّنه بعرقٍ من  
تمر - أو قال بعِذْقٍ من تمر-» فقالت خولة: وأنا سأعيّنه بعرقٍ آخر، فقال لها  
رسول الله: «قد أصبتِ وأحسنْتِ فاذهبي فتصدقِي به عنه»، ثم استوصي بآبن  
عمك خيراً. وفعلت خولة ما أمرها به رسول الله ﷺ، وعادت الحياة الطبيعية  
بينهما، وكان أوس أوّل من ظاهر من المسلمين في المدينة، فلم يظهر فيها أحد  
قبله.

وَيَرُوعُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَا رَأَتْ وَمَا سَمِعَتْ فَتَقُولُ:

«تبارك الذي وسع سمعُه كلَّ شيء! إني لأسمع كلام خولة ابنة ثعلبة،  
ويخفى عليّ بعضُه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ... فما برحت حتى نزل  
جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾

ومنذ أن نزلت هذه الآيات الكرييات، صار لخولة مكانة لدى الصحابة والصحابيات أكثر من قبل، وكيف لا تكون لها تلك المكانة في قلوبهم، وقد سمع الله قولها من فوق سبع سموات، وأنزل فيها آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار، أبطل الله فيها حكماً من أحكام الجاهلية، وجعل لمن يظاهر من زوجه مخرجاً.

ويتنقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ويتولى الخلافة من بعده أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ويحدث موقف من المواقف مع أمير المؤمنين عمر يُرينا مكانة خولة لدى عمر بن الخطاب.

روى ابن عبد البر عن عمر بن الخطاب (أنه خرج ومعه الناس، فمرَّ بعجوز فاستوقفته، فوقف، فجعل يُحدثها وتحديثه؛ فقال له رجل، يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز! فقال: ويلك! تدري مَنْ هي؟ هذه امرأة، سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...﴾، والله لو أنها وقفت إلى

---

(١) بُعث رسول الله ﷺ في مجتمعٍ بعدُ الظهار طلاقاً، فكان الرجل إذا قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي عدواً ذلك طلاقاً. وظل هذا الحكم هكذا في العهد المكي كله، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وصارت الأحكام الفقهية تنزل عليه - ومنها مسألة الظهار هذه - فلم يجعل الله هذا الكلام طلاقاً، بل جعله يميناً، وجعل فيه الكفارة: وهي عتق رقبة، فإن لم يجد أو لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً. وتبدو روعة هذا الحكم في أنّ زوجة الرجل لا تكون أمةً بمجرد قوله لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي.

الليل ما فارقتها إلا للصلاة ثم أَرَجِعْ إليها<sup>(١)</sup>.

وعن قتادة قال: خرج عمر بن الخطاب من المسجد ومعه الجارود العبيدي، فإذا بامرأة برزت على ظهر الطريق؛ فسَلَّمَ عليها عمر؛ فردَّت عليه السلام وقالت: هيهات يا عمر، عهدتُك وأنت تُسَمِّي عُميراً في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد، قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي عليه الفوت.

فقال الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر: دعها، أما تعرفُها؟! فهذه خولة... قد سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فعمر والله أحقُّ أن يسمع لها<sup>(٢)</sup>.

وكانت رضي الله عنها تقول: «فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ صَدْرُ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ»<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ٣٩٠.

(٢) الاستيعاب ٤/ ٣٩٠-٣٩١.

(٣) الاستيعاب ٤/ ٣٩١.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ مِنْكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ۖ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

التفسير:

تتحدث الآيات الكريبات في أمر (خولة بنت ثعلبة) وزوجها (أوس بن الصامت) فقد وقع شجارٌ بينهما، فقال لها أوس - وهو في سورة الغضب -: أنت عليّ كظهر أمي، وكانت هذه الجملة تعني إيقاع الطلاق البات بين الزوجين الذي لا رجعة فيه؛ سيراً على ما كانت عليه الجاهلية، وقيل: إن الرجل في الجاهلية كان إذا ظاهر من زوجته، تصير زوجته معلقةً: لا هي بزوجةٍ تعيش كما تعيش الزوجات، ولا هي بمعلقةٍ لتشقَّ طريقها في الحياة! هكذا لاقت المرأة في العصر الجاهلي من عنتِ الرجال وظلمهم وافتئاتهم على زوجاتهم!

سمعتُ خولة هذا الكلام، ووقفت مذهولة يعتصرها الألم، بل صارت تتقلبُ على جمرِ الغضى وهي تقول في نفسها: أبعَدَ تلك السنين بحُلُوها ومُرَّها يصير الانفصال بيني وبين زوجي؟! ولم تجد من يُغيثها ليخلصها مما وقع بينها

وبين زوجها إلا رسول الله ﷺ فهو الرؤوف الرحيم.

وتدخل خولة إلى واحدة من جيرانها وتستعير منها ثياباً وتذهب إلى رسول الله ﷺ تقصُّ عليه ما كان من أمر زوجها معها؛ لعل رسول الله يجد لها حلاً لما حدث فتقول له - فيما تقول -:

«يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهرَ مني، اللهم إني أشكو إليك»<sup>(١)</sup>.

واستمرت في جدها مع رسول الله ﷺ، والرسول الكريم يُصغي إلى حديثها ويقول لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه! وقد قال لها النبي ﷺ هذا؛ لأنه عليه السلام لم يؤمر - آنئذ - بشيء من أمر الظهار.

وتبدو خولةً صاحبةً شخصيةً في محاورتها مع الرسول الكريم، فقد تحدثت معه في جرأة وشجاعة يعلوها الأدب الجم والحُلق الرفيع، فقالت له: إن لي من زوجي أولاداً صغاراً: إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا؛ فيقول لها:

ما أراك إلا قد حرمت عليه!

لقد بلغت الحرجة مبلغها من خولة، وانقطع أملها إلا من الله! وبينما كان الحوار دائراً بينهما، وإذ بأمين السماء سيدنا جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بآيات يرفع بها كربها، ويدفع الحرج عنها وعن مثيلاتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ١٩٤.



﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾.

ابتدأت الآية الأولى بقوله تعالى:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

وأول لفظ في الآية لفظ (قد) التي تُفيد التحقيق، وتُفيد التوقع أيضاً. أما التحقيق، فهو يشير إلى أن الله تعالى سمع ما قالته خولة، وسمع حوارها مع رسول الله ﷺ.

وأما التوقع، فإنه يشير إلى أن خولة تتوقع نزول الوحي على رسول الله ﷺ لحلّ مشكلتها؛ إذ لم تجد عند الرسول الكريم الحل، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بشيء في أمر الظهار، فكانت تتوقع الحلّ من الله تعالى.

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾. إن الله عز وجل سميع بصير، سمع ما دار بينها وبين رسول الله في أمر زوجها (أوس بن الصامت) الذي ظاهر منها، وسمع شكواها وما انطوت عليه نفسها من الهمّ والغم، وسمع تحاورها مع الرسول الكريم، وقد ذكرت مع الرسول هنا لتشريفها بهذا الخطاب. وليس المراد بالسماع هنا مجرد السماع، بل المراد: استجابته عز وجل لها بعد السماع بحل مشكلتها بإيجاد الكفارة، وهذا التحاور الذي سمعه الله تعالى يفيد الاعتناء منه سبحانه بهذا التحاور الذي حدث.

وتقف هنا أمام اللفظ القرآني: (والله يسمع تحاوركما)، فجاء الفعل المضارع (يسمع) لاستحضار صورة التحوار في ذهن السامع لبيان عظمة الله تعالى.

وجاء تذييل الآية: (إن الله سميع بصير) ليكون كالتعليل على ما سبق، فهو سبحانه يسمع ويبصر على أكمل وجه لا يخفى عليه شيء من ذلك.

و(السميع البصير) اسمان من أسماء الله الحسنى. وفي هذه الآية ورد لفظ الجلالة (الله) أربع مرات؛ ليملاً قلوب المؤمنين خشية من الله، وليربي قلوبهم على تعظيم الخالق جلّ جلاله.

ونظر في الآية نفسها، فنرى مادة (السمع) قد وردت ثلاث مرات في الآية: (قد سمع الله... والله يسمع... إن الله سميع بصير).

أما المراد من سمع الله في المجادلة، فهو لازمه: أي استجابة الله لها.

تروي السيدة عائشة فتقول: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليّ كلامها؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾<sup>(١)</sup>.

وينتقل القرآن بعد ذلك إلى حكم مَنْ ظَهَرَ مِنْ زَوْجَتِهِ فيقول:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه النسائي في كتاب الطلاق (باب: الظهار)، حديث ٣٤٩٠، ص ٤٨٥، وابن ماجه في

المقدمة، حديث ١٨٨، ص ٢٨.

أصل الظهار مشتق من الظهر، فكان الرجل إذا ظاهر من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي: أي صرت علي محرمة كتحریم أمي علي. ويُعدُّ هذا الكلام طلاقاً آنذاك.

ونجد اللفظ القرآني (منكم) ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ﴾ فيه توبيخ لمن يظاهر؛ لأنَّ الخطاب في الآية للمسلمين، وقد كان الظهار من أيان الجاهلية، فكيف يسلك المسلم سلوك أهل الجاهلية؟!

وأما حرف (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، فإنها بيانية، تفيد أنها تشريع عام وليس خاصاً بخولة التي نزلت الآيات بشأنها.

والمعنى: أن الذين يظاهرون من نسائهم ليس لكلامهم معنى، فهم مخطئون فيما يقولون؛ لأنَّ الزوجات زوجات، والأمهات أمهات، وليست الزوجات بأمهات، وليست أمهاتهم في حقيقة الأمر إلا اللاتي ولدنهم ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

فليس الكلام الذي يتحدث به هؤلاء في أمر الظهار إلا منكرًا من القول

---

(١) حُصرت الأمهات بالوالدات هنا، وقد نصَّ القرآن على وجود أمهات من غير الوالدات كأزواج رسول الله رضي الله عنهن قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُ﴾ [الأحزاب: ٦]، وكذلك الأمهات المرضعات المحرّمات تحريمًا مؤبّدًا قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

شرعاً وعقلاً وواقعاً. وفوق ذلك، فهو كذبٌ وباطلٌ وزورٌ وكلامٌ فاحشٌ؛ إذ الزوجةُ لا تكونُ أمًّا للزوج بهذا الكلام، فعلاقة الولدِ بأُمِّه شيءٌ وعلاقته بزوجته شيءٌ آخر. وفي هذا توبيخٌ من ربِّ العالمين لمن يسلك هذا المسلك القبيح.

وبعد هذا الترهيب من أمر الظهار، يأتي فضل الله على من أخطأ الطريق وقال هذه الكلمة الشائنة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ لكل من تاب وأناب وأقبح عن هذه الكلمة التي يبغضها الله.

وبعد ذلك يأتي تيسيرُ الله لما شدَّدته الجاهلية على نفسها، فجعل الله فيه كفارةً ولم يجعله طلاقاً:

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾.

هذا هو حكم من ندم ويندم على ما فعل بذكر هذه الكلمة، ويريد أن يرجع إلى زوجته، قاصداً تحليل ما حرَّمه الرجل على نفسه بالظهار لنقض ما قال في التحريم، فعليه أن يُقوِّمَ بعنق رقبته من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر: فلا يجوز أن يجامع زوجته التي ظاهر منها إلاَّ بعد البدء بالتكفير. والمراد بالرقبة (فتحرير رقبته) أيَّ تحرير واحد من العبيد، وجاء اللفظ من تسمية الكل باسم الجزء. وجاءت الرقبة هنا مطلقة غير مقيدة بالإيمان. وأما كفارة القتل، فهي مقيدةٌ بالإيمان. وقد كثرت آيات القرآن وأحاديثُ رسول الله ﷺ في الدعوة إلى عتق الرقاب؛ من أجل تحرير الناس من العبودية.

وقد يسأل سائل: لماذا قال القرآن هنا (فمن لم يجد) في أمر تحرير الرقبة، ولم

يقول: (فمن لم يستطع) كما جاء بعد ذلك في أمر الصيام؟

والجواب: إن الله تعالى عليم خبير، يعلم أن سيأتي يوم يُحرَّرُ فيه العبيد، فلا يجد من وقعت عليه الكفارة عبداً يشتريه ليُعتقه، أو أمةً ليعتقها. وقد تحقق هذا لما اتبع الإسلام خطواتٍ في تحرير العبيد، وأعطى الإنسان حرّيته وكرامته، فلا يكون الإنسان عبداً إلا لله.

إن هذه الكفارة هي لون من الألوان التي يعظ الله بها عباده، فهو الخبير بما تقولونه وما تفعلونه، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

﴿ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وقد يرتكب الإنسان هذه المخالفة فيظاهر من زوجته، ويريد أن يكفر بعقوبته ربة فلا يستطيع ذلك: إما لأنه لا يملك ثمن ربةٍ يُعتقها، وإما لعدم وجود ربة أصلاً فماذا يفعل؟

وهنا يأتي يسرُ الشريعة ورفعُ الحرج فيأتي البديل:

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ۗ﴾

هذا هو البديل من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر. وهذا البديل في كفارة الظهار مثل كفارة من جامع زوجته في نهار رمضان، ومثل كفارة القتل الخطأ.

أما من لم يستطع ذلك أيضاً، فيصير البديل أن يُطعم ستين مسكيناً ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾

وهكذا نرى العليم الخبير قد راعى التشديد في الكفارة من أجل الحفاظ على

العلاقة الزوجية.

كل ذلك من أجل أن يزداد إيمانكم بالله، فإن الكفارة تقوي إيمان صاحبها  
لذلك جاء التعبير القرآني:

﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وأحكام الله التي مرَّ ذكرها هي حدود الله لا يجوز للمسلم أن يتعدَّها أو  
يتتهكها، وأما الكافرون، فلهم عذاب أليم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤].

\*\*\*

## حول ولاية المحاربين من أعداء الله

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْنِعَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها!» فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة؛ قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخرجي الكتاب أو لنلقين الشيا؛ فأخرجته من عقاصها؛ فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟» قال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يجمون أهلهم؛ فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يجمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً، عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام؛

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»؛ فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فأنزل الله السورة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١] <sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ)، حديث ٤٢٧٤، ص ٧٢٣، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر رضي الله عنهم)، حديث ٦٤٠١، ص ١٠٩٨.



## حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه

هو حاطب بن أبي بلتعة - واسمُ أبي بلتعة عمرو بن عمير - وكنيته: أبو عبدالله، وقيل: أبو محمد، وأصله من أهل اليمن، وقد كان حليف بني أسد بن عبد العزى، ويقال: حالفَ الزبيرَ بعد ذلك. وقد كان ممن انصوى تحت لواء هذا الدين بمكة، وهاجر إلى المدينة المنورة لما دعا رسول الله ﷺ إلى الهجرة إليها.

ولما وقعت (غزوة بدر) كان حاطب ممن اشترك فيها، فصال وجال في القتال، وأبلى بلاءً حسناً، وكان واحداً من المعروفين بالرمي، وكذلك اشترك في كل غزوة غزاها رسول الله ﷺ. أما (غزوة بدر) - وهي الغزوة الأولى التي غزاها رسول الله ﷺ - فكان لكل من اشترك فيها منزلة رفيعة في الإسلام لا تشبهها منازل أخرى، ويكفي أن رسول الله ﷺ نصَّ عليهم أنهم من أهل الجنة، يدل على ذلك أن عبداً لحاطب شكاه حاطباً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ليدخلنَّ حاطبُ النار؛ فقال رسول الله ﷺ:

«كذبت، لا يدخلها؛ فإنه شهد بديراً والحديبية»<sup>(١)</sup>.

ولقد وقع حاطب بخطأ كبير في حياته يتمثل بما يأتي: لما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، وكان ذلك في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، بعد أن نقض

---

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: من فضائل حاطب بن أبي بلتعة وأهل بدر)،

حديث ٦٤٠٣، ص ١٠٩٩.

المشركون عهد صلح الحديبية، فنجد الرسول الكريم كان حريصاً على كتمان سير الجيش بعد أن تجهز الرسول لغزوهم، وسأل الله تعالى أن يُعمِّي الأخبار عن قريش؛ لأنه أراد أن يباغت المشركين ليَجبرها على الاستسلام من غير إراقة الدماء، وقد أخبر الرسول الكريم جماعةً من الصحابة بما عزم عليه في أمر فتح مكة - وكان منهم حاطب - ولكنه زلَّ زلةً تُعدُّ في أعراف الحروب (الخيانة العظمى)؛ لأنه أفشى سراً من الأسرار الخطيرة لما عزم عليه رسول الله ﷺ، وقد غفر الله زلته - فيما بعد - وقبل توبته واعتذاره. فقد كتب رسالة إلى المشركين في مكة، وأعطها إلى امرأة لتوصلها لهم يخبرهم فيها بما عزم عليه رسول الله في ذلك. جاء في رسالته:

«إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ، يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لِمَا وَعَدَهُ»<sup>(١)</sup>.

وانطلقت المرأة تَحْتُ السَّيْرِ لتوصل الرسالة للمشركين.

وقد أعلم الله رسوله محمداً ﷺ بذلك، فأرسل النبي علياً بن أبي طالب، والزيبر بن العوام والمقداد بن الأسود؛ فأخذوا من المرأة الرسالة عند منطقة تدعى (روضة خاخ)، وعادوا بها إلى رسول الله ﷺ. وقد أحضر رسول الله حاطباً وسأله: «يا حاطب، ما هذا؟».

فاعتذر حاطب عن ذلك، ذاكراً أنه مُلصِّقٌ بقريش وليس من أنفسها، وأنَّ

(١) مجموعة الوثائق السياسية جمعها: محمد حميد الله ص ٨٧، الطبعة الثامنة ١٤٣٠-٢٠٠٩، دار النفائس، بيروت.

المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحبَّ أن يتخذَ له يداً يحمي بها أهله وقرابته في مكة، وأنه لم يفعل ذلك كفراً ولا ارتداداً عن الإسلام، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. وقد صدَّقه رسولُ الله فيما قال. ولما استأذن عمر بن الخطاب رسول الله أن يضربَ عنقه قال له الرسول الكريم: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلعَ على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْنِعَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وهكذا قبل رسول الله ﷺ اعتذاره، وغفر الله زلته، وشهد له بالإيمان بهذه الآية:

إن قضية حاطب لتدلنا دلالة واضحة على أنَّ الإنسان مهما بلغ من كمال القوة والرجولة والإيمان، فقد تتابه أوقاتٌ ولحظات يُصيبه فيها الضعف، فيزلُّ ويخطئ. وما أروع معالجة رسول الله ﷺ في هذا الموقف، فلم يعاقبه، ليعينه على الخروج من عشرته.

وتمضي الأيام، ويرسل رسول الله ﷺ حاطباً بكتاب إلى (المقوقس) صاحب الإسكندرية سنة ست من الهجرة جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمٌ تسلمٌ يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت، فعليك

إثم القبط. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»<sup>(١)</sup>.

ولما حضر حاطب بين يدي المقوقس قال له بعد أن جمع بطارفته: (إني سأكلمك بكلام أحبُّ أن تفهمه مني. قال: قلت: هلم. قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟ قلت: بلى، هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ فقلت له: فعيسى بن مريم، أتشهد أنه رسول الله؟ فما له أخذهُ قومه فأرادوا صلبه، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله، حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا! قال: أحسنت، أنت حكيمٌ جاء من عند حكيم)<sup>(٢)</sup>.

وقد أجاب المقوقس على كتاب النبي ﷺ بما يأتي:

(سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظنُّ أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رُسُلَكَ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسلام)<sup>(٣)</sup>.

وهناك رواية أخرى تقول: إنه أهدى لرسول الله ﷺ ثلاث جوارٍ، منهن أم

(١) مجموعة الوثائق السياسية جمعها محمد حميد الله ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/٣٧٧.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٣٦.

إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وأخرى وهبها رسول الله لأبي جهم بن حذيفة العدوي، وأخرى وهبها لحسان بن ثابت الأنصاري<sup>(١)</sup>.

ولقد عاش حاطب بعد وفاة رسول الله ﷺ عيشة كريمة بين الصحابة، وصارت الأمة الإسلامية تترضى عنه كلما ذُكر.

وفي خلافة أبي بكر الصديق أرسله إلى (المقوقس) فصالحهم. وظل هذا الصلح ساري المفعول، حتى نقض عمرو بن العاص الصلح لانتهاؤ مدته؛ فدخل مصر فاتحاً لها، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة عشرين من الهجرة.

وفي خلافة عمر يروي عبد الرحمن بن حاطب: ( أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مُزينة فانتحروها؛ فُرفِع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمر عمر كثير ابن الصلت أن يقطع أيديهم، ثم قال عمر: أراك تُجيعهم. ثم قال عمر: والله لأُغرِّمَنَّكَ غُرماً يشقُّ عليك، ثم قال للمزني: كم ثمن ناقتك؟ فقال المزني: قد كنتُ والله أَمْنَعُهَا من أربعمئة درهم؛ فقال عمر: أعطه ثمانمئة درهم)<sup>(٢)</sup>.

فالذي درأ الحدَّ عن رقيق حاطب: شُبهُهُ حاجتهم إلى الطعام؛ لذلك لم يقطع أيديهم عمر، وغرَّم سيدهم حاطباً ضعفاً ثمن ناقة الرجل. ونحن - أهل السنة والجماعة - لا نعتقد العصمة من الخطأ من أيِّ إنسان كان، سواء كان من

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٣٧٧.

(٢) الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي ٢/ ٢٩٤، حققه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الثانية ١٤١٧-١٩٩٧، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الصحابة أو من غيرهم، ولا تكون العصمة إلا لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن الله عز وجل.

انتقل حاطب إلى جوار ربه سنة ثلاثين من الهجرة في المدينة المنورة في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وصلى عليه عثمان، توفي وعمره خمس وستون سنة. روى عن رسول الله ﷺ قال:

«يُزَوَّجُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ ثَتْنَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً: سَبْعِينَ مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ، وَثَتْنَيْنِ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

وروى عن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَبَكَرَ وَدَنَا، كَانَتْ كَفَّارَةً إِلَى الْجُمُعَةِ الْآخَرَى»<sup>(٢)</sup>.

وروى عنه أيضاً:

«مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي، فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي، وَمَنْ مَاتَ بِأَحَدِ الْحَرَمَيْنِ، بُعِثَ مِنَ الْأَمْنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

---

(١) نسبه ابن حجر العسقلاني إلى ابن السكن. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/٤٣٣.

(٢) جامع المسانيد والسنن لابن كثير، حديث ١٧٩١، ٣/٦٧٥، وتاريخ مدينة دمشق ٣٤/٢٨٠.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيوان، حديث ٤١٥١، ٣/٤٨٨.

## حول سورة الممتحنة

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

هذه هي الآية الأولى من سورة الممتحنة - بفتح الحاء وقد تكسر -: فهي بفتح الحاء صفة للمرأة، وفي كسر الحاء صفة للسورة، وتسمى (سورة المودة)، و(سورة الامتحان)، و(سورة الممتحنة)<sup>(١)</sup>.

### ما تهدف إليه الآية:

ترسم الآية الكريمة جانباً من المنهج السياسي والاجتماعي والنفسي، مع تأديب قولي وعملي للمؤمنين بالله واليوم الآخر، وهي - في الوقت نفسه - تربية لمن آمن بالله، ليكونوا ربانيين، فلا يقول المسلم قولاً ولا يفعل فعلاً إلا على وفق ما يمليه عليه دينه الذي تلقاه من القرآن الكريم والسنة الصحيحة لرسول الله ﷺ: فلا يُفْضَلُ أولاده وعشيرته وقبيلته ومصالحته إلا على ما يقتضيه منهج الله عز وجل.

(١) ينظر: التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ٢١/٤٠٣، حقق هذا الجزء: الدكتور

فاضل بن صالح بن عبدالله الشهري، الطبعة الأولى، دار المصور العربي، مصر، الإسكندرية.

## صلة السورة بما قبلها:

ذُكرت في سورة الحشر موالة المنافقين لأهل الكتاب. وجاء في ابتداء (سورة الممتحنة): نَهَى اللهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ؛ لئلا يُشَبِّهُوا الْمُنَافِقِينَ فِي فِعْلِهِمْ.

## التفسير:

افتتحت الآية الكريمة بهذا النداء الرباني من فوق سبع سمواته إلى عبادة المؤمنين، يخاطبهم بما معناه: يا من عرفتموني، وآمنتم بي رباً وخالفاً ورازقاً، وصدقتم بمحمد الذي أرسلته لكم رحمة للعالمين، ويا من تشرفتم وعلت منزلتكم بما تحملونه من عقيدة الإيمان: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إنه أَلْطَفُ خُطَابِ بَأَكْرَمِ وَصْفٍ. ولماذا توجه الخطاب للذين آمنوا دون غيرهم من الناس؟

والجواب: إن الذين يستجيبون لكل أمر من أوامر الله، ولكل نهي من نواهيه هم المؤمنون الصادقون، ومن ذلك النهي: النهي عن موالة أعداء الله من الكافرين والمشركين والمنافقين: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾.

فهو نداء إلهي رباني إلى المؤمنين - لكل المؤمنين - بهذه الصفة التي يعتزُّ بها كل من تشرف بالانصاف بها: أن يلتزموا بمنهجه عز وجل الذي جاء به رسوله محمد ﷺ، ومن ذلك المنهج: حرمة موالة المشركين، ومصانعتهم، حتى لو كانت المصانعة ليست عن عقيدة وإيمان. والمراد بهذا الخطاب هم أهل مكة الذين كذبوا رسول الله، وأصرُّوا على كفرهم ولدِّهم وعنادهم، وقاموا باضطهاد وتعذيب



من آمن بالله حق الإيمان. والآية الكريمة - وإن نزلت في كفار مكة ومشركيها - هي خطاب للمؤمنين في كل زمان وفي كل مكان و(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

وقد يسأل سائل: لماذا سمّي العدو عدواً؟

والجواب: لِعَدُوهِ عَلَى مَنْ يَرِيدُ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ فَرْصَةٍ تَسْنَحُ لَهُ الْإِسَاءَةُ فِيهَا.

وورد لفظ (العدو) هنا عاماً وخاصاً: أما العموم، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾، وأما الخصوص، فالمراد به: الكفار الذين أخرجوا رسول الله ﷺ ومن آمن معه من مكة. ونجد في الآية الكريمة أن عداوة الله قُدمت على عداوة الذين آمنوا: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ لأن عداوة المشركين لله قبيحة قبيحة، وهي أشدُّ وأقبح من عداوتهم للذين آمنوا، وكيف لا تكون عداوتهم أشدَّ قبحاً وقد عبدوا غير خالقهم، وأشركوا مع الله آلهة أخرى، وكذبوا رسل الله، وألحقوا ما ألحقوا من الأذى والاضطهاد بمن آمن بالله، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«إني والجن والإنس في نبياً عظيم، أخلقُ ويُعبدُ غيري، وأرزقُ ويُشكرُ سواي... خيري إلى العباد نازل، وشُرُّهم إليَّ صاعد، أتحبُّ إليهم بالنعم، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي»<sup>(١)</sup>.

وأما الأولياء في الآية، فهو جمع وليّ: وهو خلاف العدو، وقد ورد في القرآن

(١) رواه البيهقي والحاكم عن معاذ بن جبل، والديلمي، وابن عساكر عن أبي الدرداء.

بمعنى الناصر، والصاحب، والقريب، وغير ذلك. ومن الأمور الاعتيادية أنَّ الولي يلقي إلى من يحبه ما يريد. ووضحت الآية موالاته الأعداء التي نُهوا عنها: فجاء النصُّ القرآني: ﴿ تَلْقُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾، والإلقاء: قذف ما في اليد، سواء كان على الأرض، أم في الفضاء، واستُعير لإلقاء الشيء من غير تدبُّر في موقعه: أي أنكم تعطونهم مودتكم من غير تأمل، ولو تأملتم لما فعلتم الذي فعلتم؛ لأنَّ إلقاء المودة لأعداء الله وأعدائكم، يُدخل السرورَ في قلوبهم... فهو تحذير من الله أن يعامل المؤمنون أعداء الله وأعداء المؤمنين معاملة الأحابيب؛ بأن يُظهروا لهم المحبة والمودة؛ حين ينقلون أخبارَ رسول الله ﷺ وسِرَّه بالمودة بينكم وبين المشركين، وقد فعلتم ذلك وأنتم تعلمون أنَّ هؤلاء كفروا بما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن وكل ما أوحاه الله عزَّ وجل إليه، فلا يجوز لكم أن تتخذوا أعداء الله وأعداءكم أولياء ونُصراء، وأنتم تعلمون ما تُكنُّ صدورهم من حقد أسود غطَّى على قلوبهم، وكان الواجب عليكم أن تقفوا منهم موقف البطولة: تجاهدونهم بكل ما تُطيقون، وتقطعون ما بينكم وبينهم من وشائج الصلة والمحبة.

ولما كان هذا الموضوع من الموضوعات المهمة في المنهاج الذي يجب أن يتخذه المسلم في حياته، نجد القرآن الحكيم قد أكَّدَ عليه في آيات عديدة، من ذلك قول الله تعالى:

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتًا ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله:

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل

عمران: ١١٨].

وقوله:

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧].

هكذا تترى آيات القرآن هنا وهناك، محذرة المؤمنين من هذا المنزلق الخطير، والشّر المستطير الذي يؤدي إلى الإخفاق في الدنيا والخسارة في الآخرة.

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم لم يقف موقفاً واحداً من الكافرين؛ ذلك لأن هؤلاء لم يعلنوا كلهم الحرب على الإسلام والمسلمين فإن قبيلة خزاعة مثلاً وهي قبيلة كافرة مشركة لم تعاد المسلمين من أجل دينهم، فلم يقف رسول الله ﷺ موقف عداوة منها، وقد صرح القرآن الحكيم بذلك فقال تعالى:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

فالمسألة إذن مسألة عداوة الكافرين والمشركين لمن آمن بالله واليوم الآخر، إنها العداوة الدينية؛ بغيّة صدّ الناس عن هذا الدين، فلم يرتكب المؤمنون ذنباً مع الكافرين حتى يعادوهم ذلك العداة الأثيم اللهم إلا إيمانهم بالله رب العالمين،

ومثل هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

ويأتي تعليل إخراج الرسول والذين آمنوا معه ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ

تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

فهذه هي علة إخراج الرسول والذين آمنوا معه. والأسلوب القرآني هذا فيه تهييج للذين آمنوا ليقفوا موقفاً حادياً من موالاته أعداء الله وأعداء المؤمنين.

ونجد التعبير القرآني هنا قدّم لفظ (الرسول)؛ وذلك لشرفه، ولأنه الأصل للمؤمنين: فهو المبلغ عن الله شريعته، ولولاه لظلل العالم يغط في ظلام ليل بهيم، وجاء الفعل (يخرجون) بصيغة المضارع وليس بصيغة الماضي (لإحضار صورة هذا العمل الفظيع في الذهن؛ زيادة في استفزاز الشعور)<sup>(١)</sup> أولاً، وليومئ إلى الشاء على المؤمنين، لبقائهم بعد ذلك، على الرغم من كثرة ما أصيبوا به من أذى واضطهاد.

ولقد أسند النصّ القرآني إخراج الرسول ومن آمن به إلى المشركين في مكة؛ لأنهم كانوا: إما راضين باضطهاد عباد الله المؤمنين، أو متواطئين على تنفيذه، وفي هذا تشنيع لعمل الكافرين والمشركين، فكيف يُلقى المؤمنُ المودة إليهم وقد فعلوا ما فعلوا بالعصبة المؤمنة؟!!

ثم يأتي الحُصُّ الشديد من الله تعالى على عباده المؤمنين، يأمرهم أن لا

(١) أولى ما قيل في آيات التنزيل تأليف شيخنا رشيد الخطيب الموصلية ٧ / ٣٥٤.

يتخذوا المشركين أولياء فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾. وفي الآية تهيبج للمؤمنين أيضاً، فكأن الله تعالى يقول: إذا كنتم مجاهدين بحق، وقد تركتم أموالكم وكل ما يعزُّ عليكم طالبين رضوانه تعالى، فلا توالوا عدوَّ الله وعدوكم، وقد فعلوا بكم ما فعلوا حين أخرجوا الرسول وإياكم من دياركم بسبب الإيمان الذين أكرمكم الله به. والمراد: المؤمنون من المهاجرين من مكة.

وإذا كان إلقاء المودة لأعداء الله وأعداء المؤمنين قد حرّمه الله، فكذلك الإسرار في تلك المودة: ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾. وهذا عتاب من رب العالمين على من يود الأعداء الذين أوغلوا بالكفر وإيذاء المؤمنين من أجل دينهم.

ويأتي تعجب الله ممن يتخذ الأعداء أولياء من إلقاء المودة إليهم والإسرار بها أيضاً، وهو تعالى أعلم بكل ما أخفيتم في صدوركم وما أعلنتم: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾.

إنه تعجب ممن يسلك هذا السلوك: أتظنون أن إسراركم للمشركين يخفى علينا ولا نطلع عليه محمداً رسولنا؟!!

وتختم الآية بتبيان سوء عاقبة المعرضين عن منهج الله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي من يفعل ذلك من اتخاذ الكافرين أولياء، وإلقاء المودة لهم، والإسرار إليهم، فقد ابتعد عن صراط الله المستقيم. والسواء: هو الوسط، وسواء السبيل: وسط الطريق.

وفي التعبير القرآني استعارة لأعمال الخير والصلاح والهدى. فجاء التشبيه

بالطريق المستقيم الذي يبلغ سالكه إلى مراده من غير عناء ولا تعب ولا نصب،  
ويهلك من ينحرف ويصيبه الردى.

وهكذا يكون من صدَّ عن طريق الإسلام وازورَّ عنه، قد ضل عن طريق  
الهدى والرشد<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: (وقد كانت طرق العرب: إما فيها رمال، وإما بين الجبال،  
وكانوا يختارون السير في وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جُرْفِ هارٍ من الرمال فيقع بهم،  
أو أن تقع عليهم صخرة من جبل، ولذلك كان من لا يسير في سواء السبيل يضلُّ؛ لأنه يسلك  
سبيلاً لا يؤدي به إلى غاية خير).

تفسير الشعراوي ٢٤/١٥١١٥، مطابع أخبار اليوم.

## صفحة مشرقة من السلام العالمي يحكيها القرآن

قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ  
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ  
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ  
﴿٩﴾﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

### ما قاله العلماء في أسباب النزول:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: أتتني أمي رابعة في عهد النبي ﷺ أصليها؟ قال: نعم.

قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي  
الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا  
يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ  
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قدمت قتيبة ابنة عبد العزى بن عبد أسعد من بني مالك بن حسل على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا ضباب وأقط وسمن وهي مشرقة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها، فسألت

عائشة النبي ﷺ؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ  
وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، فأمرها أن تقبل  
هديتها، وأن تدخلها بيتها<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) صحيح أسباب النزول تأليف: إبراهيم محمد العلي ص ٢١٥، وصحيح أسباب النزول  
للواحدي تأليف يوسف عمر مبيّض، ص ١١٠.



## أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما

أسماء بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية - واسم أبي بكر عبد الله بن عثمان.

أمها: قُتَيْلَة بنت عبد العُزَى العامرية.

ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وكان عمر أبيها لما ولدت نيفاً وعشرين سنة.

أختها لأبيها عائشة أم المؤمنين، وهي أسنُّ من عائشة ببضع عشرة سنة، وهي شقيقة عبد الله بن أبي بكر الصديق.

أسلمت بمكة بعد سبع عشرة نفساً، فهي وأبوها وجدُّها وابنها عبد الله وأختها عائشة من الصحابة، وتزوجت من الزبير بن العوام، وهاجرت إلى المدينة وهي حامل منه بولده عبد الله، فوضعت بقباء، وعانت مدةً من حياتها بشظف العيش، وقد قالت:

(تزوَّجني الزبير وما له في الأرض من مال، ولا مملوك ولا شيء غير ناضحٍ وغير فرسه، فكنت أعلفُ فرسه، وأستقي الماء، وأخرزُ غَرَبَهُ وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكُنَّ نسوة صِدُق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ. فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ، ومعه نفر من

الأنصار، فدعاني ثم قال: «إخ، إخ» ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرته - وكان أغيرَ الناس - فعرف رسول الله ﷺ أنني قد استحييتُ فمضى، فجئتُ الزبيرَ فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب، فاستحييتُ منه، وعرفتُ غيرتك فقال: والله لحملك النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسةَ الفرس، فكأنما أعتقني<sup>(١)</sup>.

تتحدث أسماء عن هجرة رسول الله وأبيها إلى المدينة، وكيف لطم خدها أبو جهل لطمه خرَّ منها قرطها، وبقيت ثابتة الجأش فقالت: أتى أبو جهل في نفر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك؟ قلت: لا أدري - والله - أين هو، فرفع أبو جهل يده، ولطم خدي لطمه خرَّ منها قرطي، ثم انصرفوا<sup>(٢)</sup>.

وتبيِّن حكمة أسماء لما جاء أبو قحافة - والد أبي بكر - بعد أن علم بهجرته وكان قد عميَ فقال: إنَّ هذا قد فجعكم بهاله ونفسه؛ فقالت له: كلاً قد ترك لنا خيراً كثيراً، فعمدتُ إلى أحجار فجعلتهن في كوة البيت، وغطتُ عليها بثوب، ثم أخذتُ بيده، ووضعتها على الثوب وقالت: هذا تركه لنا؛ فقال أبو قحافة: أما إذ ترك لكم هذا فنعم. والحقيقة أنَّ أبا بكر أخذ ماله كله من مكة - وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف. وقد فعلتُ هذا لأنها أرادت أن تُسكِّنَ الشيخَ بذلك<sup>(٣)</sup>.

ولقد سُمِّيتُ أسماءُ بذات النطاقين، سهاها بذلك رسول الله ﷺ، فقد

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: الغيرة)، حديث ٥٢٢٤ - ص ٩٣٣.

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٢.

جعلت للنبي ﷺ وأبيها أبي بكر سفرتين قبيل البدء بالهجرة، ونسيت أن تجعل للسفرتين حبلاً أو شبهه تشدُّ به فم السفرتين، فشقت نطاقها باثنين، فعلمت السفرتين بواحد، وانتطقت بالآخر، وقد قال لها رسول الله ﷺ: «أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة» فسميت ذات النطاقين<sup>(١)</sup>. وقد قالت هي رضي الله عنها:

(أنا والله ذاتُ النطاقين، أمّا أحدهما، فكنت أرفع به طعامَ رسول الله ﷺ وطعامَ أبي بكر من الدواب، وأمّا الآخر، فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه...)<sup>(٢)</sup>.

أمّا عن سخائها وجودها، فيتحدث ابن الزبير فيقول:

(ما رأيت امرأة قط أجودَ من عائشة وأسماء وجودهما مختلف: أمّا عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأمّا أسماء، فكانت لا تدخر شيئاً لعد)<sup>(٣)</sup>.

ولقد كانت رضي الله عنها تتصدق، وتساعد الفقراء، وتتخذ الأساليب الحكيمة في مساعدتهم كي لا يحدث بينها وبين زوجها خلاف، وهذا مثال على ذلك، تقول أسماء:

(جاءني رجل فقال: يا أمّ عبد الله، إني رجل فقير، أردتُ أن أبيعَ في ظل دارك. قالت: إني إن رخصتُ لك أباي ذلك الزبير، فتعال فاطلب إليّ والزبيرُ

---

(١) الاستيعاب ٤/ ٣٤٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: ذكر كذاب ثقيف ومبيرها)، حديث ٦٤٩٦، ص ١١١٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٢.

شاهد، فجاء فقال: يا أمَّ عبد الله، إني رجل فقير، أردتُ أن أبيع في ظل دارك؛  
فقلت: مالك بالمدينة إلاَّ داري؟ فقال لها الزبير: مالك أن تمنعي رجلاً فقيراً يبيع؟  
فكان يبيع إلى أن كسب، فبعتهُ الجارية؛ فدخل عليَّ الزبير، وثمنها في حجري؛  
فقال: هبِّها لي؛ فقلت: إني قد تصدقت بها<sup>(١)</sup>.

وكانت رضي الله عنها تمرُّ بالمرضة، فتعتق كل مملوك لها<sup>(٢)</sup>، وكانت تعاني  
من ألم في رأسها، فتضع يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفر الله أكثر<sup>(٣)</sup>.  
وقد عُرفت رضي الله عنها بالشجاعة، فشهدت مع زوجها الزبير حرب  
اليرموك.

وفي زمن سعيد بن العاص استعر اللصوص بالمدينة، فاتخذت لها خنجراً  
وضعته تحت رأسها - وهي عمياء - لتقوم ببيع بطنه إذا دخل عليها<sup>(٤)</sup>.

وإذا أراد أحد أن يعرف كيف تكون الحكمة والشجاعة مجتمعين لدى أحد  
من الناس، نظرنا في هذا الحوار الذي جرى بين عبد الله بن الزبير وأمه أسماء، بعد  
أن صعَّب الأمر على ابن الزبير، بعد محاصرة الحجاج بن يوسف الثقفي له، وقد  
انفضَّ عنه أكثر أصحابه، فخيَّره الحجاج بين ثلاث: بين أن يذهب في الأرض

---

(١) رواه مسلم في كتاب السلام (باب: جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعت في الطريق)، حديث  
٥٦٩٣، ص ٩٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٢، وكتاب الطبقات الكبير لابن سعد ١٠/ ٢٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٠.

(٤) كتاب الطبقات الكبير ١٠/ ٢٤١.

حيث شاء، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد، أو يقاتل حتى يقتل<sup>(١)</sup>.

وأمام هذا التخيير، يدخل ابن الزبير على أمه أسماء، ويدور بينهما الحوار

الآتي:

قال ابن الزبير:

(يا أمّاه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومنّ ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك: إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تُمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك ومن قُتل معك، وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا! القتل أحسن!

فقال: يا أمّاه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثّلوا بي ويصلبوني!

قالت: يا بُنيَّ إن الشاة [إذا ذُبِحَتْ] لا تتألم بالسُلخ؛ فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقَبَّلَ رأسها وقال: هذا رأيي والذي [قمتُ به داعياً] إلى يومي هذا، ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياة فيها...

فقالت أمّه: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً: إن تقدّمتني احتسبتُك، وإن ظفرت سررتُ بظفرك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله خيراً، فلا تدعي الدعاء لي. قالت: لا أدعه لك أبداً، فمن قُتل على باطل، فقد

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٤٩/٨.

قُتِلَتْ عَلَى حَقٍّ...<sup>(١)</sup>.

وظل ابن الزبير يقاتل حتى قُتِلَ، وأمر الحجاج بصلبه فُصِّلَ. وبعد ثلاثة أيام قدمت أمه أسماء وقالت للحجاج: أما أن لهذا الراكب أن ينزل؟ ويردُّ عليها الحجاج فيقول عن عبد الله: المنافق؟ قالت: والله ما كان منافقاً، ولقد كان صَوَّاماً قَوَّاماً. فيقول لها الحجاج: أُسَكِّتِي فَإِنَّكَ عَجُوزٌ قَدْ خَرَفْتِ. فتردُّ عليه قائلة له: ما خرفتُ منذ أن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُخْرَجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَابٌ وَمِيبِرٌ»، فأما الكذاب، فقد رأيناها - تعني المختار - وأما المبير، فأنت<sup>(٢)</sup>.

كانت رضي الله عنها صابرة على قتل ولدها عبد الله. وقد دخلت يوماً المسجد بعد أن صُلب ولدها عبد الله، فجاءها ابن عمر وقال لها: إِنَّ هَذِهِ الْجِثَّةُ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا الْأَرْوَاحُ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي؛ فَقَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُنِي، وَقَدْ أَهْدَى رَأْسُ يَحْيَى بْنِ زَكْرِيَّا إِلَى بَعْغِيٍّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ<sup>(٣)</sup>!؟

عاشت أسماء إلى أن ولى ابنها عبد الله الخلافة وقُتِلَ، وماتت بعده بأيام، وبلغت من العمر مائة سنة، ولم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل، وتوفيت بمكة في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وكانت آخر المهاجرات وفاة.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/٤٠١-٤٠٢، حققه واعدتني به: الدكتور عمر عبد السلام تدمري طبع سنة ١٤٣١-٢٠١٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) ينظر المعجم الكبير للطبراني حديث ٢٧٢، ١٠١/٢٤ بتحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، والإصابة لابن حجر ١٣/١٣١، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٩٤. والمبير: المهلك.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٢٩٤-٢٩٥.

روت عن رسول الله ﷺ ثمانية وخمسين حديثاً كما قال ابن حزم<sup>(١)</sup>.  
وذكر الذهبي أن مسندها ثمانية وخمسون حديثاً، اتفق لها البخاري ومسلم  
على ثلاثة عشر حديثاً، وانفرد البخاري بخمسة أحاديث، ومسلم بأربعة<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي روتها قالت:

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إن لي ضرّة، فهل عليّ جناح أن أتشبع من  
مال زوجي ما لم يُعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي  
زور»<sup>(٣)</sup>.

وروت عن رسول الله ﷺ:

«لا شيء أغير من الله»<sup>(٤)</sup>.

وروت عن رسول الله ﷺ:

«إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم»<sup>(٥)</sup>.

\*\*\*

---

(١) أسماء الصحابة الرواة ص ٧٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٢٩٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة (باب: النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يُعط)، حديث ٥٥٨٤، ص ٩٥١. ومعنى (كلابس ثوبي زور) أي أحاط به الزور من كل جانب، فهو يرتكب الزور من أجل إيذاء غيره.

(٤) رواه البخاري في كتاب النكاح (باب: الغيرة)، حديث ٥٢٢٢، ص ٩٣٣.

(٥) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته) حديث ٢٢٩٣، ص

قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ  
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ  
وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ  
﴿٩﴾﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

### صلة الآيتين بما قبلهما:

كانت الآيات في أول سورة المتحنة قد نعت عن اتخاذ الكفار أولياء: فلا  
نصرة بين المسلمين وهؤلاء ولا محبة. وليس كل الكفار موقوفهم واحد في محاربة  
المسلمين، فهناك منهم من لم يقف (حجر عثرة) أمام دعوة الإسلام، ولم يرفع  
السلاح ضدهم، فتوهم من توهم من المسلمين أن حكم الكفار كلهم واحد: من  
حاربنا ومن لم يحاربنا، فنزلت الآيات لتزيل اللبس عن هذا الفهم؛ فإن البرّ بهؤلاء  
والإحسان إليهم لا حرج فيه، وليس النهي إلا عن موالاته الذين كفروا من  
المحاربين.

### التفسير:

تتحدث هاتان الآيتان في صنفين اثنين من الناس:

الصنف الأول: ناس من الكافرين والمشركين وقفوا موقفاً مسالماً من  
المسلمين، فلم يقاتلوهم من أجل الدين الذي بُعث به رسول الله ﷺ من ربه، ولم  
يخرجوهم من ديارهم، ولم يُعرفوا بعدائهم للمسلمين.. فهؤلاء رخص الله تعالى  
في برّهم والعدل فيهم والإحسان إليهم.



الصنف الثاني: ناس من الكافرين والمشركين، وقفوا موقف عدا من الإسلام والمسلمين، فقاموا بقتال من آمن بالله واليوم الآخر، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم.. فهؤلاء هم الذين نهى الله عن مناصرتهم ومحبتهم.

وهكذا نجد الآيتين الكريمتين تضمنتا القاعدة التي يجب أن يسير على منهاجها المسلمون في كل زمان وفي كل مكان في مودة الناس وعداوتهم، وفي صلتههم ومقاطعتهم. وهذا المنهاج - بلغة العصر - يتعلق بالعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، فلا تكون المقاطعة والخصومة مع أية دولة كانت من الدول إلا في حالات خاصة هي حالات الخصومة والعدوان على المسلمين ودولتهم، وأما في الحالات الاعتيادية حين لا يكون عدوان، فالأصل أن تكون العلاقة بين المسلمين وغيرهم قائمة على السلم والعدل والإحسان؛ لأن الإسلام هو دين السلام، فليس من شريعته خصومة أحد إلا في الحالات التي مر ذكرها.

ونجد القرآن الكريم هنا قد استعمل لفظ (البر): ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾، وهذا اللفظ يجمع معاني الخير كلها. ولم يكتب القرآن بهذا، بل قال: ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾. ولفظ (قسط) من ألفاظ الأضداد، تطلق على العدل وعلى الجور، وأما (أقسط)، فيطلق على العدل وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين، وأما (القاسطون)، فيطلق على الظلم والجور، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

وكتطبيق عملي ما رواه الإمام مالك قال: إن رسول الله ﷺ كان يبعث

عبدالله بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود خيبر قال: فجمعوا له حلياً من حليّ نسائهم فقالوا: هذا لك وخَفَّفْ عنا وتجاوزْ في القسم؛ فقال عبدالله بن رواحة: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيَفَ عليكم. فأما ما عرضتم من الرِّشوة فإنها سُحِت، وإنا لا نأكلها فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض<sup>(١)</sup>.

وجاء تذييل الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، ليشير إلى وجوب إقامة العدل والتقيّد به في كل حكم من أحكام هذا الدين، والله عز وجل يحب مَنْ يسلك سبيل العدل في حياته، ومَنْ يُحِبُّه تعالى يُدخله جنته، وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي بيّن فيها رسول الله ﷺ مكانة العادلين يوم القيامة، من ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه:

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا»<sup>(٢)</sup>.

وقوله:

«إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَدْنَاهُمْ مِنِّي مَجْلِساً إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، وَأَبْعَدُهُ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ جَائِرٌ»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه الإمام مالك في كتابه (الموطأ) رواية يحيى بن يحيى الليثي، حديث ٢٠٥٠، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر)، حديث ٤٧٢١.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الأحكام (باب: ما جاء في الإمام العادل)، حديث ١٣٢٩، ص ٣٢٢.

وقوله:

«إن المقسطين في الدنيا على منابرٍ من لؤلؤٍ بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا»<sup>(١)</sup>.

والعدل الذي دعا إليه ديننا هو أساس الملك، ويشمل جوانب العدل كله: من العدل الاجتماعي، والعدل القانوني، والعدل الدولي... الخ.

ومما يرفع رأس كل مسلم: أن شريعتنا أمرت القضاة أن يُسووا بين الخصمين في كل شيء، حتى بالنظرة ونبرات الصوت...

ولقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين ما قالته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ أصلها؟ قال: نعم.

قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.

ولا يظنُّ أحد أن الآية الأولى قد دخلها النسخ، لا، إنها آية محكمة ليست بمنسوخة، وقد قرّرت حكماً واضحاً الدلالة في القرآن، وجاءت أحاديث رسول الله ﷺ شارحة هذا المعنى وداعيةً إليه، وخير دليل على هذا: ما كان من سنة رسول الله ﷺ، وما كان من سيرته أيضاً، فكان عليه الصلاة والسلام يستقبل وفود الكفار استقبالاً كريماً، وتحدثنا السيرة النبوية كيف استقبل رسول الله بنفسه كريمة وفد (بني تميم) الذي جاء يفاخره. ويستمتع الرسول الكريم لهم، ويأمر من يردُّ عليهم من المسلمين، وقد أسلموا، وأجازهم رسول الله بالجوائز. وهكذا

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، حديث ١٨٦١١، ١٠/٣٣٠٤.

الأمر في استقباله (وفد نجران) وغيرهما من الوفود.

ويتحدث شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية فيقول:

(وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: عُنِيَ بِذَلِكَ ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبرؤهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. إن الله عز وجل عمَّ بقوله: ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأنَّ بَرَّ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ مِمَّن بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ نَسَبٍ، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب - غير مُحَرَّم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح، وقد بين صحة ما قلنا في ذلك الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء<sup>(١)</sup>.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

أما الآية الثانية، فجاءت متحدثة في الذين وقفوا من المسلمين موقفَ عداة وقاتلوهم من أجل تمسكهم بهذا الدين، وقاموا بإخراجهم من أوطانهم، وظاهروا الأعداء وناصروهم وعاونوهم من أجل النيل من المسلمين.. فهنا يأتي النهي من رب العالمين عن برِّ هؤلاء وموالياتهم ونصرتهم؛ لأنَّ عداةهم كان بسبب الدين الذي جاءنا به رسول الله ﷺ من رب العالمين جل وعلا.

(١) تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٥ / ٦١١ - ٦١٢.

وبعد تبيان هذه القاعدة من المسالمين وغير المسالمين، يأتي تهديد الله تعالى على الذين ينصرون الأعداء من الذين قاتلوا المسلمين في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم أن يتولواهم ووصفهم الله هنا بأنهم ظالمون لأنفسهم فيستحقون العقاب على ذلك، وظالمون للمؤمنين أيضاً بموالاتهم للكافرين: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

### وأخيراً:

فإن هاتين الآيتين تفصح عن موقف الإسلام من الكفار والمشركين، فإنه لم يضق صدرًا بالأديان المخالفة له على مدار التاريخ: فيكرم المسالمين منهم، وينهى عن موالاة المحاربين. وتبدو روعة الإسلام في إعطاء المسالمين فوق حقوقهم كأن يتنازل المسلمون لهم عن شيء من حقوقهم اختياراً وكرماً، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾، فإن البرَّ يجمع معاني الخير، وهو منزلة فوق العدل.



## أحكام في المؤمنات المهاجرات

قال الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنَّ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا ۗ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَّا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَّا أَنفَقُوا ۗ وَأَنفَقُوا ۗ اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١].

ما قاله العلماء في أسباب النزول:

عن عروة بن الزبير: أنه سمع مروان والمِسُورَ بنَ مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما كاتب سهيل بن عمرو (أي شروط صلح الحديبية)، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحدٌ من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي

مُعِيْطٌ مِّنْ خَرَجٍ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ يَوْمئِذٍ - وَهِيَ عَاتِقٌ<sup>(١)</sup> - فَجَاءَ أَهْلَهَا يَسْأَلُوْنَ  
النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يُرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ<sup>ط</sup> اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَهُنَّ<sup>ط</sup> فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا  
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ جُلُوهُنَّ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ...﴾<sup>(٢)</sup> [المتحنة: ١٠].

\*\*\*

---

(١) العاتق: الجارية أول ما أدركت، أو هي التي لم تنزّوج

(٢) رواه البخاري في كتاب الشروط (باب: ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعات)،

حديث ٢٧١١-٢٧١٢، ص ٤٤٣.

## أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها

يقف الإنسان معجباً أمام إنسان يقذف الله في قلبه الإيمان، فتتحول حياته، وتنقلب من الضعف إلى القوة، ومن الشقاوة إلى السعادة التي يشعر بلذتها، فتتهون أمامه ما يلاقيه من معضلات وآلام. وليست هذه الظاهرة خاصة بالرجال وحدهم، بل تشمل النساء أيضاً. وفي دراستنا لسيرة الصحابيات، نجد منهن من وقفت كالجبل الأشم، رابطة الجأش أمام كل ما تلاقيه من مصائب وويلات، مؤمنة أن كل مصيبة تهون أمام المصيبة في الدين.

ومن النساء اللاتي ضربن أروع الأمثلة في حب الله ورسوله وحب الإسلام والمغامرة بالنفس فتاة عاتق<sup>(١)</sup> عرفت برجاحة عقلها، وحسن تدبيرها، وسرعة فهمها، وروعة تصرفها، إنها (أم كلثوم، بنت عقبة بن أبي معيط)، واسم أبي معيط: أبان.

نشأت في بيت يتصبب فيه الحقد على الإسلام والمسلمين، فكان أبوها (عقبة) ممن آذى رسول الله ﷺ أذى قبيحاً، ووقع أسيراً في غزوة بدر فقتله رسول الله ﷺ، وبسبب أذيته لرسول الله ﷺ أنزل الله فيه قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾  
يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٨].

(١) العاتق: الجارية الشابة أول ما أدركت، أو هي التي لم تتزوج.



أما أخواها: الوليدُ وعمارة، فكانا على دين الكفر والشرك آنذاك.

نظرت أم كلثوم إلى الجاهلية الجهلاء: بكفرها وضلالها وتيهها ومحاربتها

لرسول الله ﷺ الذي جاء بالهدى فساءها ذلك!..

في هذا البيت الذي عُرف بعدائه لهذا الدين نشأت وترعرعت (أم كلثوم)، لكنَّ عقلها الحصين، وفهمها السليم، ونظرها البعيد، هداها ذلك كله إلى الإسلام فأسلمت قديماً، فكانت من المؤمنات بنبوة سيدنا محمد ﷺ، لكنها لم تستطع أن تهجر إلا في سنة سبع من الهجرة.

ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وهي فتاة يافعة؟!!

لا، إن من تملك إيماناً عميقاً وهمّة عالية، تستطيع أن تفعل الكثير بعد هداية الله تعالى، فهاجرت - وحدها - من مكة إلى المدينة، على حين غفلة من أهلها مشياً على الأقدام، وهي أول قرشية مسلمة تركت أهلها، وخرجت مهاجرة إلى الله ورسوله، وكل من كتب الله له أداء حج بيته الحرام أو العمرة، وذهب لزيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله ﷺ، ونظر إلى تلك الصحراء برمالها الملتهبة بين مكة والمدينة، وأخطارها الجسيمة - آنذاك - من الحيوانات المفترسة وقُطّاع الطرق وغير ذلك، يدرك حقيقة المعاناة التي لا يقدر على تجاوزها إلا قليل من ذوي العزم والبأس، فكيف بامرأة تخرج - وحدها - من مكة لتلتحق بقافلة المؤمنين المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وكل ما يملكون لله عز وجل وحده.

أجل، خرجت وحدها مهاجرة، وصاحبتُ رجلاً من (قبيلة خزاعة) حتى وصلت إلى المدينة المنورة، في الهدنة التي عُقدت بين رسول الله ﷺ وقريش،

وكانت مدتها عشر سنوات.

وما إن علم بهجرتها أخواها: الوليدُ وعمارة، حتى خرجا يريدان إعادتها إلى مكة، ووصلا إلى المدينة، وهناك التقيا رسول الله ﷺ طالبين أن يعيد لهما أختهما، مذكرين له بشروط الهدنة التي تنص على أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلاَّ رددته إلينا، وخلصت بيننا وبينه. وقد وُقِّيَ رسولُ الله ﷺ بما عاهد عليه قريشاً وهو أفضل من وُقِّيَ بعهدده، فكان يردُّ كل من فرَّ إليه من مكة ولو كان مسلماً.

وتسمعُ (أم كلثوم) حديثَ أخويها، فلم تتمالك نفسها، خشية أن يُعيدها رسول الله ﷺ إلى دار الكفر بمكة ليصدوها عن عبادة الله تعالى وحده؛ فخاطبت رسول الله قائلةً له:

«يا رسول الله، أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف، فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي»<sup>(١)</sup>.

وسمع الله عز وجل من فوق سبع سمواته - وهو السميع العليم - ما قالته (أم كلثوم) لرسول الله ﷺ؛ فلم يتركها ليفتنها الناس عن دينها الذي آمنت به؛ فأنزل فيها وفي كل امرأة مسلمة مؤمنة من المهاجرات بعدها آياتن تتلى آناء الليل وأطراف النهار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ  
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٢٧٦، والإصابة ١٤/٥٠٣.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١].

وفي هاتين الآيتين منع الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن تُعاد المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد الامتحان لهن، وأنزل أحكاماً تنص على نقض عقد النكاح بين الرجل المؤمن وزوجته الكافرة، وتنظيم إعادة المسلمين مهر المسلمة إلى الكفار، وإعادة مهر الكافرة إلى المسلمين.

أما مسألة الامتحان، فكانت لبيان سبب الهجرة: أهو من أجل زوج تكرهه، أو لمنفعة دنيوية، أم رغبة عن أرض إلى أرض، أم كانت حباً لله ولرسوله؟.

هذا هو الامتحان الذي كانت تُمتحنُ فيه المهاجرات.

لم تكن (أم كلثوم) حين هاجرت إلى رسول الله ﷺ متزوجة، فتزوجها زيد ابن حارثة ثم فارقتها، ثم تزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له: (إبراهيم) و (حميداً)، فلما توفي عنها تزوجها عمرو بن العاص<sup>(١)</sup> وماتت عنده في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روت عشرة أحاديث في (مسند بقي بن مخلد)<sup>(٢)</sup>.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٧.

وروى عنها ابناها: إبراهيم ومحمد، وبسرة بنت صفوان، وروى لها الجماعة سوى ابن ماجه.

ومن الأحاديث التي روتها عن رسول الله ﷺ:

«ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس، ويقول خيراً وينمي خيراً»<sup>(١)</sup>.

رضي الله عن (أم كلثوم)، فقد كانت ذات همّة تتضاءل أمامها همم الأشداء من الرجال.

### الأحوال التي نزلت فيها الآيتان:

أتبع رسول الله ﷺ أساليب عدة في دعوة قريش إلى الإسلام، لكنها ظلت معرضة عن الإيمان بالله الإيمان الحق، ولم تقف عند كفرها وشركها، بل صارت تضطهد كل من آمن بالله واليوم الآخر! ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي السنة السادسة من الهجرة، رأى في منامه أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه، واستبشر الصحابة برويا الرسول خيراً؛ لأنّ رؤيا الأنبياء حق.

خرج رسول الله ﷺ لأداء العمرة، وأخرج معه الهدي ليُعلم قريشاً أنه لا يريد حرباً ولا يريد إلاّ زيارة بيت الله الحرام، وأرسل من يخبر قريشاً بذلك. أما قريش، فقد غلا الدم في عروقها، ودخلت الحمية الجاهلية أنفها، وقرّرت أن تصدّ رسول الله عن دخول مكة... وأخيراً أرسلت (سهيلاً بن عمرو) ليفاوض رسول

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح (باب: ليس الكاذب الذي يُصلح بين الناس)، حديث ٢٦٩٢، ص ٤٣٩، ومسلم في كتاب البر والصلة (باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه) حديث ٦٦٣٣، ص ١١٣٧.

الله في أمر دخوله مكة. واتفق الرسول الكريم مع سهيل على شروط منها: أن من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم... وما إن أملى سهيل شروطه حتى دخل (أبو جندل بن سهيل بن عمرو) يرسف في قيوده، وألقى بنفسه بين أيدي المسلمين، فقال سهيل لرسول الله ﷺ: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه. وحاول رسول الله أن يقنعه بأن الكتاب لم يتم بعد، لكنه أبى حتى يردّه إليه. ومع هذا فقد تمّ الاتفاق. وما إن رجع رسول الله ﷺ من الحديبية<sup>(١)</sup>، حتى جاءه (أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي) مسلماً، فقد اهتبل فرصة انشغال الناس بالهدنة بين رسول الله وقريش ففرّ إلى المدينة ولم يكن يعلم بشروط المعاهدة. وعلمت قريش بفراره إلى المدينة، فأرسلت رجلين في طلبه فسلمه إليهما، وقد تمكّن (أبو بصير) من قتل أحدهما في الطريق وفرّ الثاني، وعلم أنّ رسول الله ﷺ سيرجعه إلى مكة، فخرج حتى أتى (سيف البحر)، وقد قال رسول الله ﷺ فيه: «ويل أمّه مسعر حرب لو كان له أحد»<sup>(٢)</sup>.

إنّ رسول الله ﷺ أفضل من وقيّ بعهدته، فكان يردّ من جاءه من المسلمين من مكة إليه... وممن جاءه من المسلمات من مكة (أم كلثوم بنت عتبة بن أبي مغيظ)؛ فلم يردّها رسول الله ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أنزل هاتين الآيتين، وإنّ ذلك الشرط كان في الرجال.

### المرأة الممتحنة:

تتحدث الآيتان الكريمتان في أمر المرأة الممتحنة: وهي المرأة المسلمة التي

(١) الحديبية اسم بئر تقع على بعد ٢٢ كم إلى الشمال الغربي من مكة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، حديث ٢٧٣١ و ٧٣٢، ٤٠٧/٥.

تركت عبادة الأصنام والأوثان، وآمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وفرت بدينها من مكة إلى المدينة مهاجرة في سبيل الله، فيقوم المسلمون باختبارها، ليغلب على ظنهم أنها ما هاجرت إلّا حباً في الله ورسوله، وما خرجت بُغضاً لزوجها، ولا لزوجٍ تريد الاقتران به في المدينة... فهاجرت (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط)، وجاءت (سُبَيْعة الأَسلمية) مهاجرةً هاربةً من زوجها (صيفي بن الراهب) - أو مسافر المخزومي -، وجاءت (أميمة بنت بشر)، هاربةً من زوجها (ثابت بن الشمراخ) - وقيل حسان بن الدحداحة - وطلبهن أزواجهن، فجاء بعضهم إلى المدينة يطلب ردّ زوجته إليه قائلاً: إِنَّ طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجفّ بعد؛ فنزلت هاتان الآيتان؛ فأبى رسول الله ﷺ أن يردّ آيةً واحدةً منهن.

\*\*\*

قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ جِلَّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاؤُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المتحنة: ١٠ - ١١].

صلة الآيتين بما قبلهما:

كانت الآيتان اللتان افتتحتا (سورة المتحنة) فيهما نهي للمسلمين عن موالاة المشركين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخِذُوا عِدْوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ...﴾ [المتحنة: ١]. وجاء في آيات السورة حكم الكافر المحارب، وحكم الكافر المسالم، وكان من مقتضى ذلك أن يهاجر المسلمون من بلاد الشرك إلى بلاد المسلمين. وكان من المسلمين من زوجته مشركة، ومن المسلمات من زوجها مشرك، ولم يكن ذلك محرماً. ولا ريب أن التناكح من أوكد أسباب الموالاة؛ فجاءت الآيتان مُبَيِّنَةً أحكام النساء المهاجرات.

التفسير:

تبدأ الآية الكريمة بمخاطبة من صدق بهذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه عز وجل حق التصديق، يقول لهم: إِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ اللَّاتِي فَرَرْنَ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِاِخْتِبَارِهِنَّ، حَتَّى

يغلب على ظنكم أنّ هجرتهنّ كانت لله ولرسوله، وليست لعرضٍ من أعراض الدنيا، وليست فراراً من زوج، ولا من أجل تبادل دار بدار، فقد كان من النساء في مكة إذا غاضبت زوجها تقول له: لألحقنّ بمحمد، فإذا غلبَ على ظنكم بعد الامتحان أنّ هجرتهن لم تكن إلاّ حبّاً بهذا الدين، فلا ترجعهنّ إلى أزواجهن، ولا إلى أهلهن من الكفار.

قال العلامة ابن كثير:

(وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة؛ فخرج أخوها: عمارة والوليد، حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلّمهاه فيها أن يردها إليهما، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة، فمنعهم أن يرُدّوهن إلى المشركين، وأنزل الله آيات الامتحان)<sup>(١)</sup>.

وجاء الأمر بحرمة ردّ النساء المؤمنات المهاجرات اللاتي نجحن في الامتحان بالآية الكريمة أوّلاً، ولأن شرط الردّ - في شروط صلح الحديبية - كان في الرجال لا في النساء ثانياً، ولأنّ الرجل قد يظل صابراً محتسباً محتفظاً ببيانه الحق مع العذاب الذي ينصبّ عليه صباً بعد ذلك، وليست النساء كذلك في تحملهن مثل هذا العذاب بغية حملها على الكفر، فرحم الله ضعفهنّ، فمنع من ردهنّ إلى الكافرين.

هكذا أخرجت الآية المؤمنات من شروط صلح الحديبية، وظل الرجال مشمولين بذلك الشرط من باب تخصيص العموم: كتخصيص السنة بالقرآن،

(١) تفسير ابن كثير ٧/٢٤٩.



وتخصيص القرآن بالسنة<sup>(١)</sup>.

يقول ابن قيم الجوزية، متحدثاً في مسألة ردّ المهاجرات، وأن حرمة ردّهن لم تكن بالنسخ فيقول:

(إن كان (عقد الهدنة) مختصاً بالرجال لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً: للرجال والنساء، فالله سبحانه وتعالى خصّص منه ردّ النساء، ونهاهم عن ردّهن، وأمرهم بردّ مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاها)<sup>(٢)</sup>.

فامتحنوهنّ:

﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَنِهِنَّ﴾

الامتحان: هو الاختبار وقد تعددت الروايات في طريق امتحانهن: فروي عن مجاهد قال: (فاسألوهن عمّا جاء بهنّ: فإذا كان جاء بهنّ غضب على

---

(١) مثال تخصيص السنة بالكتاب: حديث رسول الله ﷺ: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة» أي محرم أكلها رواه أبو داؤد، حديث ٢٨٥٨، والترمذي حديث ١٤٨٠، وابن ماجه، حديث ٣٢١٦.

وتخصيص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا...﴾ [النحل: ٨٠] أي ليس محرماً.

ومثال تخصيص الكتاب بالسنة قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ...﴾ [المائدة: ٣]، وهذه الآية عامة، وجاء تخصيصها بقوله ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ: الْحَوْتُ وَالْجُرَادُ» رواه ابن ماجه، حديث ٣٢١٨.

(٢) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية ٣/١٥٠.

أزواجهن، أو سخطة أو غيره ولم يُؤمِّنَ فارجعوهن إلى أزواجهن<sup>(١)</sup>.

وقال قتادة: (كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكنَّ النشوز، وما أخرجكنَّ إلا حب الإسلام وأهله وحِرْصٌ عليه، فإذا قلن ذلك قُبِلَ ذلك منهن)<sup>(٢)</sup>.

هذا هو الامتحان الذي كان يجريه المسلمون مع المهاجرات: وهو الأخذ بظاهر أمرهن مع الحلف بالله تعالى، وأما خفايا الصدور ومعرفة حقيقة الإيـان، فذلك أمر غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه وحده. هكذا تأتي الجملة القرآنية: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَهُنَّ﴾، لتشير إلى ذلك.

### الامتحان للنساء المهاجرات دون الرجال:

كان الامتحان للنساء المهاجرات وحدهن، ولم يُمتحن أحدٌ من الرجال، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾. وقد شهد القرآن الحكيم بصدق إيمان المهاجرين من الرجال، فلم يحتج أحد منهم إلى امتحان، قال تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ونظر إلى الرجل المهاجر، وهو يضع أمام عينيه تبعه الجهاد في سبيل الله، فلا يُقدم على الهجرة إلا وهو صادق الإيمان، فلا يحتاج إلى امتحان. أما النساء،

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٤٩.

فليس عليهنَّ جهاد، وإذا حدثت للمرأة مشكلة أو مشكلات مع زوجها أو مع أهلها، فقد تخرج باسم الهجرة، ولا تريد الهجرة، ولكن تريد الفرار مما تعاني، فكان التوثق من سبب الهجرة أمر ضروري؛ ليغلب على الظن حقيقة إيمانهن. ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ﴾، وأمَّا في حق الرجال، فقال تعالى: ﴿أَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الصَّادِقَاتُ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهناك مسألة أخرى: وهي أنَّ المرأة إذا هاجرت يفسخ عقد نكاحها عن زوجها المشرك، ويُعوَّض هو بما أنفق عليها من المهر، وهذا بخلاف هجرة الرجال.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ جُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾

أطلق القرآن الكريم العلم هنا (فإن علمتموهن مؤمنات) وأراد به الظن الراجح الذي يعرف بالحلف وظهور القرائن والأمارات، فالمرأة التي تهاجر من مكة إلى المدينة خارجة من وطنها الذي نشأت فيه، وحلت في قوم هم ليسوا بقومها... فإذا نجحت في امتحانها يغلب على الظن أنها صادقة في إسلامها وهجرتها. فإذا ترجَّح لكم هذا، فلا يجوز لكم أن ترجعوهن إلى أزواجهن الكفار، ولا إلى أهلهن؛ لأن وشائج الصلة بين المؤمنات وأزواجهن الكفار قد انقطعت وانبتت؛ فلا تكون المؤمنة زوجة لكافر، ولا يكون الكافر زوجاً للمؤمنة. وفي هذا تأكيد لنهي المسلمين عن ردِّ المؤمنات المهاجرات إلى الكفار. وبهذه الآية الكريمة صارت حرمة المسلمات على الكافرين فمن كانت له امرأة بمكة، انقطعت

عصمتها، فلم تكن عند ذاك بزوجة له، ولم يكن ذلك محرماً قبل نزول الآية الكريمة.

ويبدو - والله أعلم - أنَّ هذا التحريم يقع بالهجرة، وليس بالإسلام قبلها: (واتفق الجمهور على أنه إذا أسلمَ وهاجر أحدُ الزوجين بقيت العصمة إلى نهاية العدة، فإن هاجر الطرف الآخر فيها، فهما على نكاحهما الأول)<sup>(١)</sup>.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ فإن ديننا لا يهمل الحقوق المالية المتعلقة بالزوجين، فهو دين العدالة حتى مع الكافر والمشرك، فإذا انتقلت زوجته إلى الإسلام صارت لا تحلُّ له، فلا ترجع إليه فحرمَ منها، فكان من العدالة أن يُردَّ إليه ما أعطاه لزوجته قبل أن تُسلم من المهر ونفقات الزواج: ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾. ولعلَّ هذه العدالة تلفت أنظار الكافرين والمشركين إلى أن هذا الدين لا يظلم أحداً. قال الإمام القرطبي:

(أمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يُردَّ على زوجها ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهد؛ لأنه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام، أمر برد المال إليه، حتى لا يقع عليه خسران من الوجهين: الزوجة والمال)<sup>(٢)</sup>.

### الزواج من المؤمنات المهاجرات:

ولم يترك الله عز وجل المؤمنات اللاتي تركن الأهل والأزواج فراراً بدينهن، فقام بتكريمهن: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾. فلم تُترك من

(١) تنمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ٨/ ١٠٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٠.

هاجرت إلى الله ورسوله، فخاطب الله المؤمنين: أن لا حرج عليكم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد استبرائكم لأرحامهن. ومن رغب بالزواج منهن بعد موافقتهن فعليه أن يدفع المهورَ لهنَّ كاملة غير منقوصة.

ونجد القرآن الحكيم نصَّ هنا على وجوب دفع الزوج المسلم المهرَ لمن يريد الزواج منها؛ لئلا يتوهم متوهم أن وليَّ الأمر ردَّ المهر إلى زوج المرأة الكافر، وأن ذلك يغني عن دفع مهر جديد لها إذا تزوجها المسلم، فلا يُقدِّم المهرُ المردودُ للكفار مقام المهر الذي يجب أن يدفعه لمن فرَّت بدينها إرضاءً لله ولرسوله، والمراد بالإيتاء ﴿إِذَا عَاتِيَتْكُمْ﴾: هو الالتزام بإعطاء المهر عاجلاً أو آجلاً، على أن يكون برضى المرأة.

**الأجور في قوله: ﴿إِذَا عَاتِيَتْكُمْ أَجُورَهُنَّ﴾:**

المراد بالأجور هنا: صداق النساء. فلا يجوز أن ينكح الرجل المرأة من غير صداق عاجلاً أو آجلاً، وقد تكرر في القرآن الكريم وجوب إعطاء الصداق للمرأة، قال تعالى:

﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَدْنَىٰ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥].

وقال في نكاح نساء أهل الكتاب:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا عَاتِيَتْكُمْ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال عز وجل لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَأْتَيْتَ أَجُورَهُنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهذه الآيات الكرييات ردُّ واضح على من يفسِّر الأجرور بنكاح المتعة في قوله عز وجل: ﴿فَمَا أَسْتَمْتَعُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ...﴾ [النساء: ٢٤].

### مسألة العدة:

وحين يتزوج المؤمن من المهاجرة المؤمنة، فهل يكون عليها عدة، أم إنَّ العدة لا تكون إلاَّ للحوامل حتى يضعن حملهن؟ وإذا كانت العدة عليها فهل هي عدة المطلقات ثلاثة قروء، أم عدة استبراء الرحم بحيضة واحدة؟ هذه المسألة محل اختلاف فقهي ولكل واحد من الفقهاء دليله.

ثم يأتي حكم الله بتلك الزوجات الكافرات اللاتي أُبَيِّنَ الانضواء تحت لواء الإسلام، فجاء نهي الله عن إبقاء رباط الزوجية بين الرجل المؤمن وزوجته الكافرة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾.

أي لا يجوز لكم يا من آمنتم بالله أن تُبقوا الزوجات الكافرات في عصمتكم، يعني في عقد النكاح. وما إن نزلت الآية الكريمة هذه، حتى بادر المسلمون إلى تطليق زوجاتهم الكافرات اللاتي أُبَيِّنَ الهجرة إلى المدينة:

(فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية)<sup>(١)</sup>. وطلق طلحة بن عبيد الله

(١) رواه البخاري في كتاب الشروط (باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط)، حديث ٢٧٣١-٢٧٣٢، ص ٤٥٠.

أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص، وطلق من الصحابة غير هؤلاء.

وهذه الجملة القرآنية التي مر ذكرها تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وهكذا جاءت الجملة القرآنية بهذا الحسم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لبيان زوال النكاح في الوقت الحاضر، ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فيما يُستقبل من الزمان؛ وهكذا نرى التعبير القرآني جاء بالاسم في المقطع الأول ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، وجاء بالفعل في المقطع الثاني ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup>.

وبهذا انقطعت العلاقة بين الرجل المؤمن وزوجته الكافرة، وبالعكس. وهذا يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ رابطة العقيدة فوق رابطة الزواج، وفوق الروابط الأخرى كلّها.

وننظر إلى النساء المشركات اللاتي طلقهنَّ المسلمون، فلم نرَ واحدةً منهنَّ قد

---

(١) قد يسأل سائل: لماذا قال القرآن الكريم هنا: (لا هنَّ حلُّ لهم) بالجملة الاسمية، (ولا هم يحلونَّ لهنَّ) بالجملة الفعلية، فلماذا لم يأت النص الشريف على نمط واحد كأن يقول: لا هنَّ حلُّ لهم ولا هم حلُّ لهنَّ؟ وأجاب عن هذا الدكتور فاضل صالح السامرائي فقال:

«من المعلوم أن الاسم يدل على الثبوت، والفعل يدل على الحدوث والتغيّر. وعبر عن الكفار بالفعل؛ لأنه يتغيّر الحكم بتغيرهم بأن يسلموا.

فالحكم في حقهن ثابت أبداً، ومن الممكن أن يتغيّر الحكم بالنسبة إليهم إذا غيروا دينهم إلى الإسلام.

ينظر: أسئلة بيانية في القرآن الكريم للدكتور فاضل صالح السامرائي ١/ ٩٧، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، دار ابن كثير دمشق.

التحقت بزوجها في المدينة، بل بقيت مصرة على كفرها وشركها بمكة.

ويبدو من عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾ أنها تشمل كل كافرة، ومنهنّ الكتابيات، لاعتقادهنّ أنّ الله ولدًا، ولكنّ هذا العموم خصّص بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] أي جلّ لكم. وظلت الحرمة بين المسلم والمرأة المشركة قائمة على التأييد.

أما ملك اليمين، فمستثناة (من عصم الكوافر)، فيحل للمسلم أن يستمتع بها<sup>(١)</sup>.

### من مظاهر عدالة الإسلام:

﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ويستمر القرآن في تفصيل هذا الحكم الذي تتمثل فيه العدالة في صورة من أجل صورها، فحين يقع التفريق يكون التعويض، فيردّ للزوج الكافر ما أعطاه للمرأة المسلمة من مهر. أمّا الأموال التي يدفعها الأزواج المسلمون من مهور النساء اللاتي أبينّ الدخول بهذا الدين، فتعطى من أموال دولة الإسلام كما بيّنته

---

(١) وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن هناك من يسأل: لماذا يجوز للمسلم أن يتزوج بالمرأة من أهل

الكتاب، ولا يجوز للمسلمة أن يتزوجها رجل منهم؟  
والجواب: أولاً: القوامة في الزواج لا تكون إلا للزوج، حتى وإن تعادلا في الحلية بالعقد، والرجل من أهل الكتاب إذا تزوج امرأة مسلمة لا يسلم لها دينها ولا دين أولادها.  
ثانياً: المسلم إذا تزوج امرأة من أهل الكتاب يحترمها، لأنه يؤمن بأصل كتابها ورسولها، أما الكتابي إذا تزوج امرأة مسلمة، فهو لا يؤمن برسولها ولا بكتابها ولا بدينها، فلا يكون بينها تفاهم وانسجام ووثام.



السنة النبوية: فقد أعطى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وعياض بن أبي شداد الفهري، وشماس بن عثمان، وهشام بن العاص مهور نساءهم المشركات.

وكان ختام الآية بالنص على أن الله عز وجل هو الذي أنزل هذه الأحكام التي لا ظلم فيها ولا حيف ولا افتئات حتى مع الأعداء. وهو العليم بأحوال الناس: يعلم ما يصلحهم، وهو الحكيم في تشريعاته: ﴿ذَلِكَمُ حَكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

### إذا أبى المشركون إعطاء مهور النساء المسلمات:

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ﴾.

إن الله عز وجل يعلم ما تنطوي عليه نفوس المشركين من الظلم، فهم لا ينصاعون للعدل، ولا يريدون أداء الحق لصاحبه، أما المؤمنون، فسرعان ما دفعوا مهور زوجاتهم المشركات استجابة لحكم الله تعالى، ولكن ما الحكم إذا أبى المشركون إعطاء مهور المسلمات؟

لقد كتب المسلمون إلى المشركين يُعلمونهم بما أنزله الله تعالى على رسوله بهذا الشأن، ودفعوا مهور النساء المشركات، لكن المشركين أبوا أن يدفعوا للمسلمات مهورهن، والحكم الذي بيّنه القرآن الحكيم هنا: أنه إذا وقع حرب مستقبلاً بين جبهة الإيمان وجبهة الكفر، وكتب الله لجبهة الإيمان أن تنتصر وتأخذ من أموالهم غنائم... عند ذاك يأخذ المؤمنون من الغنائم مثل المهور التي أعطوها إلى زوجاتهم اللاتي ظلن على الكفر. ويشير اللفظ القرآني (مثل): ﴿مِثْلَ مَا

أَنْفَقُوا ﴿۱﴾ إِلَى أَنْ الْمَهْرُ يَكُونُ مَسَاوِيًّا لِمَا أَعْطَاهُ الرَّجُلُ لَامْرَأَتِهِ مِنْ رَأْسِ الْغَنَائِمِ.

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول:

(حكم الله عز وجل بينكم فقال جل ثناؤه: ﴿۱﴾ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ رَأْسِ الْمَهْرِ شَيْءٌ مَا أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتُحْسِنُ الصَّالِحِينَ ﴿۲﴾) فكتب إليهم المسلمون: قد حكم الله عز وجل بيننا: بأنه إن جاءتكم امرأة منا أن توجَّهوا إلينا بصدقاتها، وإن جاءتنا امرأة منكم وجَّهنا إليكم بصدقاتها، فكتبوا إليهم: أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء فوجَّهوا به...<sup>(۱)</sup>.

وقد يسأل سائل: كم عدد مَنْ لِحَقَّ بِالْمُشْرِكِينَ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام الزمخشري فذكر أن عددهن (ست نسوة): أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة، وبرُوع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعبدية بنت عبد العُزَّى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر، فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة<sup>(۲)</sup>.

وهؤلاء النساء لم يكننَّ مُسلمات ثم ارتدن، ولكن ظلن على كفرهن بمكة، فلم يهاجرن إلى المدينة.

وكان ختام الآية بتوجيه الله عباده المؤمنين أن يتقوا غضب الله في كل شأن

(۱) تفسير القرطبي ۱۸/ ۴۳.

(۲) تفسير الكشاف تأليف: جار الله الزمخشري ص ۱۱۰۱.

من شؤون حياتهم. وتعدُّ التقوى من مستلزمات الإيمان الحق. وفي هذا التذييل  
للآية حُصِّ للمؤمنين على الالتزام بكل ما أمر الله به، والانتهاز عن كل ما نهى عنه  
من غير تردُّ ولا تهاون: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

وصدق الله العظيم.

\*\*\*



## محتوى بأسماء الصحابة والصحابيات الذين أنزل الله فيهم قرآناً

<u>الصفحة</u>	<u>اسم الصحابي</u>
٢٠	قيس بن صرمة
٣٤	معاذ بن جبل
٥٣	قطبة بن عامر
٥٩	صهيب الرومي
٦٩	عمر بن الخطاب
٨٩	معقل بن يسار
٩٧	الأشعث بن قيس
١٠٦	حمزة بن عبد المطلب
١٢٣	أم سلمة
١٤٤	عبد الله بن حذافة
١٦٤	الزبير بن العوام
١٨٢	ثوبان مولى رسول الله ﷺ
١٩٢	ابن أم مكتوم

٢٠٨	ضمرة بن جندب
٢١٩	عكاشة بن محصن
٢٤١	خباب بن الارت
٢٥٦	كعب بن عمرو
٢٦٨	سعد بن أبي وقاص
٢٨٢	زيد بن حارثة
٢٩٦	أنس بن النضر
٣٠٥	أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية
٣٣٩	زينب بنت جحش
٣٥٩	خولة بنت حكيم
٣٧٤	عياش بن أبي ربيعة
٣٨٨	عبد الله بن سلام
٤٠٢	خولة بنت ثعلبة
٤١٧	حاطب بن أبي بلتعة
٤٣٣	أسماء بنت أبي بكر الصديق
٤٤٨	أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط

\*\*\*

## المصادر والمراجع

### - كتب التفسير:

- ١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، وتتمته للشيخ عطية محمد سالم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢- بدائع التفسير الجامع لما فسَّرَه الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه وخرَّج أحاديثه: يسري السيد محمد، الطبعة الثانية، ١٤٣١، دار ابن الجوزي، بيروت - القاهرة.
- ٣- البيان لتفسير آي القرآن، لابن تيمية (أحمد بن عبد الحلِيم بن عبد السلام الحراني الدمشقي)، جمع ودراسة وتحقيق: أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الطحاوي، المملكة العربية السعودية - الرياض.
- ٤- تفسير البحر المحيط، تأليف: أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي. حقق أصوله وعلق عليه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٥- التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، حقق في خمس عشرة رسالة في جامعة محمد بن سعود الإسلامية، دار المصور العربي، مصر - الإسكندرية.

- ٦- تفسير التحرير والتنوير، تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ، بيروت.
- ٧- تفسير حدائق الروح والريحان، تأليف: محمد الأمين بن عبد الله الهرري، دار المنهاج، ودار طوق النجاة، بيروت.
- ٨- تفسير الشعراوي - وهو خواطر حول القرآن الكريم - تأليف الشيخ: محمد متولي الشعراوي، طبعة أخبار اليوم - قطاع الثقافة - القاهرة.
- ٩- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لمحمد بن جرير الطبري، بتحقيق: محمود محمد شاكر، ومراجعة: أحمد محمد شاكر، طبع سنة ٢٠٠٨، دار ابن الجوزي، القاهرة.
- ١٠- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) - تقريب وتهذيب - هذبه وقربه وخدمه الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٧، دار القلم، دمشق - بيروت.
- ١١- تفسير القرآن الحكيم المشهور بـ (تفسير المنار)، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، شرح آياته وأحاديثه: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الثانية ١٤٢٦ - ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٢- تفسير القرآن العظيم وهو المشهور بـ (تفسير ابن كثير)، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: ا.د. حكمت بن بشير بن ياسين، الطبعة الأولى ١٤٣١، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية - القاهرة.
- ١٣- تفسير القرآن العظيم المشهور بـ (تفسير ابن كثير)، تأليف: أبي الفداء



إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (تهذيب وترتيب)، هذبه الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، دار الفاروق، المملكة الأردنية الهاشمية، عمّان.

١٤- تفسير القرآن العظيم المسمى (أولى ما قيل في آيات التنزيل)، تأليف شيخنا رشيد الخطيب الموصل، اعتنى به وقدم له: مجد أحمد مكّي، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ - ٢٠١٤، أروقة للدراسات والنشر، المملكة الأردنية الهاشمية، عمّان.

١٥- التفسير الكبير تأليف الإمام محمد بن عمر بن الحسين التيمي المعروف بـ (فخر الدين الرازي)، تحقيق: سيد عمران، طبع سنة ١٤٣٣ - ٢٠١٢، دار الحديث، القاهرة.

١٦- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار المعرفة، بيروت.

١٧- التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم، تأليف: عبد الحميد طههاز، الطبعة الثانية، ١٤٣٥ - ٢٠١٤، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت.

١٨- تفسير ابن برّجان، المسمى (تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنبأ العظيم)، تأليف: الشيخ: عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد ابن برّجان اللخمي الإشبيلي، تحقيق وتعليق وتخريج: الشيخ أحمد فريد المزيدي، طبع سنة ١٤٣٤ - ٢٠١٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ١٩- تفسير النابلسي، تأليف الدكتور محمد راتب النابلسي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ - ٢٠١٦، مؤسسة الفرسان، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان.
- ٢٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف لجنة من العلماء، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الطبعة الثالثة، ١٤١٣ - ١٩٩٢.
- ٢١- الجامع لأحكام القرآن، المعروف بـ (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ضبطه وراجعته على الأصول: محمد صدقي العطار، خرّج أحاديثه: الشيخ عرفان الدمشقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ - ١٤٢٩، دار الفكر، بيروت.
- ٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المعروف بتفسير الآلوسي، تأليف: أبي الثناء شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، حقق في رسائل جامعية من كلية الإمام الأعظم في بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٣١ - ٢٠١٠، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢٣- صفوة التفاسير، للشيخ محمد علي الصابوني، طبع سنة ١٤٣٤ - ٢٠١٣، شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت.
- ٢٤- فتح القدير، تأليف: محمد علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ - ٢٠٠٥، دار ابن حزم، بيروت.
- ٢٥- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهو حاشية الطيبي على الكشف، تأليف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، حققه: عدد من العلماء، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ - ٢٠١٣، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان.

٢٦- في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك، الطبعة الأولى، المكتب المصري الحديث، القاهرة.

٢٧- في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤، دار الشروق، القاهرة - بيروت.

٢٨- المعاني الحسان في تفسير القرآن للدكتور: عمر سليمان الأشقر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ - ٢٠١٥، دار النفائس، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان.

٢٩- مفردات ألفاظ القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ (الراغب الأصفهاني)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار القلم - دمشق، والدار الشامية - بيروت.

### - كتب الحديث:

٣٠- الاستيعاب في بيان الأسباب، تأليف: سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ، دار ابن الجوزي - السعودية وبيروت والقاهرة.

٣١- تاريخ مدينة دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار الفكر - بيروت.

٣٢- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، بتحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة العاشرة، ١٤٣٣، دار ابن الجوزي - السعودية - القاهرة.

٣٣- جامع الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي،

بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار الفيحاء - دمشق، دار السلام - الرياض.

٣٤- الجامع في أسباب النزول، جمعه ورتبه وحققه: حسن عبد المنعم شلبي، خرج أحاديثه: موفق منصور، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ - ٢٠١١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٥- جامع المسانيد والسنن لابن كثير، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور عبد المعطي قلعجي، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، مكتبة المعارف، الرياض.

٣٧- سنن ابن ماجه، للإمام محمد بن يزيد الربيعي، ابن ماجه القزويني، بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار الفيحاء - دمشق، دار السلام - الرياض.

٣٨- سنن أبي داؤد، تصنيف أبي داؤد سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٧ - ٢٠٠٧، دار المعارف - الرياض.

٣٩- سنن الدارقطني، تأليف الإمام علي بن عمر الدارقطني، علق عليه وخرج أحاديثه: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، دار الكتب العلمية - بيروت.

- ٤٠- سنن النسائي الصغرى للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار الفيحاء - دمشق، دار السلام - الرياض.
- ٤١- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤٢- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ - ١٩٩٧، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٤٣- صحيح أسباب النزول، تأليف: إبراهيم محمد العلي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، دار القلم - دمشق.
- ٤٤- صحيح أسباب النزول للواحدي النيسابوري، هذبه: يوسف عمر مبيض، راجعه وقدم له: الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ - ٢٠٠٣، منار للنشر - دمشق.
- ٤٥- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة الثانية، ١٤١٩ - ١٩٩٩، دار السلام - الرياض، ودار الفيحاء - دمشق.
- ٤٦- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، الطبعة الثانية، ١٤٢١ - ٢٠٠٠، دار الفيحاء - دمشق، ودار السلام - الرياض.
- ٤٧- الصحيح المسند من أسباب النزول، تأليف: مقبل بن هادي الوادعي، الطبعة السابعة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار الآثار، صنعاء - اليمن.

- ٤٨- العجّاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار ابن حزم - بيروت.
- ٤٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، الطبعة الثالثة، ١٤٢١ - ٢٠٠٠، دار السلام ودار الفيحاء، سورية - دمشق.
- ٥٠- فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، حققه وخرج أحاديثه: وصي الله بن محمد عباس، الطبعة الأولى، ١٤٣٥، دار ابن الجوزي، السعودية - القاهرة.
- ٥١- مسند الإمام أحمد بن حنبل، قام بتحقيقه: مجموعة من المحققين، أشرف على التحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٥٢- معجم الصحابة لابن قانع البغدادي، تحقيق: حمدي الدمرداش محمد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الفكر - بيروت.
- ٥٣- المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، صححه وراجع أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، ١٤٠١ - ١٩٨١، دار الفكر.
- ٥٤- المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار إحياء التراث العربي.
- ٥٥- معرفة الصحابة، تأليف: أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ومسعد عبد الحميد السعدني، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ -

٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٦- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، لنور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي،  
بتحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد رضوان العرقسوسي، الطبعة الأولى،  
١٤١٤ - ١٩٩٣، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥٧- الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رواية يحيى بن يحيى الليثي، حققه  
وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الثانية،  
١٤١٧ - ١٩٩٧، دار الغرب الإسلامي - بيروت.

### - كتب السيرة:

٥٨- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تأليف: ابن عبد البر القرطبي، تحقيق  
وتعليق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة  
الثانية، ١٤٢٢ - ٢٠٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٩- أسدُ الغابة في معرفة الصحابة، تأليف: علي بن محمد الجزري المعروف بابن  
الأثير، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا. الطبعة الثالثة، ١٤٢٨ - ٢٠٠٧،  
دار المعرفة - بيروت.

٦٠- أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد، تأليف علي بن أحمد بن  
سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي، تحقيق: سيد كسروي حسن، الطبعة  
الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

٦١- أعلام الصحابة رضوان الله عليهم، تأليف: سعيد حوى، الطبعة الأولى،  
١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار السلام - القاهرة.

- ٦٢- إمتاع الأسماع للمقريزي، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٣- ثلة من الأولين، الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، الطبعة الثانية، ١٤١٩ - ١٩٩٨، دار الأرقم، الأردن - عمان.
- ٦٤- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تأليف محمد بن يوسف الصالحي الشامي، جمع وترتيب: خالد عبد الفتاح شبل أبو سليمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٨ - ٢٠٠٧، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٥- سيرة ابن إسحاق، تأليف: محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، تقديم: محمد الفاسي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.
- ٦٦- سيرة صحابة دفنوا في أرض العراق، تأليف: إبراهيم النعمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ - ٢٠١٥، مطبعة أنوار دجلة، العراق - بغداد، ودار عمار، المملكة الأردنية الهاشمية - عمان.
- ٦٧- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبو شهبة، الطبعة العاشرة، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار القلم، دمشق.
- ٦٨- السيرة النبوية لابن هشام، حققها: مصطفى السقا وجماعته، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٦٩- صفة الصفوة لابن الجوزي، ضبطها وكتب هوامشها: إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.



٧٠- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق: محمد فاخوري والدكتور محمد رواس  
قلعجي، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩، بيروت.

٧١- صور من حياة الصحابة، للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، مجلدان، الطبعة  
العاشرة، لدار الأدب الإسلامي، القاهرة.

٧٢- صور من سير الصحابة، تأليف: عبد المجيد بن عبد الرحمن السحيباني،  
الطبعة الرابعة، ١٤١٨ - ١٩٩٨، دار ابن خزيمة، السعودية - الرياض.

٧٣- قادة النبي ﷺ، تأليف: اللواء الركن محمود شيث خطاب، الطبعة الثانية،  
١٤٢٠ - ١٩٩٩، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.

٧٤- مغازي رسول الله، لمحمد بن عمر بن واقد الواقدي. تحقيق: محمد عبد  
القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الكتب العلمية،  
بيروت.

٧٥- من أعلام الصحابة، الدكتور أحمد فريد، دار المجد، الإسكندرية، مصر.

٧٦- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للشيخ أحمد بن محمد القسطلاني، شرحه  
وعلق عليه: مأمون بن محيي الدين الجنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، دار الكتب  
العلمية، بيروت.

## - كتب التاريخ:

٧٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي، حققه وضبطه  
وعلق عليه: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، دار الغرب  
الإسلامي، بيروت.

٧٨- تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،  
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

٧٩- سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان  
الذهبي، حققه عدد من العلماء، وأشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: شعيب  
الأرنؤوط، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٨٠- كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد الزهري، تحقيق الدكتور علي محمد  
عمر، الطبعة الأولى، ١٤٢١ - ٢٠٠١، مكتبة الخانجي - القاهرة.

٨١- الكامل في التاريخ لابن الأثير، حققه واعتنى به: الدكتور عمر عبد السلام  
تدمري، طبع سنة ١٤٣١ - ٢٠١٠، دار الكتاب العربي - بيروت.

٨٢- مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، اعتنى به:  
هيثم جمعة هلال، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ - ٢٠٠٧ - مؤسسة المعارف -  
بيروت.

## - موضوعات أُخرى:

٨٣- تاريخ الفقه الإسلامي، بإشراف الشيخ: محمد علي السائس، مطبعة محمد  
علي صبيح - القاهرة.

٨٤- التعريفات، تأليف السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني الحنفي،  
تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ - ١٩٩٦،  
عالم الكتب - بيروت.

٨٥- زاد المعاد لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط،

الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ - ٢٠٠٥، مؤسسة الرسالة - بيروت.

٨٦- صيد الخاطر لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، بعناية حسن

السماحي سويدان، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩، دار القلم - دمشق.

٨٧- مجموعة الوثائق السياسية، جمعها محمد حميد الله، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠ -

٢٠٠٩، دار النفائس - بيروت.

٨٨- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، بتحقيق زهير الشاويش،

الطبعة التاسعة، ١٤٢١ - ٢٠٠٠، المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق.

٨٩- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ضبطه وصححه: عبد الغني محمد علي

الفاصي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية - بيروت.

٩٠- المستصفي من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي، الطبعة الأولى،

١٣٠٦ - ١٩٣٧، مطبعة مصطفى محمد - القاهرة.

٩١- نهج البلاغة، لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، شرح الشيخ محمد عبده، طبع

سنة ١٤٢٤ - ٢٠٠٤، دار الحديث - القاهرة.

\*\*\*



## المحتوى

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كتاب العالم ولده المخلد
٨٧	مقدمة
١٧-٩	أسباب النزول
	معرفة سبب النزول - أسباب النزول وفهم القرآن - تعدد سبب النزول - فوائد معرفة سبب النزول.
٣٠-١٨	من أحكام الصيام
	ما قاله العلماء في أسباب النزول - قيس بن صرمة - صلة الآية بما قبلها - التفسير.
٥٦-٣١	يسألون النبي ﷺ عن الأهلة
	مقدمة - ما قاله العلماء في أسباب النزول - معاذ بن جبل - معاذ ذلك المجاهد - علمه - عدله - عبادته - ما رواه عن رسول الله ﷺ - وحن وقت الرحيل - صلة الآية بما قبلها - التفسير - ما قاله العلماء في أسباب النزول - قطبة بن عامر - التفسير.
٦٦-٥٧	يبيعون أنفسهم لله
	ما قاله العلماء في أسباب النزول - صهيب الرومي - حياته ونشأته - إسلامه - هجرته إلى المدينة - التفسير.

## أمّ الخبائث

٨٦-٦٧

ما قاله العلماء في أسباب النزول - عمر بن الخطاب - فضائله -  
إيمان عمر - اختياره الولاية - الفتوحات في خلافة عمر - من  
وصايا أمير المؤمنين لقواده - أمير المؤمنين عمر في عام الرمادة -  
عمر بن الخطاب وحرية الرأي - مع الآية الكريمة - الحكمة في  
التدرج بتحريم الخمر - صلة الآية بما قبلها - التفسير - وللعلم كلمة.

## فلا تعضلوهن

٩٥-٨٧

ما قاله العلماء في أسباب النزول - معقل بن يسار - صلة الآية بما  
قبلها - التفسير.

## قوم لا حظّ لهم في الآخرة

١٠٣-٩٦

ما قاله العلماء في أسباب النزول - الأشعث بن قيس - التفسير.

## الشهداء أحياء

١٢١-١٠٤

ما قاله العلماء في أسباب النزول - حمزة بن عبد المطلب - اسمه  
وكنيته - نشأته - إسلامه - هجرته - جهاده - في غزوة بدر - في غزوة  
أحد - استشهاده - حزن رسول الله ﷺ عليه - كفنه - دفنه - لكن  
حمزة لا بواكي له - فضائله - رثاء حمزة - من كرامات الشهداء -  
صلة الآيات بما قبلها - التفسير.

## لكلّ نصيب

١٤١-١٢٢

ما قاله العلماء في أسباب النزول - أمّ سلمة رضي الله عنها -  
إسلامها - هجرتها الأولى إلى الحبشة - هجرتها الثانية إلى الحبشة -

هجرتها إلى المدينة - وفاة زوجها أبي سلمة في المدينة - زواجها من رسول الله ﷺ - العالمة الراوية - صاحبة الرأي الراجح والعقل السديد - فضائلها - وفاتها - مقدمة - صلة الآية بما قبلها - التفسير.

١٤٢-١٦٢

مفهوم الطاعة والحكم عند التنازع

ما قال العلماء في أسباب النزول - عبد الله بن حذافة - اسمه ونسبه - إسلامه - سفير رسول الله إلى كسرى - عبد الله بن حذافة في الأسر - حكمة عبد الله بن حذافة في الأخذ بين العزيمة والرخصة - شهوده فتح مصر - وفاته - صلة الآية بما قبلها - التفسير - أولو الأمر - الحكم عند التنازع - وأخيراً.

١٦٣-١٧٩

من شروط الإيمان

ما قاله العلماء في أسباب النزول - الزبير بن العوام - إسلامه - هجرته إلى الحبشة - في غزوة بدر - في غزوة أحد - في غزوة الخندق - في معركة اليرموك - فتح حصن بابلين - يرفض الولاية - استشهاد الزبير - صلة الآية بما قبلها - التفسير - وأخيراً - ملاحظات وفوائد من الآية الكريمة.

١٨٠-١٨٩

وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا

ما قاله العلماء في أسباب النزول - ثوبان مولى رسول الله ﷺ - حياته - التفسير - أمثلة على حب الصحابة لرسول الله ﷺ.

١٩٠-٢٠٦

لا يستوون

ما قاله العلماء في أسباب النزول - ابن أم مكتوم - حياته - ابن أم

مكتوم في المدينة - يقتل يهودية أساءت إلى رسول الله ﷺ - يطلب من رسول الله أن يأذن له بالصلاة في بيته - من فضائله - أهلاً بمن عاتبني فيه ربي - جهاده - الأحاديث التي رواها - صلة الآيتين بما قبلهما - التفسير.

٢١٧-٢٠٧

مهاجر أدركه الموت في طريق هجرته

ما قاله العلماء في أسباب النزول - ضمرة بن جندب - صلة الآية بما قبلها - التفسير - وجوب الهجرة قبل فتح مكة - عطف كلمة الرسول على اسمه جلّ جلاله - سبب نزول الآية - موت الإنسان في طريق هجرته - أجر المهاجر - باب الهجرة مفتوح - تفسير الزمخشري للآية - ختام الآية - لماذا شرعت الهجرة.

٢٣٨-٢١٨

من أساليب التربية القرآنية

ما قاله العلماء في أسباب النزول - عكاشة بن محصن - استشهاده - كلام في الأسئلة الموجهة لرسول الله ﷺ - ١. بعض ما ورد من روايات في أسباب النزول - ٢. الرسول الكريم ينهى عن الأسئلة التي لا خير فيها - ٣. ما كان عليه الصحابة بعد نزول الآيتين - ٤. الأسئلة المنهي عنها - ٥. دعوة رسول الله ﷺ المسلمين إلى التفقه في الدين - ٦. سؤال عمر بن الخطاب في الخمر - ٧. مختصر ما يجوز وما لا يجوز من الأسئلة - ٨. ابن عباس ومسألة سؤال الصحابة - صلة الآيتين بما قبلهما - التفسير.



٢٥٢-٢٣٩

استعلاء الإيمان

ما قاله العلماء في أسباب النزول - خباب بن الأرت - صلة الآيتين بما قبلها - التفسير - سادة قريش يأبون الجلوس مع المسلمين المستضعفين - يدعون ربهم بالغداة والعشي - التعليل القرآني لنهي النبي عن طردهم - فتنه بعض الناس ببعض.

٢٦٥-٢٥٣

إقامة الصلاة تذهب بالسيئات

ما قاله العلماء في أسباب النزول - مع الذنوب التي تقع من الصحابة - كعب بن عمرو - صلة الآية بما قبلها - التفسير.

٢٨٠-٢٦٦

الوصية بالوالدين

ما قاله العلماء في أسباب النزول - سعد بن أبي وقاص - فارس الإسلام - إسلامه - الفقر الذي أصاب المسلمين في مكة - بين سعد وأمه - في غزوة بدر - في غزوة أحد - سعد بعد وفاة النبي ﷺ - وفاة سعد.

٢٩٤-٢٨١

من أعراف الجاهلية

ما قاله العلماء في أسباب النزول - زيد بن حارثة - زيد في الأسر - حب رسول الله ﷺ لزيد - من فضائل زيد - استشهاده - صلة الآيتين بما قبلها - التفسير.

٣٠٣-٢٩٥

ثناء ووسام من السماء لأنموذج من الشهداء

ما قاله العلماء في أسباب النزول - أنس بن النضر - صلة الآية بما قبلها - التفسير.

٣٣٦-٣٠٤

المساواة في الثواب والجزاء بين الرجال والنساء

ما قاله العلماء في أسباب النزول - أمُّ عمارة نسيية بنت كعب الأنصارية - إسلامها - بيعة العقبة الثانية - في غزوة أحد - في حرب اليمامة - وحن وقت الرحيل - صلة الآية بما قبلها - التفسير - مقدمة - مسألة التغليب في اللغة والبلاغة - ١. الإسلام ٢. الإيمان ٣. القنوت ٤. الصدق ٥. الصبر ٦. الخشوع ٧. التصديق ٨. الصوم ٩. حفظ الفرج ١٠. ذكر الله كثيراً.

٣٥٧-٣٣٧

زواج من فوق سبع سموات

ما قاله العلماء في أسباب النزول - زينب بنت جحش - مع الآيتين الكريمتين - مناسبة الآيتين لما قبلها - التفسير - بين رسول الله ﷺ وزيد - ما أخفاه الرسول في نفسه - خشية رسول الله من الناس - زواج رسول الله من زينب - وأخيراً.

٣٧١-٣٥٨

ما أحله الله لرسوله من الزوجات

ما قاله العلماء في أسباب النزول - خولة بنت حكيم - صلة الآية بما قبلها - مقدمة - التفسير - الصنف الأول - الصنف الثاني - الصنف الثالث - الصنف الرابع - لا تكون الواهبة نفسها إلا لرسول الله ﷺ - من التي وهبت نفسها لرسول الله - الحكمة مما تقدم من أحكام - خاتمة الآية.

٣٨٥-٣٧٢

نافذة على التوبة

ما قاله العلماء في أسباب النزول - عياش بن أبي ربيعة - بين يدي

الآية - صلة الآية بما قبلها - التفسير.

٣٩٨-٣٨٦

الشك الافتراضي لإقامة الحجّة

ما قاله العلماء في أسباب النزول - عبد الله بن سلام - صلة الآية بما قبلها - التفسير.

٤١٤-٣٩٩

من أحكام الظهر

ما قاله العلماء في أسباب النزول - خولة بنت ثعلبة - التفسير.

٤٣٠-٤١٥

حول ولاية المحاربين من أعداء الله

ما قاله العلماء في أسباب النزول - حاطب بن أبي بلتعة - حول سورة الممتحنة - ما تهدف إليه الآية - صلة السورة بما قبلها - التفسير.

٤٤٥-٤٣١

صفحة مشرقة من السلام العالمي يحكيها القرآن

ما قاله العلماء في أسباب النزول - أسماء بنت أبي بكر الصديق - صلة الآيتين بما قبلهما - التفسير - وأخيراً.

٤٦٧-٤٤٦

أحكام في المؤمنات المهاجرات

ما قاله العلماء في أسباب النزول - أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - الأحوال التي نزلت فيها الآيتان - المرأة الممتحنة - صلة الآيتين بما قبلهما - التفسير - فامتنحنوهن - الامتحان للنساء المهاجرات دون الرجال - الزواج من المؤمنات المهاجرات - الأجور في قوله: (إذا آتيتموهن أجورهن) - مسألة العدة - من مظاهر عدالة الإسلام - إذا أبى المشركون إعطاء مهور النساء المسلمات.

٤٦٩-٤٧٠	فهرست بأسماء الصحابة والصحابيات الذين أنزل الله فيهم قرآناً
٤٧١-٤٨٤	المصادر والمراجع
٤٨٥-٤٩٢	المحتوى

\*\*\*

## صدر للمؤلف

- ١ - العقيدة الإسلامية
- ٢ - إيماننا الحق بين النظر والدليل
- ٣ - مباحث في أصول التشريع الإسلامي
- ٤ - أصول التشريع الدستوري في الإسلام
- ٥ - الواضح في مصطلح الحديث
- ٦ - السنة النبوية في مواجهة التحديات
- ٧ - الاسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية
- ٨ - في صحبة الخلفاء الراشدين
- ٩ - ستة مبشرون بالجنة
- ١٠ - من روائع القصص في تضحيات الصحابة
- ١١ - ما ينبغي أن يعرفه المسلم عن الصحابة
- ١٢ - صور من صحابة رسول الله في القرآن والسنة
- ١٣ - شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم
- ١٤ - علوم القرآن
- ١٥ - تأملات في آيات القرآن
- ١٦ - تفسير آيات الحجاب

- ١٧ - مع القرآن الكريم - تفسير وبيان -  
١٨ - السنن الكونية واستعلاء الإيمان  
١٩ - لغة القرآن  
٢٠ - أم الخبائث  
٢١ - العلاج النفسي في القرآن الكريم  
٢٢ - دراسات قرآنية  
٢٣ - رضينا بالإسلام ديناً  
٢٤ - صرخة المنابر  
٢٥ - كلمات من القلب  
٢٦ - قضايا المرأة المسلمة في مواجهة التحديات  
٢٧ - الجهاد في التصور الإسلامي  
٢٨ - العمل والعمال في الفكر الإسلامي  
٢٩ - روائع إسلامية ١ - ٢  
٣٠ - روائع وطرائف ١ - ٤  
٣١ - باقات الورود النضرة من حكايات المسلمين العطرة  
٣٢ - قطوف دانية من مآثر المسلمين وظلام الغرب  
٣٣ - محاضرات إسلامية وأبحاث ثقافية  
٣٤ - فقه الداعية  
٣٥ - المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري

- ٣٦ - الذكر والدعاء في القرآن والسنة
- ٣٧ - رقائق إيمانية في تزكية النفس وتقويم السلوك
- ٣٨ - رسالة المسجد
- ٣٩ - الإسلام في إفريقية الوسطى
- ٤٠ - الوسطية في التصور الإسلامي
- ٤١ - أخلاقنا أو الدمار
- ٤٢ - من أعلام الصحابة
- ٤٣ - لمن تحطم الأخلاق؟
- ٤٤ - خصوم الإسلام والصحوة الإسلامية المعاصرة
- ٤٥ - التوسل والوسيلة
- ٤٦ - الأصولية الإسلامية ومؤامرات الغرب
- ٤٧ - الإعراض عن منهج الله وأثره في حياة المسلم
- ٤٨ - الإسلام والرق
- ٤٩ - الحج ليس وثنية
- ٥٠ - الإسلام وقصة العامية
- ٥١ - المنافقون في القرآن الكريم
- ٥٢ - آدم عليه السلام - خلقه ومعصيته
- ٥٣ - صحابة رسول الله
- ٥٤ - الدعوات القومية

- ٥٥ - نحو الدستور الإسلامي
- ٥٦ - شريعتنا والحياة
- ٥٧ - منهج الدعاة
- ٥٨ - الغلو في التكفير
- ٥٩ - الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم
- ٦٠ - لمحات من المبادئ الاقتصادية في الفكر الإسلامي
- ٦١ - التعامل الربوي وكيف عاجله الإسلام
- ٦٢ - مشروعية العمل الجماعي
- ٦٣ - سيرة صحابة دفنوا في أرض العراق
- ٦٤ - تحقيق كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة للشيخ عدي بن مسافر الأموي الشامي المتوفى سنة ٥٥٧هـ بالاشتراك مع الشيخ محمد علي إلياس العدواني
- ٦٥ - تحقيق كتاب أصول الفقه الإسلامي للشيخ رشيد الخطيب الموصلي
- ٦٦ - السلسلة الذهبية للبراعم الإسلامية في السيرة النبوية ١ - ٢ بالاشتراك
- ٦٧ - نفحات من شريعة الإسلام وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان
- ٦٨ - من روائع الشعر في الحكم وتهذيب النفوس

\*\*\*

التنفيذ الإلكتروني والإخراج الفني  
قسم الكمبيوتر في / دار الحسن للنشر والتوزيع  
هاتف ٤٦٤٨٩٧٥ - فاكس ٤٦٤٨٩٧٥ - عمان ١١١١٨ - الأردن  
e.mail: alhassanpub@hotmail.com